مصر وأفريقيا



دكتور زاهر رياض

دكتور زاهر رياض

رئيس قسم الدراسات الأفريقية
بمعهد الدراسات القبطية

مصر وأفريقيا

الطبعة الأولى

١٩٧٦

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد القاهرة

علاقة مصر بأفريقيا ليست وليدة اليوم ولا هذا العصر. كما أنها ليست سياسة زعيم بعينه ولا عمل جيل خاص. بل هي شيء طبيعي طالما تكون مصر جزءاً من قارة أفريقيا. ويربط النيل — الذي يجرى إلى مصر من أواسط القارة — والصحراء بينهما منذ أن خلقهما الله. ولذا كان طبيعيا أن ترتبط مصر بالقارة الأفريقية أكثر من غيرها من أجزاء العالم. وهي علاقة بشرية وزمانية ومكانية ولا سبيل إلى التخلص منها حتى وإن حاول الناس ذلك في وقت من الأوقات. فإن أردنا أن نؤرخ لهـذه العلاقة فمن الطبيعي أن نتعمق معها إلى أقصى ما نستطيع ونسايرها في تطورها الطبيعي حتى الوقت الحاضر. ولا فـكاك من ذلك.

تقديم

كان من الواجب أن يكتب هذا الكتاب قبل ذلك السنين طويلة ، فعلاقة مصر بأفريقيا قديمة قدم التاريخ . بل قبله . ولكن المؤرخين اهتموا بالعلاقة المصرية الأوروبية أكثر من اهتمامهم بالعلاقة المصرية الإفريقية ، فأرخوا للأولى وأهملوا الثانية . حتى إذا جاء الوقت الذى وقفت فيه الدول الإفريقية - وقد تخلصت من الحكم الأجنبى وأصبحت لها شخصيتها المستقلة — ساندتنا فى فى حقنا وصراعنا ضد العدو الاسرائيلى ، الكامن على أرضنا ، فكان لزاما علينا أن نرد لها بعض هذا الدين ، فلا أقل من أن ننبه الوعى المصرى ومعه الافريقى إلى أن هذه العلاقة ليست بنت يومها .

وإذا كان هذا الكتاب قد وضع بالعربية فلن يقرأه الا المصريون والعرب ، وأولى به أن يقرأه الإفريقيون أيضا ، ولذا أرى من الواجب أن يترجم إلى الانجليزية والفرنسية لنضعه بين أيدى الافريقيين ليشاركونا الوعى والتقدير .

وفى تقديرى أيضا أن خلق هذا الوعى المتبادل - هو أولى خطوات رد الجميل لابد أن تعقبه خطوات أعمق وأشد أثرا تبدو فى تجارب عاطفى ثم عملى ؛ يظهر فيها تستطيع مصر أن تقدمه إلى هذه الدول فى الحاضر والمستقبل فى شكل خدمات ، نحن أولى أن نقوم بها ، من أن تترك إلى الغير القيام بها ، وإلا يكون رد الفعل لذلك سيئا

مصر الجديدة فى إبريل سنة ١٩٧٦ .

المؤلف

الكتاب الاول

العصر القديم

ا — عصر الدولة القديمة

ب — عصر الدولة الوسطى

ج — عصر الدولة الحديثة

د — العصر المسيحى

١ - عصر الدولة القـــديمة

استلفتت ظاهرة الفيضان السنوى أنظار المصريين منذ أقدم العصور فما أن دخلوا مرحلة التاريخ قبل بداية القرن الثلاثين قبل الميلاد حتى حاولوا الوقوف على سر هذه الظاهرة فبدأوا رحلاتهم نحو الجنوب سواء عن طريق البر أو النهر ، وكان الحمار وسيلتهم فى الأولى والسفينة ذات الشراع وسيلتهم فى الثانية فالنقوش التى وجدت فى منطقة جبل الشيخ سليمان على الضفة اليسرى للنهر جنوبى وادى حلفا تدل على قدوم مبكر إلى هـذه البلاد أيام الملك جر Ger ثانى ملوك الأسرة الأولى وهو نقش لقارب ذى صارى رأسى تسبح بجواره بعض أجساد بشرية ، والى الطرف الأيسر من النقش نجد اسم الملك منقوشا، بجواره يقف رجل موثوق اليدين إلى ظهره . وهو يحمل قوساً هو العلامة الهيروغليفية لـكلمة (زيتى) وهو الاسم القـــديم لبلاد النوبة إشارة إلى استعمال أهالى هذه الجهات لهذا النوع من الأقواس ، ويظن أن هذا أول اتصال بين المصريين وأهالى النوبة فى العصر التاريخى كما نجد أيضا نقشاً فى هيرا كونبوليس يمثل الملك خاش خيمو أحد ملوك الأسرة الثانية راكعا بركبته على رجل يمثل بلاد النوبة وتوجد على رأس الأسير علامة القوس التى هى حرف (زيتى) الهيروغليفى .

ومن أعمال الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة أنه مد حدود مملكته الجنوبية بضم جزء من النوبة إليها بعد أن كان الجندل الأول آخر حدودها الجنوبية . وجاء فى رواية أثرية لـكهنة إقليم الشلال الأول أن الملك زوسر وضع يده على ذلك الإقليم ووقف للاله خنوم Khnum معبود تلك الجهة

إيراد الأراضى التى على شاطىء النيل فيما بين جزيرة فيله بالطرف الأول للجندل وتاكومبسو Takompso وهى مسافة يتراوح طولها بين خمسة وسبعين وثمانين ميلا ، وكثيرا ما أثار أهل ذلك الأقاليم منازعات ومشاكسات على المصريين استمرت عدة قرون .

واقتفى سنفرو أثر زوسر فشن الغارة على النوبيين الشماليين فأسر منهم سبعة آلاف أسير ومائتى ألف من الأغنام والبهائم الصغيرة .

وتوفى أوسركاف من ملوك الأسرة الخامسة فتبعه سحورع الذى شيد لمصر أسطولا بحرياً جعلها أول دولة بحرية فى التاريخ (حوالى سنة ٢٧٥٠ ق.م) أوفده إلى بلاد الصومال (بنت) وجنوبى خليج عـــدن لجلب البخور والروائح العطرية .

أما الصومال فكانت تعرف عند المصريين بالأرض المقدسة، ونسب بعض الأثريين مبدأ تجارة مصر مع الصومال إلى عهد الأسرة الأولى لكثرة استعمال ملوك هذه الأسرة لخشب للمر، ولكن يجوز أن هذه الأخشاب العطرية أتت عن طريق التجارة براً وتولاها سكان شاطىء النيل الأزرق وعطبرة وأعالى النيل . وجاء فى الآثار أن أحد أبناء خوفو اقتنى عبداً صومالياً . ولكن المعروف أن سحورع كان أول ملك أثبتت آثـــاره أنه مؤسس المواصلات البحرية مع الصومال رأساً . ومما ورد عنه أنه جلب من تلك الجهات ثمانين ألف مكيال من المر وستمائة مثقال من مخلوط الذهب والفضة وألفين وستمائة ساق من نباتات ثمينة لايستبعد أن تكون الابنوس ، ودون موظف لهذا الملك جهة الجندل الأول نقوشاً كثيرة على الأحجار أشار فيها إلى حملة حربية قام بها الملك على تلك الجهات وتعتبر هذه النقوش أقدم ما وجد من نوعها جهة الجندل الأول .

وكان طريق وادى الحمامات الذى يصل إلى شاطىء البحر الأحمر فى مدة خمسة أيام أسهل المواصلات إلى أرض الصومال ولذا أرسل الملك سحورع بعثة حربية إلى تلك الجهات عن هذا الطريق . كما أرسل الملك إزيسى جيشه إلى ذلك الأقليم عن هذا الممر تحت قيادة رئيس ماليته المدعو بردد Burded ولما توفى ازيسى ورثه فى الملك أونيس Unis فشن الغارات على النوبة ونقش اسمه عند الشلال الأول حيث لقب نفسه بسيد القطرين .

وفى الأسرة السادسة بلغت سياسة بيبى الأول الخارجية شأوا عظيماً ودرجة غير مسبوقة النظير فقد أخضع بلاد النوبة تماماً وجند من أهلها فرقا للجيش المصرى استعملها فى غزواته الشمالية. واعتاد كلما أغار على بدو شرق الدلتا أو مناجم سيناء أن يرسل إلى قائده أونا أمراً بحشد جنود نوبية مع جنود مصرية لكبح جماح هؤلاء العصاة .

وجرت العادة أن يسمى الجزء المجاور للجندل الأول (باب القطر الجنوبى) ولذلك لقب حاكم ذلك الجزء (بحارس الباب الجنوبى) وكانت مهمته حماية القطر من متوحشى بدو النـــوبة . وكانت الأسرة المذكورة (أسرة أونا) التى كانت تقطن جزيرة فيله تحافظ على النظام بتلك الجهات حتى أنه لما صدر الأمر الملكى إلى أونا بالذهاب إلى تلك الجهات لقطع حجر الجرانيت اللازم لصنع التابوت الملكى لم يحتج أونا إلى أكثر من سفينة واحدة ، وهو أمر لم يسبق له مثيل ، وبعد ذلك أمر الملك قائده أونا بفتح خمسة مسالك فى صخور الجندل فأتم مأموريته بنجاح كما شيد سبعة مراكب كبيرة شحنها بصخور الجرانيت من أجل الهرم الملكى واستغرق هذا كله سنة واحدة .

وكانت هذه الجهات الطريق الوحيد إلى أقاليم السودان الجنوبية الغنية

التى تصدر لمصر الذهب وريش النعام وخشب الأبنوس وجلود النمور وسن الفيل، وعن طريقها تأتى للبلاد صادرات الصومال والبلاد المجاورة كالمر والصموغ العطرية والراتنج والبخور . لهذه الأسباب تحتم على الفراعنة أن يحافظوا على النوبة لأنها الطريق الوحيد الموصل إلى تلك الأقاليم الغنية .

ولاتزال معلوماتنا ضئيلة بشأن سكان منطقة الجندل الأول ولكننا نعرف أن القبائل التى قطنت بين الجندلين الأول والثانى كان يقال لها الواوات وتلك التى قطنت حول الجنادل القبلية الأخرى كانت تسمى كوش ويلاحظ أن الاسم الأخير لم يرد ذكره فى الآثار إلا فى عهد الدولة الوسطى أما الجزء الأعلى الذى يقع بين الجندل الثانى وملتقى النيل الأزرق بالأبيض فكان معموراً بقبائل مازوى التى كثيراً ما أمدت الجيش المصرى بالإمدادات فى العصور التالية حتى أطلق المصريون اسم مازوى على الجندى ، وقد ورد هذا اللفظ فى القبطية (ماتوى) .وفوق ذلك كانت توجد قبائل يقال لها أيام يظن أنها قطنت بالقرب من المازوى أما قبائل الأرتت والستحوت فكانت تقطن الجهة الغربية لوادى النيل بين مازوى وأيام جنوبا والواوات شمالا . ولا يستبعد أن تكون الواوات والأرتيت والستحوت تحت رئيس واحد والمعروف أن هذه القبائل كانت وحشية تسكن العشاش الطينية على شاطىء النيل أو حول الآبار المنعزلة وكانت تقتنى الأغنام وتزرع القليل من الحبوب .

ولاجدال فى أن القناة التى شقها أونا فى صخور الجندل الأول سهلت الطريق للنفوذ المصرى إلى السودان ولذا أصبحت سلطة مرن رع مهيبة بين قبائل الواوات والأرتيت ومازوى وأيام.فكانوا يحضرون جميع الأخشاب التى طلبها أونا منهم لبنـــــاء السفن لشحن أحجار الجرانيت من إقليم الجندل الاول .

ومرن رع أول فرعون ذهب إلى منطقة الجندل الأول حيث استقبله رؤساء النوبة الذين أتوا مظهرين طاعتهم ومقدمين هداياهم. وترك نقوشا بتلك الجهات تمثله واقفا متكئا على عصا طويلة وأمامه رؤساء النوبة ساجدين ويلى ذلك نقوش هيروغليفية تبدأ بالعبارة التالية (وصول جلالة الملك إلى الأراضى الواقعة بعد الإقليم الصخرى لمشاهدة هذا الإقليم ولقبول الخضوع والمديح من رؤساء قبائل المازوى والارتيت والواوات).

وأستعان مرن رع بقبائل جزيرة فيلة فى بسط نفوذه على النيل فعين رئيسهم المدعو حرخوف حاكما عاما على الوجه القبلى. وقد أظهر حرخوف وأسرته تفانيا عظيما فى خدمة مولاه وطاعة أوامره فى بلاد النوبة ولذا كان اعتماد الملك عليه عظيما ، فمن أعمال أسرته توطيد نفوذ جلالته وهيبته وحماية التجارة من عبث اللصوص والقبائل الوحشية ثم التوغل فى داخل أفريقيا وجنوبى البحر الأحمر للكشف عن تلك الجهات وخيراتها . ويعتبر أفراد هذه الأسرة أقدم الكاشفين المعروفين فى التاريخ.وروى أن إثنين منهم توفيا من جراء الصعوبات التى لقياها فى رحلات الكشف .

ولكثرة خدمات حكام جزيرة فيلة وعظم أهميتهم أغدق الملك عليهم ألقاب الشرف الكثيرة علاوة على ما كان لديهم من ألقاب قديمة فأصبحوا يلقبون (بمديرى القوافل ، الجالبين لسيدهم خيرات البلاد) وهو لقب طالما افتخروا به ونقشوه على جدران مقابرهم المحفورة فى صخور الجبل تجاه أسوان مقابل جزيرة فيلة مسقط رأسهم . ودلتنا نقوش تلك الجهة أن الملك مرن رع أمر حرخوف أحد حكام جزيرة فيلة بالرحلة إلى أراضى أيام ثلاث دفعات متتالية ،ففى الرحلة الأولى كان حرخوف شابا مساعداً لوالده المدعو (إيرى) الذى عهد إليه فى الإشراف على الأعمال، وقد استغرقت هذه الرحلة سبعه أشهر

أما الرحلة الثانية فقد عهد الملك فى قيادتها إلى حرخوف وحده فقام بها خير قيام وقد استغرقت ثمانية أشهر وإليك نفس الكلمات التى نقشها حرخوف على قبره يصف بها هاتين الرحلتين ، (أرسلنى جلالة الملك مرنرع سيدى مع أبى الرفيق الاوحد الكاهن آرى إلى بلاد أيام كى نفتح طريقاً إلى هـــذا الإقليم ، فأتممت ذلك فى سبعة شهور واحضرت معى كل ماوجدته من خيرات هناك ، وحزت الثناء على ذلك . وأرسلنى جلالته مرة ثانية وحدى فذهبت فى طريق (....) مخترقا بلاد أرتت وماحز وترس . وقضيت نحو ثمانية شهور ، وأحضرت عند عودتى محصولات تلك البلاد بكميات وافرة ، لم يأت أحد بمثلها إلى هذه البلادمن قبل،وعدتمخترقا بلاد حاكم شتووأرتيت بعدأن فتحتها ، وهذا ما لم يتيسر لقائد أية حملة ذهبت قبلى إلى بلاد أيام) ثم كلفه الملك القيام بغزوة ثالثة أشد خطراً من السابقتين فلم يكن أقل نجاحا . فلما وصل أرض أيام وجد رئيسها يحارب قبائل التمحو الليبيين القاطنين غربى إقليمه . فسار إليه حرخوف وأخذ منه جزية حملها على ثلاثمائة حمار أرسلها إلى مصر تحت حراسة خفراء من الأيام،ولم تجرؤ قبائل أرتيت وستحو وواوات على الاقتراب من تلك الغنائم فى سيرها شمالا خوفا من بطش المصريين ، ولم تكتف هـذه القبائل بذلك بل قدمت له الهدايا من الأغنام والبهائم وسهلت له الطريق وساعدته بمرشدين أثناء سفره . ولماوصل حرخوف إلى الجندل الأول وجد مندوبا من قبل الملك فى أنتظاره ومعه سفينة ملكية محملة بالهدايا الملكية تقديراً لخدماته .

وأخذ مرنرع يواصل أعماله فى النوبة وجنوبى السودان مدة من الزمن ثم توقفت أعماله فجأة على غير أنتظار بسبب وفاته .

وفى السنة الثانية من حكم الملك ببى الثانى صدر أمر إلى حرخوف بالقيام

برحلة رابعة لأرض أيام فقام بها أيضاً خير قيام وجلب معه غنائم كثيرة وقزما من أواسط إفريقيا سر به الملك ببيى سروراً عظيما فأرسل إلى حرخوف كتابا يرجوه فيه الاهتمام بعـدم إيذاء ذلك القزم والاحتراس من غرقه ووعده بمـكافأة أكبر من تلك التى أعطاها الملك أزيسى لوزيره بردد لماجلب له قزما من بلاد بنت وقد نقش حرخوف هذا الخطاب على واجهة قبره .

ويرجح أن رحلات حكام الجنوب للنوبة فى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد كانت أقل نجاحا من رحلات حرخوف لأنه ورد أن أحد حـكام الجنوب المدعو سبنى Sebni كان له رئيس يدعى مخو أرسل بأمر ملكى لغزو السـودان فبلغه ذات يوم خبر قتل والده بجهة الواوات فحشد بسرعة جنداً وزحف جنوبا مع مائة حمار ،وأرسل فى نفس الوقت خبراً بذلك إلى الملك مع رسول يحمل هدية قرنا من العاج يبلغ طوله خمسة أقدام . ووصل سبنى إلى أرض الواوات حيث وجد جثة أبيه واقتص من قتلته. ثم أحضر الجثة معه محمولة على حمار ولما وصل إلى الحدود الجنوبية لمصر وجد أن الملك قد أرسل له بعثة ملـكية من المحنطين والنجارين وكميات وافرة من الأقمشة والبخور والزيوت ليحنطوا الجثة بسرعة ثم أهدى الملك إلى سبنى هدايا ثمينة وكمية من الذهب لإخلاصه للعرش وختم نعمته بإعطائه قطعة من الأرض بأمر ملـكى .

وهكذا أمتدت سلطة مصر على النوبة تدريجياً ثم خطر للمصريين أن يعينوا على تلك البلاد حاكما عاما ، فأصدر الملك أمره بتعيين من يدعى ببى نخت Pipinakht فى تلك الوظيفة ، وهو من رؤساء جزيرة فيلة . وحمل لقب (حاكم البلاد الجنوبية) وكلف بغزو أراضى الواوات والأرتيت فنفذ ذلك وأحضر معه غنائم كثيرة وعدداً كبيراً ن الأسرى ورؤساء القبائل كرهائن، وصدر أمر ثان إليه بغزو هذه البلاد فقام بالمهمة خير قيام وأسر رئيسين من

قبائل السودان . . ويستدل من نقوش مقابر جزيرة فيلة أن رحلات المصريين بلغت أرض كوش ، وبهذه الطريقة سهل على ملوك الدولة الوسطى إخضاع النوبة العليا .

والفضل فى ربط تجارة مصر بالصومال وجنوبى البحر الأحمر يرجع إلى حكام جزيرة فيلة الذين كانوا مزودين بالسلطة على البلاد الممتدة من النيل إلى البحر الأحمر. ولا يخفى أن رحلات هؤلاء القوم إلى الصومال كانت صعبة وخطيرة كرحلات النوبة . ولعدم إتصال النيل بالبحر الأحمر أضطر حكام جزيرة فيلة أن يبنوا سفنا بميناء على البحر الأحمر قريبة من النيل كالقصير أولو كوس لميين. وكانت العلاقات التجارية والمواصلات مع الصومال مستمرة وسليمة كما اثبتتها نقوش على جدران مقبرة لأحد رؤساء جزيرة فيلة . فقد جاء فيها أن هذا الموظف سافر مع سيده إلى الصومال أكثر من إحدى عشرة مرة. وكثرت التجارة مع الجنوب حتى لنستطيع أن نقول أن هؤلاء القوم هم الذين ربطوا التجارة المصرية مع البلاد السحيقة حتى أواسط أفريقيا .

ب — عصر الدولة الوسطى

فى عهد الأسرة الحادية عشر غزا الملك نب حپت رع النوبة وواصل مشروعات الأسرة السادسة بعد توقفها فأرسل فى السنة الحادية والأربعين من حكمه وزيره خيتى على رأس أسطول نيلى إلى بلاد الواوات لاخضاعها .

وثابر خليفته منتوحوتب الخامس على غزو النوبة والسودان ووضع شؤون التجارة فى يد موظف حمل لقب (محافظ باب القطر الجنوبى) كما أمره بكشف شواطىء البحر الأحمر فسافر إليها عن طريق وادى الحمامات على رأس قوة تبلغ ثلاثة آلاف رجل لحفر فى الطريق إليها خمسة عشر بئراً ولما بلغ البحر الأحمر بنى مركباً أرسله إلى الصومال .

وفى سنة ١٩٨٠ ق . م أشرك أمنمحعت الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشر ابنه سيزوستريس الأول معه فى الملك فوجه جهوده نحو الجنوب وبسط نفوذه على النوبة . وفى السنة التاسعة والعشرين من حكم امنمحعت الأول توغلت الجنود المصرية إلى أرض الواوات وبلغت كورسكو التى هى نهاية الطريق الصحراوى المخترق لمنحنى النيل والواصل إلى بلاد مازوى .

وثابر سيزوستريس على إخضاع النوبة وذكر إمنى حاكم قسم الوعل على جدران قبره أن امنمحعت الأول ندب أباه للرحلة إلى النوبة،فلما هرم الملك وضعف وضع نفسه تحت تصرف سيزوستريس الأول.فقاد فيلقاً غزا به النوبة تحت قيادة مليكه وتوغل فيها حتى بلغ كوش التى تتكرر اسمها على آثار

ذلك الوقت وتعتبر هذه الغزوة الأولى من نوعها لقيادة الملك لها شخصياً .
وكانت الغزوة الثانية تحت قيادة منتوحوتب الذى أقام لوحاً حجرياً كبيراً عند وادى حلفا حوى معلومات عن انتصاراته الباهرة وثبتا بأسماء البلاد والمدن التى أخضعها .

ومن الطبيعى أن لا نهتدى إلا إلى واحد من الأمكنة التى وردت بهذا الثبت . وهذا المكان هو شيت Shet القريب من قمة على بعد ثلاثين ميلا جنوبى وادى حلفا وكان من أثر إقامة هذا اللوح أن عزل منتوحتب لاعتدائه على مقام الملك . ولا بد أن السكينة والهدوء كانا مخيمين على هذا الجزء فكلف إمنى بالذهاب إلى النوبة مع أربعمائة جندى ليحضر الذهب من السودان وأرسل معه ابنه الذى صار فيما بعد امنمحعت الثانى ليعرف البلاد التى سيدعى يوماً لحكمها وإدماجها ضمن المملكة المصرية .

ويعزى إلى سيزوستريس أقدم الأخبار الخاصة بالمعاملات مع أهل الواحات مع أنه لم يكن يسيطر عليها إذ أرسل أحد أحفاده المدعو إكوديدى Ikudidi إلى الواحات الخارجة غربى العرابه وأقام لنفسه حجراً أثرياً بمعبد أوزوريس بالعرابة طلب فيه من أوزوريس تحقيق آماله ويعتبر هذا الأثر المرجع الوحيد الذى يشير إلى حدوث هذه الرحلة إلى الواحات .

وأشرك سيزوستريس معه فى الحكم ولده أمنمحعت الثانى الذى جرى على سياسة والده ، فأشرك هذا معه بعد ذلك سيزوستريس الثانى فتوطدت العلاقات مع بلاد بنت فرجعت إلى ما كانت عليه فى الأزمنة الغابرة . ولكثرة سفر المصريين إلى هذه البلاد أصبحت معروفة لديهم ، والمعروف أن مناجم الذهب النوبية استمرت تصدر الذهب إلى مصر مدة طويلة ، وشيدوا فى بلاد الواوات قلاعاً حصينة .

واجتهد سيزوستريس الثالث فى ضم النوبة نهائياً إلى مصر فشق لنفسه طريقا بين صخور الشلال الأول (بعد أونا بستمائة سنة) وكان طول هذا الطريق ٢٦٠ قدما وعرضه ٣٤ قدما وعمقه ٢٦ قدما وسمى (طريق سيزوستريس الجميل) .

وفى السنة الثانية من حكم هذا الملك أجريت توسيعات لهذا الطريق قبل القيام برحلة أخرى للنوبة وصار النفوذ المصرى فى النوبة قويا حين شيد سيزوستريس حصنين متقابلين فى آخر حدود مملكته الجنوبية على شاطىء النيل فى سمنة وقمه ، وأعلن رسمياً أن تلك الجهة هى حدود مصر الجنوبية وكتب عليه (هذا هو الحد الجنوبى للمملكة المصرية) ومنع كل زنجى من المرور بطريق الماء أو الأرض إلى مصر مالم يكن من أجل التجارة .

وعرف الحصن الغربى باسم خع كاو رع وهو الاسم الملكى لسيزوستريس الثالث وشيد داخل الحصن محراباً للمعبود دد أون النوبى .

وبعد ذلك بأربع سنين حدثت اضطرابات فى النوبة جنوبى هذه الحدود فذهب الملك بنفسه إلى تلك الجهات ليخضعها ففتك بأهل كوش وزنوج شرق النيل وعاقبهم وسلب أمتعتهم وحرق حصادهم وأستولى على أغنامهم وأقام فى حصن سمنه تذكاراً حجريا ، كما أقام تمثالا عظيما لنفسه بقصد إرهاب الأهالى كى لا يتمردوا عليه . ثم شيد حصنا ثالثاً فى جزيرة أورونارتى جنوبى سمنه وأطلق عليه اسم (صد الاعناء) وبعد ذلك بثلاث سنوات ذهب إلى هذه الأجزاء زائراً وقد توطدت سلطته عليها فاعتبرته الأمة فى عهد الإمبراطورية فاتح السودان ثم عبدوه فى الأسرة الثامنة عشر باعتباره إله النوبة .

واستعملت هذه الحصون للاغراض الزراعية فقد أمر امنمحمت الثالث بأن يقاس أقصى ارتفاع للنيل كل سنة . فتأسس هناك مقياس للنيل ترسل أخباره إلى مصر السفلى لتقدير كمية الحبوب التى يمكن زراعتها فى السنة التالية .

حـ — عصر الدولة الحديثة

أحدثت الاضطرابات التى حدثت فى مصر عقب سقوط الدولة الوسطى تأثيراً سيئاً فى السودان فشق أهله عصا الطاعة ، وامتنعوا عن دفع الجزية .

ولكن أحمس الأول وجه همه — بعد أن طرد الهكسوس — نحو إخضاع هذا الإقليم من جديد ، فأخضعه بسهولة وخاصة ما كان بين الجندلين الأول والثانى ، وأنضم أهله إلى الجيوش المصرية التى زحفت إلى الشام أيام امنحتب الأول .

وتولى العرش بعد امنحتب تحتمس الأول ، فأعلن نبأ توليته الحكم فى النوبة ونقش موظفو الحكومة هذا النبأ على الأحجار فى وادى حلفا وكوبان مما يدل على عناية الملك بهذه الاجزاء ، فعين لها حاكما عاما لقبه (حاكم البلاد الجنوبية وابن الملك المعين على كوش) مع أنه لم يكن من أبناء الملك ولا منتميا إلى الاسرة المالكه ، وأحتفل بتعيينه باحتفال حضره الملك وقدم فيه أحد موظفى الإدارة المالية ختم الحكومة إليه قائلا (هذا ختم فرعون الذى ولاك حاكما على القطر بين مدينتى الكاب وبنارة) ومعنى ذلك أن سلطة حاكم النوبة بلغت الشلال الرابع . ومعلوم أن مابين الشلالين الثانى والرابع كان تحت سلطه رؤساء قبائل المنطقة ، كل رئيس يسيطر على قبيلته . ولم يكن سهلا إخضاع هؤلاء الرؤساء إذ تطلب الامر من المصريين حوالى مائتى سنة وسمح لهؤلاء الرؤساء بالاحتفاظ بمركزهم الإدارى ولكنهم لم يستمروا مدة طويلة بل استعيض عنهم بضباط مصريين بالتدريج .

ولم يكن النصف الجنوبى من السودان أيام تحتمس الأول ساكناً

بل أن النوبة كانت عرضه لهجمات قبائل البدو من الجهات الجبلية المجاور ، ولذا ذهب إليها تحتمس الأول بنفسه فى السنة الثانية من حكمه فوضع حدا لتلك الاضطرابات فحارب رئيس النوبيين وسدد نحوه أول سهامه فأصابه وألقاه على الأرض صريعاً ، وهزم جيشه وأسر منه الكثير ،وأقام الملك بتلك الجهات أحجاراً أثرية وصف فيها غزواته وانتصاراته ، كما شيد على جزيرة تومبوس قلعة لا تزال آثارها باقية إلى الآن ، وعين فيها حامية ثم نصب فيها لوحاً حجرياً افتخر فيه بأنه الملك المهيمن على الأقاليم الشاسعة التى تبدأ من تومبوس جنوباً وتنتهى عند وادى الفرات شمالا وعاد الملك إلى الجندل الأول وقد علق جثة الزعيم النوبى المقتول من رجليها على مقدم سفينته .
ولهبوط منسوب النيل فى شهر أبريل عهد الملك إلى والى النوبة سحورع بالقيام بفتح مجرى السفن القديم بين صخور الجنـــدول الأول ففعل ذلك واخترق الملك الطريق بسفينته وسط احتفالات بالنصر إلى أن وصل إلى طيبة .

وحدث نزاع بين أفراد الأسرة المالكة على اعتلاء العرش ووصلت أخباره إلى النوبة فكان سبباً فى ثورة وصل خبرها إلى تحتمس الثانى يوم توليته العرش ، فجند جيشاً جراراً أرسله بقيادة ضابط مصرى لم يكتف بهزيمة النوبيين ، بل قتل كل من وقع فى قبضته ، كما أسر ابن رئيس النوبة وأرسله إلى طيبة رهينة فهدأت الأحوال فى النوبة .

وتبوأت حتشبسوت العرش فاهتمت بتشييد معبد الدير البحرى .

وكانت شديدة التعلق به وأطلقت على شرفاته اسم (شرفات شجر المر) الذى استحضرته من الصومال إذ كانت أول ملكة تستحضر هــــذه الأشجار من هناك .

وعهدت الملكة إلى رئيس ماليتها نحسى قيادة حملة الصومال فلما كانت السنة التاسعة من حكم هذه الملكة أقيمت الاحتفالات وقدمت القرابين إلى معبودات الهواء ليتفضلوا على أسطول الملكة بالرياح الطيبة لتساعده على السفر،وأقلعت السفن —وكانت خمسين سفينة— فسارت فى النيل حتى شرق الدلتا وهناك دخلت عن طريق قناة وادى الطميلات إلى البحر الأحمر وكانت السفن مشحونة بالبضائع المصرية لتستبدل بها بضائع صومالية ، كما أخذ الأسطول معه تمثالا للملكة لتنصيبه فى تلك البـــلاد السحيقة تذكاراً لها .
ووصلت السفن المذكورة إلى بلاد بنت بسلام فضرب قائدها قبابه على الشاطىء وهناك قابله ملك بنت المدعو برحو Perebu باحترام متبوعا بزوجته البدينة وأطفاله الثلاثة ، ويبدو أن مدة طويلة كانت قد مضت على المصريين لم يطئوا فيها أرض الصومال لأنهم رسموا الصوماليين على جدران معبد الدير البحرى قائلين لهم (لماذا أتيتم إلى هذه الارض التى جهلها من سبقكم من المصريين . هل نزلتم من السماء أو ركبتم السفن فى البحر الموصل إلى الأرض المقدسة ؟) ، بعد ذلك قدم المصريون هديتهم إلى حاكم الصومال ، فابتهج بها ومال إلى المصريين كثيرا وأمر بربط السفن المصرية قريباً من الشاطىء . ثم أنزلت المعابر الخشبية ، وأفرغت السفن محتوياتها ثم ملئت بخيرات بلاد الصومال المدهشة كالأخشاب العطرية الجميلة على اختلاف أنواعها وكومات المر، وعدد كبير من أشجار المر اليانعة وكثير من الأبنوس والعاج النقى . وذهب إيمو Emu الأخضر وخشب الأنيسون والبخور والكحل ، هذا غير النسانيس والقردة والكلاب وجلود الكتاعم الجنوبية وصحبهم بعض أهالى

الصومال وأولادهم . وتعتبر هذه الحملة الأولى من نوعها منذ بداية التاريخ المصرى . ثم أقلع الأسطول عائداً إلى مصر سالما ولم تعترضه حوادث سيئة ولم يضطر إلى أن ينقل بضاعته من سفنه ، بل وصل سالما إلى مرفأ طيبة ولا بد أن تكون دهشة المصريين عظيمة حين وقع نظرهم على واردات الصومال العجيبة وهى تمر بشوارع طيبة نحو القصر الملكى حيث قدمها القائد المصرى إلى الملكة ، فلما شاهدت جلالتها هذه الخيرات تبرعت من فورها بجزء منها إلى الإله آمون مع جزء آخر من واردات النوبة ، لأن المصريين اعتبروا هذين القطرين قطراً واحداً . وهاك بيان بما تبرعت به الملكة: ٣١ شجرة من أشجار المر ، وكمية من الذهب والفضة ، والمكاحل والرماح ، والأبنوس والأدوات العاجية ونمر حى وكمية من جلود النمور ، ٣٣٠٠ رأساً من الغنم ويستدل من الآثار على أن كميات المر التى أحضرت وضعت أكواماً يصل ارتفاع كل منها ضعف طول الرجل . وكانت تكال بحضور (تحوتى) أحد أتباع الملكة المقربين ، أما حلقات الذهب فكانت توزن بموازين يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام .

وبعد ذلك أقامت الملكة احتفالا عظيما استدعت فيه تحوتى ونحسى رئيس الخزانة وقائد البعثة ، وأغدقت عليهما النعم وأخبرت أعضاء أسرتها بنتيجة مجازفتها العظيمة وذكرتهم برغبة آمون فى فتح طريق الصومال وغرس أشجار المر القادمة من تلك البلاد المقدسة فى حديقة معبده .

ثم قالت متباهية (لقد أنجزت تلك الرغبة . وجعلت حديقة معبده أشبه بالصومال . فصارت حديقة كبيرة كافية لنزهته فيها . وهكذا صار هذا المعبد البديع ذو الشرفات عبارة من حدائق من شجر المر لأجل الإله آمون وقد نقشت جلالتها كل أخبار الرحلة على جدار معبد الدير البحرى ، ولا تزال هذه النقوش

من أبدع مخلفات هذا المعبد العظيم . وقد شمل إيراد الإمبراطورية المصرية فى هذا العصر ضرائب الأملاك وجزية المستعمرات الأجنبية الشاسعة الممتدة من الشلال الثالث جنوباً حتى نهر الفرات شمالا . وإليك ترجمة بعض ما كتبته حتشبسوت (لقد بلغت حدود مملكتى الجنوبية أرض بنت .. أما حدودى الغربية فوصلت إلى جبال مانو Manu أى مغرب الشمس . . وقد أحضر إلىَّ من بلاد الصومال .. وأخشاب الأرض المقدسة . . وجزية تحنو (الليبيين) من عاج علاوة على سبعمائة ناب من أنياب الفيلة) .

وقد دلتنا آثار تحتمس الثالث على بسط نفـــوذه على الواحات غربى وادى النيل فصارت هـذه الأقاليم تابعة لجلالته وعهد بإدارتها إلى المدعو أنتف Intef وهو رجل عريق الأصل من نسل أمراء العرابة القريب من الواحة الكبرى التى اشتهرت منذ القديم بنبيذها الجيد .

أما النوبة فكانت مثابرة على دفع جزيتها كل سنة إلى المندوب السامى الذى كان يوفد إليها وكانت هـذه الجزية من الذهب والرقيق والغنم والأبنوس والعاج والحبوب، وكان أهل طيبة ولوعين بمشاهدة جزية السودان المتباينة الأشكال وهى تحمل من السفن الراسية على الشاطىء وتسير فى شوارع مدينتهم نحو الخزانة الملكية .

وفى السنة الرابعة والثلاثين من حكم تحتمس الثالث امتدت سلطته جنوباً فأسر ابن حاكم قسم إيرم Irem المتاخم للصومال واحتفظ به رهينة فى مصر . وقدرت جزية النوبة وقتئذ بما يقرب من مائة وأربعة وثلاثين رطلا من الذهب الخالص ، علاوة على الكميات المعتادة من الأبنوس والعاج والحبوب والأغنام والرقيق وفى السنة الحادية والأربعين من حكمه بلغت واردات بلاد النوبة ثمانمائة رطلا من الذهب وأقام الملك معابد عند كلبشه وعمادا ووادى حلفا

وقه وسمنة ، وفى السنة الخمسين أعاد فتح القناة البحرية المخترقة صخور الجندل الأول ، فى الوقت الذى كانت فيه جيوشه مشغولة بحملة فى تلك الأنحاء .

وعنى أمنحتب الثانى بإظهار حدود مملكته الجنوبية واضحة إذ حين وصل إلى طيبة أثر حملته السورية التى أعاد بها تلك البلاد الى سلطته ، أرسل بزعيم الثورة الذى قام بها إلى النوبة فصلب على جدار مدينة نباتا ليكون عظة لمن يتجاسر على معارضة كلمة مصر ، أما الحـــدود فوصلت إلى الجندل الرابع . الذى أصبح آخر ما تمتد إليه سلطة المندوب السامى المصرى لكوش وحاكم الممالك الجنوبية .

وأظهر أمنحتب الثالث مقدره عظيمة فى إدارة شئون الإمبراطورية عند توليه الحكم ، فلم يتجاسر سكان الأجزاء البعيدة فى عهـــده على القيام بثورة ما . ولذا ظلت هذه الجهات محافظة على هدوئها وكانت الحضارة والرفاهية بالغتين بها الدرجة القصوى . وفى أواخر السنة الرابعة من حكمه حدثت مشاغبات فى جنوبى النوبة فذهب إليها فى أوائل أكتوبر ليتمكن من عبور الجندل بأسطوله وقت ارتفاع منسوب المياه ، وفى ذلك الوقت كان المندوب السامى هناك يسمى امرموس Mermose ، قد حشد جيشاً من السودانيين القاطنين الإقليم بين كوبان وإبريم البالغ طوله خمسة وسبعين ميلا أنضم إلى الجيش المصرى الذى زحف جنوباً ، فاعتبر هـذا دليلا قاطعا على عظم النفوذ المصرى فى السودان الشمالى وحدثت المعركة الحربية بجهة إبحت Ibhet قرب الجندل الثانى فى العيـد الخامس لجلوس الملك أنتهت بهزيمة العصاة وفرارهم تاركين سبعمائة وأربعين أسيراً ، وثلاثمائة وعشرين قتيلا ، كما ورد على لوح النصر الذى نصب فى مكان المعركة. وبعد ذلك زحف أمنحتب الثالث جنوباً مدة شهر تقريباً أسر فى خلاله عدداً من الأسرى ولما وصل إلى تل

هوا Hua ضرب خيامه فى جزيرة أونشك Unesbek ،ويعتبر هذا المكان آخر ما وصل إليه إمنحتب الثالث، وبعد ذلك جمع الملك كميات كبيرة من الذهب لعمارات طيبة من إقليم كاردى بجهة نباتا ثم نصب حجراً تذكاريا على بحيرة حوريس أثبت عليه انتصاراته، وللان لم نهتد إلى موضع هذا المكان بالضبط. وكان هذا آخر عمل حربى لمصر فى هذه الأنحاء لأن هذا الجزء أخذ يصطبغ تدريجياً بالصبغة المصرية . وكان هذا الجزء نوبيا . إما قبل ذلك فكان زنجيا ومن المعروف أن الإمبراطورية المصرية لم تشمل يوماً ما أراضى زنجية. أما ما بين الجندلين الأول والثانى فقد صار مصريا تماما فظهرت به المدن المصرية ذات الهيا كل المصرية التى عبدت فيها المعبودات المصرية ثم أدخلت فى هذه البلاد الصناعة والأشغال اليدوية المصرية فتجلت بذلك فى تلك الجهات المدنية والأخلاق والآداب المصرية . وبالرغم من ذلك سمح لرؤساء القبائل السودانية أن يحتفظوا بألقابهم وأن يشتركوا مع الموظفين المصريين فى إدارة شئون البلاد .

أما القسم بين الشلال الأول وإبريم فكانت إدارته فى يد المصريين ، وجرت العادة وقتئذ أن يحضر المندوب السامى للسودان كل سنة إلى طيبة مصحوبا بجزية النوبة حتى أصبح هذا مألوفا لدى العامة .

وانصرف امنحتب الثالث إلى ترقية شؤون مملكته الداخلية لذلك بلغت التجارة فى عهد هذا الملك درجة رفيعة لم تصل إليها من قبل وصار نهر النيل من الدلتا إلى الشلالات مملوءا بخيرات العالم الواردة باسطول البحر الأحمر وقوافل برزخ السويس ، وانتشرت المصنوعات المصرية وعم استعمالها وحرست الطرق البرية ووفد أهل هذه البلاد إلى مصر واختلط دمهم بالدم المصرى وسبب استغلال ثروة هذه الأجزاء ومنها النوبة رقيا كبيرا فى فن

البناء المصرى بطيبة من حيث الاتقان والجودة فظهرت بها العمارات الضخمة التى بهرت العقول بحجمها وهندستها .

وجاء اخناتون إلى العرش المصرى ومعه ثورته الدينية وعاداه كهنة أمون فى كل مكان ، فكان لا بد أن يبنى لديانته الجديدة مراكز جديدة فى انحاء الامبراطورية المختلفة فخص النوبة بواحد منها فأسس معبدا لأمون بالقرب من الشلال الثالث مقابل بلدة دلجو Delgu الحديثة .

وحدث فى عهد سيتى الأول بن حور محب أول ملوك الأسرة التاسعة عشر أن الليبيين القاطنين غربى مصبات النيل تحينوا فرصة ضعف مصر أيام اخناتون فهاجروا الى الوجه البحرى ، وأخذوا يضعون أيديهم على كل ما يمكن تملكه فهددوا حدود الدلتا الغربية فامضى الملك السنة الثانية من حكمه فى الحد من نشاط هؤلاء الليبيين ، فالتقى بهم فى مكان غربى الدلتا وانتصر عليهم فاقيم لذلك احتفال كبير فى مدينة طيبة .

وارتقى العرش رمسيس الثانى وعادت معه الامبراطورية المصرية التى أطلق عليها المؤرخون اسم الامبراطورية الثانية حيث عاد النفوذ المصرى ومعه المعبودات المصرية أمون ورع وبتاح تعبد فى المعابد المصرية من جديد ويعتبر معبد أبو سمبل أهم وأجمل آثار رمسيس الثانى فى بلاد النوبة التى صبغت كما قلنا بالصبغة المصرية وقد اقتطع المعبد من صخور الجبل وحفر فناء المعبد بداخله شاهدا على مقدرة المصرى وعظمة ما وصل إليه النحت والبناء واقيمت هناك محكمة مصرية للنظر فى الدعاوى والشكايات تحت إشراف المندوب السامى المصرى بالنوبة إذ لم يكن المعبد المصرى فى العادة الا نواة المدينة مصرية تسكنها جاليات مختلطة من المصريين وسكان البلاد الذين الفوا

الحياة المصرية ، لا سيما وقد وصلت حدود مصر الجنوبية إلى نباتا جنوبى الجندل الرابع

ومات انجال هذا الملك العظيم الواحد تلو الآخر ، ولم يتمكن إلا الثالث عشر من أولاده من أن يرث والده، ولكهولة جلالته اجترأ الليبيون واتحدوا مع أهالى البحر وتوغلوا غربى الدلتا حيث سبق لجلالته أن سحقهم وبلغ زحف القوم أبواب منف وعبروا النيل ووصلوا عين شمس ، وعجز رمسيس عن مقاومتهم وقد بلغ نيفا وتسعين سنة وانعكست الأمور بعد رمسيس الثانى وأصبحت الامبراطورية المصرية مدافعة بعد أن كانت مهاجمة ،فظل الليبيون يزحفون زحفهم السلمى ويدخلون البلاد من الغرب دون مقاومة تذكر ، بل سكنوا بعض اجزائها الغربية واختلطوا بالمصريين ولكن كان إلى غربهم قوم يقال لهم المشواش Meshwesh قطنوا الصحراء المجهولة الحد وقتئذ وهم أصل البربر الذين استعمروا شمال أفريقيا وهم ماهرون فى الفنون الحربية مسلحون جيدا قادرون على القيام بحركات هجومية ضد فرعون مصر وأخذت قبائلهم تتحد تحت سلطة أمير منهم فكونوا مملكة قوية طمحت نحو التوسع وتبعد عن مأوى فرعون بمسيره عشرة ايام ، فى الوقت الذى استوطن فيه بعض الليبيين الواحتين جنوبى وغربى الفيوم ، ووصف منفتاح هذه الأقوام بأنهم يمضون أوقاتهم محاربين ليملاءوا بطونهم . ولما زاد عدد الليبيين تطاولوا على فرعون فجمعوا شملهم وكونوا فرقه نظامية وكانوا تحت قيادة ملكهم مريى Meryey ، الذى اجبر بدو التمحو على أن ينضموا إليه ، واستعان بقرصان البحر المتوسط وزحف على مصر .

وعلم منفتاح بالخطر فحصن قلاع عين شمس ومنف ،وفى آخر مارس من السنة الخامسة من ملكه بلغه خبر حشد الليبيين زحفهم ، فأمر بحشد جيوشه .

وتم ذلك فى أربعة عشر يوما، فلما حل منتصف أبريل كانت الجيوش المصرية معسكرة غربى الدلتا والليبيون ينظرون إلى مزارع الدلتا فتشرأب أعناقهم إليها. والتحم الجيشان صباح ١٥ أبريل واستمرت المعركة ست ساعات انتهت بطرد الليبيين بعد أن تكبدوا خسائر فادحة وتعقبهم منفتاح ومزق جيوشهم شر ممزق عند جبل قرون الأرض وهو آخر حدود الدلتا الغربية ، أما مربى فقد فر إلى بلده تاركا جميع أفراد اسرته بين أيدى المصريين ، وقدرت خسائر العدو بتسعة آلاف قتيل وأسرى تقرب من ذلك ، وغنم المصريون تسعة آلاف سيف من نحاس وعددا كبيرا من أدوات الحرب بلغ عددها مائة وعشرين الفا

وبينما الملك يحتفل بهذا النصر فى قصره شرقى الدلتا بلغه أن الليبيين خلعوا ملكهم واقاموا غيره من خصومه ، مما أدى إلى انتهاء الحزب العسكرى فى ليبيا ووقف كل هجوم من تلك الجهة ، ففرح المصريون بهذا النصر الذى أوقف سلب أملاكهم فانشدوا الأناشيد فى مدح ملكهم .

ولكن بعد موت منفتاح الذى طعن فى السن اتجهت مصر بسرعة نحو التدهور فبدأت الاضطرابات تجتاحها وامتدت الاضطرابات إلى النوبة ؛ فكانت ميدانا لحركات ثورية وإن استمرت فى إرسال جزيتها بينما اجتاحت الاضطرابات مصر فى عهد سيتى الثانى وبدا أن البلاد تسير نحو التفكك والانحلال . فانتهز الليبيون هذه الفرصة من جديد واخذوا يهاجرون نحو غرب الدلتا ولصوصهم يعبثون بالبلاد ثم استولوا على الحقول واستوطنوا شاطىء النيل الكانوبى .

عندئذ ظهر بين المصريين رجل مجهول الأصل يدعى ست نخت Setnakht حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م يرجح أنه من سلالة سيتى الأول، نجح فى الاستيلاء على العرش وفى اثبات حقه ، واستعمل فى ذلك حنكة ومهارة سياسيتين استحق عليهما جزيل الثناء ، ونجح فى بسط النظام وتوطيد الأمن ، ولكن

حكمه كان قصيرا فتوفى بعد سنتين فقط . ولكنه أورث العرش ابنه الثالث الذى سمى فيما بعد باسم رمسيس الثالث ، واخذ يصلح قوته الحربية بسرعة وأدخل فيه فرقا من السردينيين المأجورين وضم إليه بعض الليبين وفى خلال ذلك أعاد الليبيون هجومهم على مصر بعد أن جددوا دولتهم وعزلوا ملكهم مربى ووضعوا مكانه من يدعى تيمر Themer ، وكان هجومهم عن طريق البر والبحر ، والتقت جيوشهم بجيوش رمسيس الثالث بجوار مدينة (رمسيس الثالث) وهناك هزمهم وحطم جانبا من سفنهم وأسر الجانب الآخر وقتل الباقين وقد بلغوا ، ١٢٥ الفا وأسراهم الفا واحتفل رمسيس الثالث بهذا النصر احتفالا كبيرا ، وبدأت البلاد تنعم بالهدوء . ولكن سكان الغرب الأقصى بدأوا من جانبهم يستعدون لهجرة كبيرة نحو مصر ويرجع السبب فى ذلك إلى المشواش الذين غزوا أراضى الليبيين وساقوهم أمامهم لمحاربة مصر ، ووصلت حملتهم تحت قيادة مششر Meshesher ابن ملك المشواش المدعو كبر Keper وكان غرض هؤلاء القادمين دخول مصر واستيطانها فحاصروا قلعة هاتشو Hatshu التى تبعد عن حدود الدلتا بحوالى ١١ ميلا فاخذت حامية القلعة تمطرهم نارا حامية حتى دخل الرعب قلوبهم وفروا هاربين ، فتعقبهم رمسيس الثالث حتى تأكد من خروجهم تماما من أرض مصر بعد أن قتل قائدهم مششر وأسر ملكهم كبر. وأخذ منهم ألف أسير سخروا عبيدا لخدمة معبد رمسيس الثالث ، فكانت هذه ثالث مرة تنتصر فيها مصر على الليبين ، ولذا لم تتحد كلمتهم بعد ذلك قط ولكنهم اخذوا يتسللون إلى أرضها تسللا سلميا فى اعداد قليله .

وأخذت البلاد تنعم بالهدوء من جديد . وكان لكهنة أمون ثروة هائلة من جراء ما وهب الملوك معابدهم من أوقاف كثيرة حتى صار له

أسطول ضخم يحمل اليهم المتاجر من فينيقيا وبلاد بنت . وكان يستعمل فى ذلك ميناء مصريا على البحر الاحمر تجاه مدينة Coptos قفط الحالية ، وتنقل المتاجر بعدها إلى النهر على ظهور الحمير وقد أدى هذا إلى زيادة نفوذ الكهنة زيادة هائلة .

وتبع رمسيس الثالث تسعة ملوك ضعاف حملوا كلهم اسم رمسيس ولكنهم لم يستحقوا هذا الاسم العظيم ولم يصلنا من أخبار هؤلاء الملوك إلا شذرات قليلة منها نقوش من مقبرة بنو Penu مندوب رمسيس السادس بقلعة إبريم وهى تشير إلى أن الحكم المصرى هناك كان يانعا وطيدا بفضل هجرة كثير من المصريين إلى هناك . وأخير نجح حريحور رئيس كهنة أمون فى أن يصبح صاحب القوة الحقيقى وكون الأسرة التاسعة عشر، فبسط نفوذه على أعالى النيل وكان ذلك أيام رمسيس الثانى عشر وفى خلال هذا العهد الطويل من الضعف المصرى بسط الليبيون نفوذهم على الوجه البحرى عن طريق المهاجرة السلمية مما ساعد على زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصرى بأطراد تحت قيادة ضباط من المشواش قابضين على قلاع هذه الجهة .

وحدث فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين أن احد الليبيين التحنو المدعو بيو واوا Buyu Wawa استوطن مدينة اهناس Heracleopolis فرزق ولدا اسماه موسن Mosen عين قائدا لحرس المدينة وكاهنا فى معبدها ونجح فى توريث وظيفتيه مجتمعتين لولده شيشنق Schishonc وأصبح قويا ثريا إلى حد أن دفن ابنه ناملوت حين مات فى العرابة باحتفال عظيم .

ولم تكن حالة شيشنق هذه إلا واحدة من حالات مماثلة لكثير من الليبيين فى مدن كثيرة ، وتمكن أحد أحفاد شيشنق هذا وكان يحمل نفس الاسم من بسط نفوذ أسرته على الاراضى من منف شمالا حتى أسيوط جنوبا،

وتمكن أخيرا من الاستيلاء على عرش مصر والتربع فى مدينة تل بسطة شرق الدلتا واعتبره مانيتون المؤرخ مؤسس الاسرة الثانية والعشرين ، وقد مضت مائتا سنة على وفاة رمسيس الثالث الذى سحقهم .

وما إن تم له الأمر حتى زوج ابنه من ابنة بسيب خنو آخر ملوك الأسرة الواحدة والعشرين فمنحه ذلك حقا شرعيا لتولى عرش مصر وأخلص الليبيون له وهابوه .

ونجح شيشنق قبل وفاته فى أن يبسط نفوذه جنوبا حتى طيبة وعين أبنه رئيسا لكهنتها . وتمكن شيشنق من أن يبسط نفوذه على الوجه البحرى أيضا ، بل زوج إحدى بناته من سليمان ملك يهوذا، بل غزا هذه الدولة أيام رحبعام بن سليمان . كما عين حاكم ليبيا على الواحة الكبرى سيوة وأخذت ترد إلى خزينة مصر جزية هذه الامبراطورية الواسعة من النوبة جنوبا حتى ساحل البحر المتوسط شمالا . ومن فلسطين شرقا حتى واحة سيوة غربا .

وتتابع أبناء شيشنق من بعده وكان كل منهم يعين ابنه رئيساً لكهنة أمون فى طيبة . ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر أن هؤلاء الملوك الليبى الأصل تطبعوا تماماً بالطباع المصرية رغم احتفاظهم بأسمائهم الليبية كما حافظ القواد الليبيون على ألقابهم الليبية كرئيس المشواش الأكبر ولكنهم عبدوا المعبودات المصرية وقدموا لها القرابين كالمصريين .

وكالعادة أخذت هذه الأسرة الثانية والعشرين الليبية تضمحل حتى لقد أصبح حكم آخر ثلاثة من ملوكها مشحونا بالأنقلابات والأضطرابات لمدة مائه سنة تقريباً . وكان آخر ملوكهم هو شيشنق الرابع الذى حكم إلى سنة ٧٤٥ ق . م تقريباً .

استمرت مصر تحكم النوبة السفلى مدة تنيف على الف وثمانمائة سنة بينما حكمت النوبة العليا الف سنة فقط اصطبغت فيها تلك البلاد بالصبغة المصرية تماما فشيد فى كل مدينة معبد عبدت فيه المعبودات المصرية .

خلال هذه المدة الطويلة فهم النوبيون أهمية بلادهم حين رأوا المصريين يستثمرون أعالى النوبة الخصبة ويستغلون مناجم الذهب ، كما فهموا أهمية موقع بلادهم كطريق تجارى إلى السودان . ومنذ أواخر الأسرة العشرين أصبح رئيس كهنة آمون هو صاحب الحق فى مناجم الذهب هناك وحاكم النوبة . واتخذت النوبة بعد ذلك منفى للعصاة فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين فلا نستبعد إذن أن تقوم فى القرن الثامن قبل الميلاد مملكة كاملة اتخذت نباتا Napata الواقعة جنوبى الشلال الرابع بقليل عاصمة لها وكانت من قبل أحد الحصون المصرية ومحطة من المحطات التجارية الناجحة على الطريق إلى السودان .

وكانت هذه المملكة صورة طبق الأصل لإمارة آمون الطيبية . وكان آمون معبودها الرسمى ورئيس كهنته شديد التدخل فى الشئون الحكومية بل كان يعزل الملوك ويولى غيرهم وكان أغلب سكانها سود الوجوه فأطلق عليها اليونانيون اسم اتيوبيا .

وأول من عرف من ملوك هذه المملكة هو كاشتا kashta ويرجع تاريخه إلى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد وقد اغار ابنه بعنخى Piankhi على مصر ونشر نفوذه على الصعيد حتى إهناس جنوبى الفيـــوم بينما كانت سلطة أوسركن الثالث محصورة فى إمارة تل بسطة محاطا بأعداء كثيرين من امراء الوجه البحرى أهمهم تفنخت Tafnakht أمير صا الحجر غربى الدلتا ولم يلبث هذا الأخير أن زحف على الوجه القبلى فقاومته إهناس . وحين سلم ناملوت

Namlot أمير الأشمونين لتفنخت أرسل جيشاً لمنع تقدمه نحو الجنوب ولم يلبث الأسطولان أن اشتبكا فى معركة انتهت بهزيمة المصريين فزحف النوبيون شمالا فاستولوا على البهنسا Oxyrhyneus . وسمع بعنخى بكل ذلك فسار إلى مصر فى السنة التالية فوجد جنوده ما زالوا يحاصرون الأشمونين فشدد عليها الحصار حتى سلمت وسلم معها أميرها ناملوت الذى سلم كل املاكه إلى خزائن بعنخى وحين وصل بعنخى إلى اهناس خرج أميرها بف نفدى بست Pef nef di bast وحياه، وواصلت القوات النوبية تقدمها نحو الدلتا ففتحت مدنها أبوابها لجيوشه حيث قدم بعنخى القرابين إلى آلهتها وأخذ كل ثمين لتقديمه إلى خزانة أمون . تم كل ذلك عن طريق غرب النيل دون أن يقرب منف . وأخيراً جاء اليها من الشمال وهاجمها بعنف حتى استولى عليها ونبذت الأمير تفنخت واعترفت بالملك بعنخى ملكا على مصر بعد مذبحة مريعة .

بعد ذلك أتى أمراء الدلتا وقدموا خضوعهم وهداياهم لبعنخى وعاد بعنخى إلى عاصمته نباتا حيث أقام بمعبدها شاهدا جرانيتيا بديعا نقش على جدرانه الأربعة أخبار انتصاراته فانتهز تفنخت الفرصة ليعلن نفسه ملكا مستقلا على الوجه البحرى بينما كان الصعيد تحت حكم بعنخى وشرقى الدلتا تحت حكم أوسركون الثالث الذى حاول أن يتقدم نحو طيبة بعد رجوع بعنخى إلى النوبة .

فى ذلك الوقت الذى اضطربت فيه أحوال مصر قامت مملكة آشور فى غربى آسيا . ولسنا فى صدد كيفية قيامها فليس ذلك فى موضوعنا وما يعنينا فى هذا الصدد هو أن ملكها اتجه غرباً يفتح الشام وفلسطين وتقدم نحو مصر وسمع بذلك شباكا Shabaka بن بعنخى فجميع جيوشه تحت

قيادة ابنه طهرقه Tahraka وأرسلها إلى مصر فاجتازتها إلى بيت المقدس حيث دارت موقعة بينه وبين الآشوريين ومصر هزم فيها المصريون وعاد طهراقه إلى مصر وأرسل إلى أمه فاستدعاها من نباتا وأخذ يستعد لغزوة آشور الثانية لمصر ولم تلبث هذه أن قدمت تحت قيادة آشور أخى الدين Esar badu فقابلها طهراقه وهزمها سنة ٦٧٣ ق.م فتراجع الملك الأشورى إلى الشام ولكنه عاد ثانية سنة ٦٧٠ وهزم المصريين ففر طهراقه إلى منف وجيوش آشور تتبعه ، فتراجع طهراقه نحو الوجه القبلى . وإذا ما انسحب آشور اخى الدين عائداً إلى وطنه ، عاد طهراقة واسترد الوجه البحرى . ولكن آشور بانيبال Ashur banipal عاد وهزم طهراقه الذى فر إلى طيبة حيث تحصن فتركه أشور بانيبال وشأنه . وقد امتدت سلطته حتى نباتا .

أعاد بسماتيك بن نخاو أمير صالحجر تنظيم مصر بعد أن أصبح صاحب الكلمة وأخذ ينشىء لها قوة حربية جديدة ضمت بين صفوفها بعض الليبيين الذين عاشوا فى مصر وعاد يحرس الباب الجنوبى من غزوات النوبيين وأكثر من استخدام اليونانيين الذين ظهروا فى ذلك الوقت وأخذوا يهاجرون إلى مصر وإلى شاطىء ليبيا الشمالى ولابد من ذكر هذه الهجرة لأنهم سوف يكونون على علاقة بمصر فى الأيام القادمة .

وتولى بعد ابسماتيك ابنه نخاو الثانى فى سنة ٦٠٩ ق.م فشيد اسطولا ضخماً فى البحر المتوسط وآخر فى البحر الأحمر واخذ فى ترقية تجارتها فأعاد وصل القناة بين النيل والبحر الأحمر وثنى بان أرسل بعثة بحرية لارتياد سواحل أفريقيا واستغرق منها هذا العمل ثلاث سنين .

وإذا ما خلفه ابنه ابسماتيك الثانى حاول استرداد النوبة التى انفصلت عن مصر منذ تأسيس مملكة نباتا التى أطلق عليها اليونانيون اسم اتيوبيا

فغزا هذا الأقاليم وبلغت جيوشه الشلال الثانى حيث تركت هناك نقشا على أحد تماثيل رمسيس الثانى أمام معبد أبو سمبل . هذا بينما كانت عاصمة النوبيين قد انتقلت إلى مرو بسبب موقع الأخيرة وقيمتها كمركز لتجميع التجارة والتقاء القوافل وتجمعها . وحاول أيضاً أن يقلل من شأن مدينة سيرين فى ليبيا وقد قدم اليها اليونانيون كما ذكرنا ولكنه هزم أمامهم وبذلك أخذت هذه المدينة الأخيرة تنمو بفضل ما كان يرد اليها من البضائع اليونانية .

(د) العصر المسيحى

ودخلت مصر بعد عهد الأسرات فى عهد الظلام فكان من الطبيعى أن تضعف صلتها بأفريقيا وإن لم تنقطع بتاتاً عن النوبة ،فقد كان نهر النيل ولا يزال يربطها بها والتجارة تأتى منها وتذهب إليها وإن كان قد تسرب إليها الضعف أيضاً بل الأفضل أن نقول أن ليست لدينا وثائق ما عن إستمرارها ومقدار نصيبها من القوة ، بل نحن نعرف أن ممالك النوبة التى اتخذت مرو عاصمة لها كانت ذات نشاط زراعى واقتصادى وأن مدنها كانت مركز نشاط اقتصادى بارز وكانت مصر سوقاً من أسواقها وإن كنا لا نملك وثيقة تسجل لنا مدى هذا النشاط .

وجاء عصر الاسكندر ونجح فى الوصول إلى واحة سيوه وزار معبد الاله آمون هناك ودخل إلى قدس الاقداس حيث لقبة الكهنة بابن آمون ، ومن المعروف أن المعبد لم يكن مجرد بناء بل كان نواة لنشاط ثقافى واقتصادى ، فاتصال مصر بواحة سيوه وغيرها من الواحات ظل مستمراً سواء خضعت هذه الواحات الغربية للادارة المصرية أو لم تخضع .

وجاء البطالمة ونشاطهم الاقتصادى معروف بل أن نشاطهم الاقتصادى فاق كل نشاط، وإذا كانت وجوههم قد اتجهت نحو الشمال وبلاد النوبة إلاأن إتجاههم نحو شرق افريقيا ومنطقة النيل الأعلى لم يكن يقل عن نشاطهم فى البحر المتوسط بل وصلت السفن المصرية إلى شاطىء أفريقيا المطل على المحيط الهندى وحاول بعضهم التوغل إلى الداخل .

وكان الحديد يمثل أحد العناصر المهمة فى تجارة البطالمة مع مملكة مرو

وقد اهتم أهلها أيضاً بصيد الفيله وتدريبها لاستخدامها فى الحروب وكا المستهلك الرئيسى لها هم ملوك البطالمة بل أن رغبتهم الملحة فى الحصول عل الفيلة دعتهم إلى إرسال بعثات صيد لحسابهم بالإضافة إلى إنشاء مراكز تجارية لهم على ساحل البحر الأحمر . وكان العاج عنصراً قديماً ومستمرا فى التجارة .

هذا فى الوقت الذى استورد فيه أهل مرو من مصر الغزل والمنسوجات لاسيما تلك المصنوعة فى ارسينوى كما عثر فى اهرامات منطقة مرو على كثير من الأوانى الفخارية المستوردة من مصر فى العهد البطلمى وكان الحمار أكثر وسائل النقل استعمالا إلى جانب السفن النهرية التى إستعملت منذ فجر التاريخ .

وأخيراً جاء العصر الرومانى وامتد هـذا الحكم إلى السودان وإن كان ضعيفاً فقد ارسن الامبراطور نيرون حملة برية اتجهت إلى السودان حتى وصلت إلى منطقة السدود التى وقفت فى وجهها ووقفت الجهود الرومانية عند هذا الحد ، ولـكن سبق هذه الجهود الرومانية القليلة جهد آخر هو دخول المسيحية إلى مصر ، الامر الذى وطد علاقة مصر بأجزاء من أفريقيا . وبرز هذا الاتصال أولا باقليم بنتابوليس Pentapolis وهو إقليم برقه الحالية . وقد أطلق عليه سكانه من اليونانين هذا الاسم وقد سبق أن أشرنا إلى هجرتهم إلى هذه المنطقة وسكناهم اياها فيما سبق ، وحمل هذا الاسم لأن خمسا من المدن ظهرت فيه أولا ثم إزداد عددها بإزدياد المهاجرين وإزدياد نشاطهم الاقتصادى والسياسى وكانوا حين سمعوا بقدوم الاسكندر إلى مصر أرسلوا إليه وفداً يحمل تحياتهم وولائهم فاعتبرها جزءاً من دولته .

وإذا ما مات الاسكندر واقتسم قواده دولته كانت بنتابوليس من نصيب

أفيلاس الذى حمل هو الآخر لقب بطليموس . ولـكن المدى لم يطل به ملكه إذ قتله اغاتوكاوس عندما زحفا معاً على قرطاجنة عام ٣١٨ ق. م فلم يكن من بطليموس الأول إلا أن عقد لماجاس Magas ابن زوجته الأمارة على رأس جيش سيره للاستيلاء عليها ، حتى إذا تم له ذلك عينه حاكما عليها فى أواخر سنة ٣١١ ق . م ولـكن ماجاس استقل بها بعد موت بطليموس . ثم حدث أن تزوج بطليموس الثالث من برنيقه Berneca ابنة ماجاس التى كانت وارثة لعرش أبيها ، فعادت بنتابوليس تابعة لمصر من جديد فانتعشت وسرت عليها نظم الحكم البطلمية وبلغت من الثراء مبلغا كبيرا .

وقبل أن نستطرد إلى ذكر علاقتها بمصر يحسن أن نقول أن هذا الجزء بدأ بمدينة واحدة وهى سيرين Cyrene وكانت إلى الداخل قليلا بعيـدة عن الشاطىء فى المنحنى الصغير الذى يسمى حاليا بالجبل الأخضر ، وكان ذلك سنة ٦٣١ ق.م وكانت هسبريدس Hesperides (التى أصبحت بنغازى) ثانى هذه المدن . وكانت بركة (المرج الحالية) ثالثتها وكانت إلى الداخل أيضا ثم بنوا لها ميناء توشيرا وهى طوكرا الحالية ، وأخيراً أبولونيا Appollonia وهى مرسى سوسه الحالية ، وفى أوقات متأخرة نشأت مدينتان أخريتان همـــا دارنيس Darnis (درنه الحالية) وبتولومايس وهى (طلميطة الحالية).

وقد ظهرت فى هـذه المدن مع بداية القرن الرابع قبل الميلاد المدرسة الفلسفية المسماة Cyranaica التى تنادى بإرساء قواعد السلوك الإنسانى على أساس من اللذة ، وكان مؤسس هذه المدرسة هو ارستبس Aristippus الذى تتلمذ على سقراط وقد صارحه بمذهبه ، إلا أن سقراط عارضه ودارت بينهما أكثر من مناقشة . وإذا ما أنشئت مدرسة الإسكندرية الوثنيه أيام بطليموس الثانى ، أقبل عليها يونانيو بنتابوليس يرتشفون من مناهلها ، ولاشك أن

أستفادتهم منها كانت أعم من استفادة المصريين لسيادة اللغة اليونانية هناك ، فلا غرابة أن اينعت بها الفلسفة اليونانية على يد فلاسفة من أهلها من أمثال ارستبس وكرنيدس وسينسيوس ، كما ظهر بها أراتوستينسى عالم الجغرافية والرياضة الذى كان أول من قاس محيط الكرة الأرضية قياساً رياضيا دقيقاً ، وكلماخس الشاعر الذى أصبح أحد أمناء مكتبة الاسكندرية ، ويمكننا أن نقول وإن كان فى كلامنا بعض المبالغة أن ثقافة هـذا الجزء من العالم كانت البنت البكر لثقافة مدرسة الاسكندرية البطلمية ونتيجة من نتائج نشاطها العلمى .

وحدث فى سنة ١١٦ ق . م أن مات بطليموس فيكون بسلام وترك وصية أن تخلفه على عرش مصر أرملته كليوباتره الثالثة لتحكم بالاشتراك مع ولديها، بينما ترك إقليم بنتابوليس لإبن له غير شرعى هو بطليموس أبيون Apion وبذلك أنفصل هذا الجزء انفصالا سياسياً عن مصر وإن لم ينفصل إقتصادياً أو ثقافيا بعد أن ظل ١٤٥ سنة جزءاً من مصر، وكان هذا الاستقلال السياسى يعنى الضعف السياسى لهـذا الجزء نتيجة لصراع الأمراء واتجه كل منهم إلى روما يطلب حمايتها من الآخرين .

ومات هـذا الملك سنة ٩٦ ق . م وكأنه أراد أن ينتقم من الطامعين فى وراثته ، فترك وصية يتنازل فيها عن مملكته لجمهورية روما ، فأرسلت هذه إليها موظفاً يشرف عليها لا سيما وقد رأت فيها تجارة نشطة برية وبحرية.

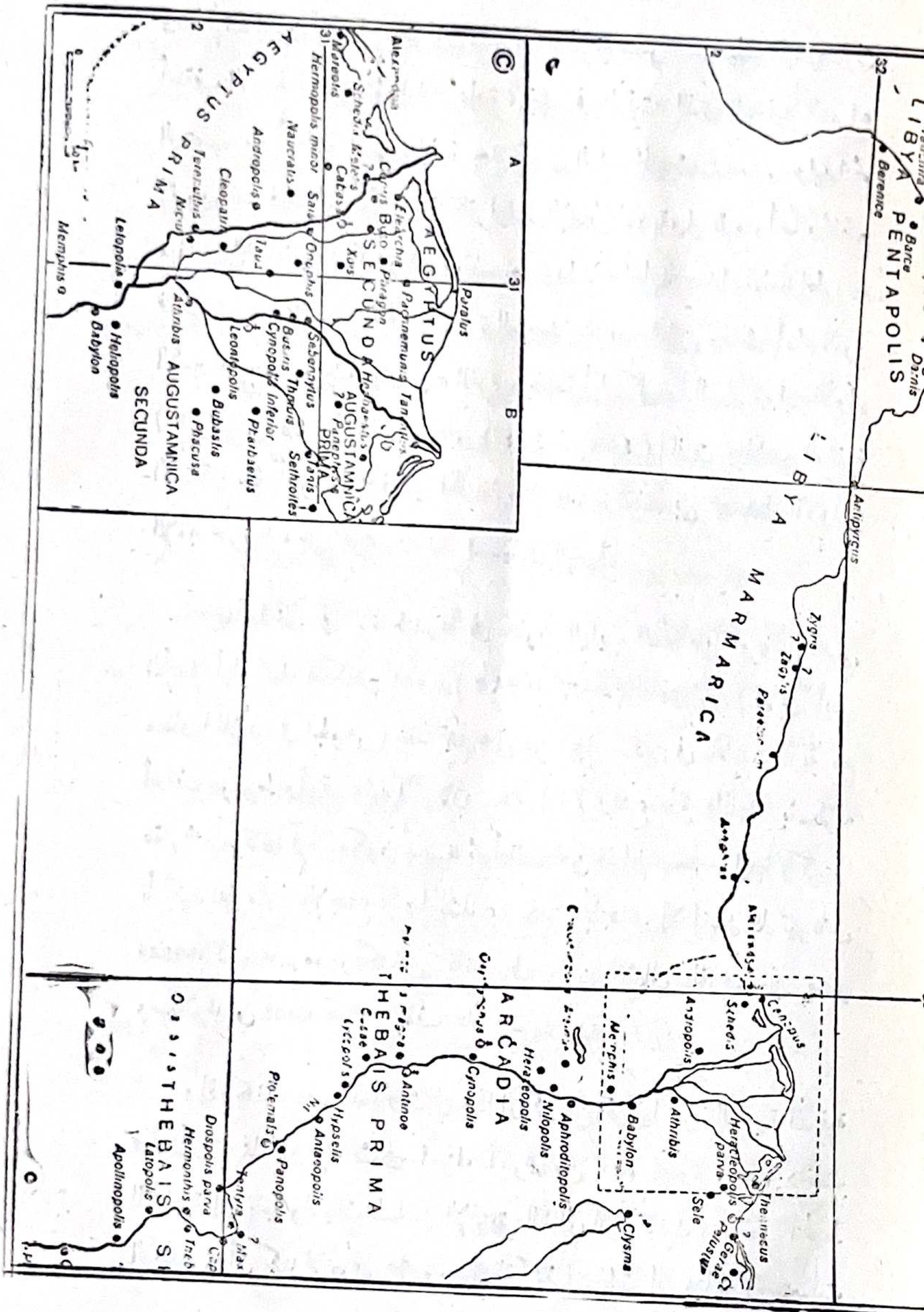
وقد أعطيت هذه المدن فى العصر الرومانى حقوق البلديات وهـذا يعنى حق كل منها فى تشريع مستقل ونعمت بالأمن والرخاء .

ولـكن هذا الجزء من أفريقيا وإن كان قد استقل عن مصر سياسيا

فقد ارتبط بها ثقافياً وإقتصاديا كما قلنا حتى إذا جاءت المسيحية كان ارتباطها أوثق وأكمل وإن كان رباطا روحياً محضاً .

وكان هذا الارتباط على يد القديس مرقس ، وكان من اليهود القاطنين هناك وإن لم نعرف على وجه التحديد من أى مدنها ، وكان قريبا لبطرس أحد تلاميذ المسيح الأثنى عشر فلزمه وتعلم منه فترة ، ولزم بولس فترة أخرى وأثنى هذا الأخير عليه فى رسائله ،ونشر مرقس المسيحية فى مصر وعول على أن يجعل من الاسكندرية ذات المركز الثقافى الممتاز فى البحر المتوسط مركز إشعاع دينى مسيحى ، ولم يلبث أن رأى ضعف هؤلاء المسيحيين الجدد أمام فلاسفة الوثنيين الذين كانوا يجادلونهم على أسس فلسفية ، لاسيما اينيانوس رئيس المسيحيين الذى لم يكن أكثر من إسكافى رقيق الحال وإن كان أول من آمن به هو وأهل بيته ، فرأى مرقس أن لابد لهؤلاء المسيحيين من أن يوجهوا أنفسهم توجيها فلسفيا كذلك ، فانشأ المدرسة اللاهوتية المسيحية ، وكانت تدرس الفلسفة اليونانية بمذاهبها المختلفة بعد تطبيقها على المسيحية ، وأقام لها رئيساً مسيحيا يدعى يسطس ، كما رسم لهم طقسا للعبادة هو القداس المعروف بالمرقسى ، وإذا كان مرقس قبل أن يستشهد بالاسكندرية قد أقام اينيانوس رئيسا لمسيحيي الاسكندرية إلا أنه لم يقم لمسيحيي بنتابوليس رئيساً،وكان معنى ذلك أن مسيحيي هذا الجزء قد تبعوا الرئيس الاسكندرى ، وبذلك حملت أسقفية الاسكندرية منذ اللحظة الأولى اسم (أسقفية المدينة العظمى الاسكندرية وسائر مصر والخمس مدن الغربية) .

وأخذت المسيحية تنتشر رويداً رويداً بين اليونانيين فى كل من مصر وبنتابوليس التى حملت رسميا تحت الحكم الرومانى اسم سيرانيكا Cyranaica ونحن نستنتج —وليس لدينا من دليل— أن انتشارها هناك كان أكثر من



انتشارها فى مصر وأسرع ، لتفهم أهلها اللغة اليونانية والإنجيل الذى كتبه مرقس (وكان أول الأناجيل الأربعة) ولتفهم الطقوس اليونانية أكثر مما يتفهمها المصريون . ويقول المؤرخون فى تعليل هذا الانتشار أن الأستقراطية الرومانية كانت قد ملت تعدد الآلهة ، ومالت إلى التوحيد تحت تأثير الفلسفة. أما جمهور الشعب فلأن الديانة الجديدة كانت ترفع من قيمة الفرد وتعده بالثواب إن إحسن العمل فى دنياه الأمر الذى لم تعن به الديانات اليونانية القديمة ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة القديس ترتليان فى سنة ١٩٧ حين قال (أن المسيحيين بدأوا يزدادون فى كل القرى والمدن والجزر وكانوا من جميع الأسنان والطبقات) وتقول لنا المصادر الكنسية أن البابا ديمتريوس (١٨٨— ٢٣٢ م)(*) كان أول من عين مطارنة خارج الاسكندرية أى فى مديريات مصر بالإضافة إلى إقليم الخمس مدن الغربية مما يدل على كثرة المسيحيين واحتياجهم إلى الرعاية .

ويجب أن نلاحظ أن مصر وبنتابوليس كانتا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية وكان الإمبراطور فى أحوال كثيرة يحاول تعديل النظام الإدارى للدولة — كما فعل دقلديانوس — من أجل سهولة حكمها وحسن إدارتها . بأن يجعل مصر مثلا ولاية قائمة بذاتها يتولاها حاكم عام مسؤول أمامه . وقد يجزئها أجزاء ويجعل على كل جزء حاكما مسؤولا عن جزئه أمامه مباشرة . بل قد يجعل مصر وبنتابوليس وليبيا ولاية كبيرة . فلم تكن هذه الاصلاحات الادارية لتؤثر أدنى تأثير على نفوذ أسقف الاسكندرية فى بنتابوليس التى هى جزء من أسقفية الاسكندرية لا ينازعه فيها أحد. فكانت قراراته تسرى دائما على هذا الجزء من أفريقيا فهو الذين يعين أساقفته

(*) عين ديمتريوس ثلاثة من المطارنة . ووصل عددهم أيام خليفته هيراكلاس ٢٣٢ — ٢٤٧) . إلى ثلاثة وعشرين .

ومطارنته الذين كانوا يكونون — مع مطارنة مصر — هيئة عليا تشارك أسقف الاسكندرية مسؤولية الإدارة ، حتى فى الوقت الذى قام فيه الصراع الرهيب مع أباطرة القسطنطينية بعد القرن الرابع ظل شعب مصر وليبيا ثم إتيوبيا بعد ذلك لا يتأثر مطلقا بالقرارات الإمبراطورية، بل يقبع رأسا ويخضع مباشرة لأساقفة الاسكندرية ، ويقف جبهة واحدة أمام الاعتداء الإمبراطورى فكانت هذه الوحدة الروحية القوة الوحيدة المتماسكة التى وقفت أمام القوة الإمبراطورية . ولعلنا نرى هذه القوة واضحة أيام كل من البابا كيرلس الأول (٤١٢ — ٤٤٤) ثم ديسكوروس (٤٤٤ — ٤٥٦) اللذين جعلا من أسقفية الاسكندرية بأجزائها الأفريقيه المختلفة قوة جبارة تقف بل تتحدى الأوامر الإمبراطورية ، بل أقوى وحدة كنسية فى الشرق .

وعندما ظهر فى الاسكندرية فى القرن الرابع الكاهن أريوس الليبى الأصل أيام البابا اسكندر الأول (٣١٢ — ٣٢٦) ينادى بأن (الابن ليس مساويا للأب فى الجوهر) عقد مجمع محلى من رجال الدين فى الاسكندرية مع أسقف مريوط وأوقع عليه الحرمان . حتى إذا لم يرتدع عن المناداة بفكرته عقد مجمع مكانى آخر مكون من مائة أسقف من أساقفة مصر وليبيا وكرروا تأكيد الحرمان بالإجماع ، ولم يشذ عن هذا الاجماع إلا اثنان هما تيوناس Theonas أسقف مرمريكا التى كانت فى الركن الشمالى الغربى من مصر وسيكوندس Secondus أسقف بتلومايس فى برقة .

وإذا كانت مصر قد أثرت فى هذا الركن من افريقيا من الناحية الدينية فقد تأثرت بما كان يحدث فى اجزاء أخرى من هذه القارة . فقد دخلت المسيحية إلى بقية ولايات الساحل الإفريقى الشمالى التى كانت تمتد حتى المحيط الأطلسى وأن كنا لانعرف على وجه الدقة كيف دخلت إلى هناك واستعملت

فى طقوسها اللغة اليونانية شأنها شأن كنيسة الاسكندرية ، ثم تحولت عنها إلى اللاتينية فى القرن الثانى ، ولم تأت نهاية هذا القرن حتى ظهرت بها ترجمات للانجيل باللاتينية وظهر بها قديسون اشتهروا فى العالم المسيحى من امثال ترتليان Tertilian الذى تثقف ثقافة قانونية رفيعة وعمل محاميا مدة ثم تحول إلى المسيحية واستغل مواهبه لخدمة المسيحية فكتب أكثر من كتاب فى شرح مبادئها ويعتبر كتابه Apologeticum من أهمها وفيه تعمق فى دراسة طبيعة الخلاف بين الوثنية والمسيحية ، وحمل على سياسة الاضطهاد الذى ينزله الحكام بالمسيحيين من أجل جرائم لم يرتكبوها ، وكل تهمتهم انهم يحتقرون ديانة الامبراطورية ويرفضون عبادة الامبراطور .

ومنهم مينيسيوس Menicius الذى الف كتابا على هيئة سؤال وجواب يرد فيه المسيحى على كل الاعتراضات التى يعترض بها الوثنى على المسيحى ، وطبيعى أن ينتهى الكتاب بإفحام السائل بكل مايطلبه من جواب شاف مقنع .

وكانت ثالث هؤلاء الكتاب كبريانوس Caprianus الذى كتب كثيرا من الكتب جادل فيها الوثنين واليهود بحجج قوية .

وفى القرن الخامس ظهرت فى غرب افريقيا أكبر شخصية دينية مسيحية هو القديس أوغسطين Augustin الذى ولد من أب وثنى وأم مسيحية ثم أعتنق المسيحية بعد أن قارنها بجميع الديانات المعاصرة وكتب أكثر من مائة كتاب ضاع أكثرها فى غزوة الواندال المخربة لشمال افريقيا ورغم انتساب هؤلاء الكتاب إلى اسقفية روما وكتابتهم كتبهم باللاتينية فقد اعتبرتهم كنيسة الاسكندرية من رجالها واعترفت بهم كقديسين مسيحيين وترجمت كتبهم إلى اليونانية، وفى عصور متأخرة ثم إلى القبطية فالعربية . وما زالت كتبهم

تداولها الشعوب التى خضعت لكنيسة الاسكندرية وخاصة مصر واتيوبيا .

ومنطقة اخرى من افريقيا ظهرت بها أثر علاقات مصرية وإن كنا لا نستطيع أن نرجعها إلى عصر معين وهى أتيوبيا ففى خلال حفائر قامت بها بعثة فرنسية يرأسها جان دورس الاثرى منذ عشر سنوات أو أكثر قليلا عثرت على تمثالين وعليهما كتابات سبأية وهذان التمثالان لا يعنياننا فى شىء ولكن عثر معهما على جفنة من الفخار على حوافها نقوش لضفادع متعاقبة تقذف بالماء من افواهها وبين كل ضفدعه وأخرى زهرة اللوتس يانعة . مما جعل البعثة تقطع بمصرية الآنية ولكنها لا تقطع بوقت ورودها إلى اتيوبيا ولكن ترجح أن يكون هذا الوقت القرن الثانى بعد الميلاد مما يقطع بوجود علاقة تجارية وثقافية بين مصر واتيوبيا فى العصر الرومانى فى حين لا نجد أى دليل آخر على هذه العلاقة .

ولكن الشىء الثابت عن وجود علاقة اتيوبية مصر يعود إلى القرن الرابع الميلادى حين عثرنا على ما يثبت دخول المسيحية إلى إتيوبيا عن طريق مصر فقد عثرت بعثة المانيه يرأسها الأستاذ لتيمان استاذ الدراسات الشرقية بجامعة توبنجن فى سنة ١٩٠٤ على اربعة نقوش تركها الملك عيزانا الذى حكم حمير وريدان وسبأ وصالحين وهى كلها اجزاء من اليمن وكذلك اكسوم وسيدامو وبيجا وكاسو وهى اجزاء من إتيوبيا وكان ذلك فى القرن الرابع .

ومن هذه النقوش نقشان ذكر فيهما الملك فتوحات قام بها ، وانتهى النقشان بأن قدم الشكر إلى الآلهين آرس ومحرم اللذين وهباه النصر مما يقطع بوثنية الملك، ولكن النقشين الآخرين يبتدئان بقوله (باسم إله السماء الذى هو فى السماء القادر على كل شىء) ثم يذكر فتوحات أخرى قام بها هذا الملك . مما يقطع باعتناقه المسيحية بعد ذلك لا سيما وقد جعل فى أعلا النقش صليبا .

وتذكر الأساطير الأتيوبية بعد ذلك أن هذا الملك أرسل من يدعى فرومانتيوس — الذى كان تاجراً مصرياً اتخذه الملك مستشاراً له — إلى الاسكندرية يسأل أسقفها أتناسيوس الأول وهو البطريرك العشرون من عداد بطاركة الاسكندرية أن يقيم لأتيوبيا مطراناً فلم يجد أتناسيوس خيرا من فرومانتيوس هذا فنصبه مطراناً وأطلق عليه اسم أبا سلامة .

وعاد فرومانتيوس إلى إتيوبيا بصفته الجديدة عام ٣٣٤ م . وظل يباشر عمله فى توسيع رقعة المسيحية وزيادة عدد المسيحيين وتفهيم الاتيوبيين — ومعهم اليمنيون — مبادىء الدين الجديد ، ويبدو أن الاتيوبيين — وعلى رأسهم الملك — قد سروا من هذا الرجل وما حمله معه من دين جديد وأحبوه وأطلقوا عليه اسم (كاشاتى برهان) أى كاشف النور .

ومن الطبيعى أن مصر قد أصبحت بعد ذلك المورد الثقافى لكنيسة إتيوبيا، فقد أخذ كهنتها منذ وقت مبكر فى ترجمة كتب كنيسة الاسكندرية إلى لغتها وكان الإنجيل من أولها ، وقد جرت عادة تلك البلاد — كلما مات المطران واحتاجوا إلى مطران جديد — أن يرسلوا وفدا يحمل بعض الهدايا إلى بطريرك الاسكندرية كما يحمل إليه نبأ وفاة المطران ، ويطلب تنصيب آخر جديد . فيبحث لهم عن مطران صالح ويشترك أعضاء الوفد مع البطريرك فى هذا البحث كى يتم الأمر بموافقتهم حتى إذا عثروا عليه نصبه لهم البطريرك فيصحبه الوفد إلى إتيوبيا حتى إذا وصل الحدود الاتيوبية استقبله الملك وسار معه فى موكب دينى إلى العاصمة ، وكلما مر ببلدة خرج أهلها وعلى رأسهم الأكليروس لاستقباله حتى إذا وصل العاصمة دخل الكنيسة وصلى صلاة الشكر ونثر الإمبراطور ومن معه الذهب الكثير على رأسه ثم تسلم إليه جميع أمور الرئاسة الدينية . وقد ظل مطران اتيوبيا ينتخب على هذه الصفة حتى

سنة ١٩٤٨ حين عين أول مطران إتيوبى، ورغم ما نزل باتيوبيا من محن فى مناسبات مختلفة قطعت صلة مصر بها لأوقات مختلفة الطول أو جاءتها من ظروف قاسية اضطرتها إلى التحول عنها، فانها لم تلبث أن تعود إلى أمها كنيسة مصر، فهى شديدة التعلق بها وبمبادئها ولعل آخر هذه المحن التى ليس من موضوع هذا الكتاب تفصيلها محنة الإحتلال الإيطالى لإتيوبيا بين سنتى ١٩٣٦ — ١٩٤١.

* * *

وشىء مسيحى آخر أعطته مصر فى هذا العصر الذهبى من تاريخها لا إلى أفريقيا فحسب بل إلى العالم أجمع، ولم يكن نصيب أفريقيا منه إلا ضئيلا، هو الرهبنة المسيحية وهى اختراع مصرى خالص. وتتلخص فى زهد الفرد عن العالم وتنسكه ومحاولة التقرب إلى الله عن طريق النسك.

وقد بدأت الرهبنة مع بدء المسيحية وكانت أولا رهبنة فردية أى أن أفراداً منفردين خرجوا من تلقاء أنفسهم إلى الصحراء أو إلى الأمكنة البعيدة عن القرى يخلون إلى أنفسهم، وكان مقامهم غالبا على حافة الصحراء بالقرب من عين ماء ويحاولون العثور على ما يقوم بأودهم على أبسط صورة، ويقول مؤرخو المسيحية أن عددهم كان كبيرا وإن كنا لا نستطيع أن نعرفه على وجه التحقيق، ولكن أول من فعل ذلك ووصلت أخباره إلينا هو القديس بولا الذى أعتزل الحياة فى أحد مغاور الصحراء الشرقية وكاد التاريخ أن يجهل خبره دون أن يعرف عنه شيئاً لولا أن عثر عليه بطريق الصدفة راهب آخر هو القديس انطونيوس الذى كان أحد أثرياء قمن العروس بمديرية بنى سويف وتخلى عن ثروته ووهبها للفقراء، وذهب ينفرد فى الصحراء ووجد الناس يلاحقونه يتعلمون منه ويسمعون آرائه، وكثر مريدوه والمؤمنون به رغم جهله

القراءة والكتابة. وأمعن فى الابتعاد شرقا وإذا به يعثر على من سبقه إلى هذا المكان هو القديس بولا. وأخيرا أتاح لنا التاريخ البطريرك اتناسيوس البطريرك العشرين الذى اضطهدته الدولة آنذاك اضطهادها الثانى أيام الإمبراطور قسطنطين الأول فهرب إلى الصحراء الشرقية حيث عثر على أنطونيوس وعرف خبر نسكه فكتب لنا تاريخ حياته.

وأخذت هذه الرهبنة تتطور ويجتمع أكثر من راهب يتعاونون على الحياة وامتلأت الصحراء الغربية بقلاليهم أو كهوفهم التى كانوا يعثرون عليها غربى الإسكندرية فى صحراء نتريا والاسقيط ووادى النطرون وكان الناس يقصدونهم كلما اتاحت مشاغلهم لهم ذلك يأخذون منهم العلم، إذ كان بعضهم ذا علم وامتلأت بهم أجزاء أخرى من مصر مثل مربوط غرب الإسكندرية والبهنسا وانطينوى فى إقليم المنيا.

وفى أوائل القرن الرابع أتيح لهم من يدعى باخوم الذى جمع كل عدد منهم إلى مكان ذى سور، وفى داخل هـذا السور يتعاونون على الحياة ويشغلون وقتهم بالعبادة وبعض الصناعات الخفيفة كعمل السلال أو نسج السجاجيد ويبيعونها، ومن حصيلة ما يجمعونه يعيشون. وسميت هذه المرحلة بالرهبنة الجماعية أو الرهبنة الباخومية نسبة إلى باخوم الذى ينتسب إلى أحد قرى محافظة سوهاج الحالية، وكثر الرهبان حتى امتلأت منطقة الصعيد الأعلى بالأديرة على النظام الباخومى، ولم يلبث باخوم هذا أن وضع لهم القوانين التى تفرض عليهم نوع ملابسهم الخشنة وطعامهم وصيامهم وعملهم والعقوبات التى تفرض على مخالفى النظام منهم ونظام تعليم الجاهل منهم، وانتشرت أديرتهم الباخومية فى طابينا بالقرب من مدينة قنا وباو Pbaw ومونوكوزيس Monchosis وثيبو Thebw وبانوبوليس Panopolis وتاسه Tase وتسمانى Tismani

وكانت هذه الأديرة مثلا أعلى من أمثلة الأمن والسلام والنظام والحياة الراضية ومات منشىء هذا النظام فى سنة ٤٥١ م .

ولم يلبث هذا النظام الرهبنى أن انتشر فى العالم المسيحى بخطواته المصرية خطوة خطوة فظهرت الرهبنة الفردية فى بنتابوليس وقد أتاحت الصحراء الغربية منها مغاور وكهوفاً يعيشون فيها على نحو ما يفعل إخوانهم فى مصر، حتى إذا نشأت الأديرة الباخومية ظهرت نظيرتها فى بنتابوليس أيضا ونقلت عنها نظمها . وعاشت على مثالها .

وإذا ما دخلت المسيحية إتيوبيا فى منتصف القـــرن الرابع سرعان ما قصدها الرهبان المصريون فى أواخر القرن الخامس وانشأوا بها الأديرة التى عاش فيها الرهبان الإتيوبيون على نفس النظام الذى يعيش عليه أخوانهم فى مصر وبنتابوليس، ولم تـكن فى إتيوبيا صحراوات قريبة فأنشئت الأديرة على قمم الجبال ونحتوا لها مئات السلالم للصعود إليها أو وسط البحيرات ولم تلبث قوانين الرهبنة الباخومية أن ترجمت إلى اللغة الإتيوبية وعرفت هناك باسم (شرعات باكوميس) أى (قوانين باخوم) . كما انتشرت بينهم سير بعض الرهبان الذين رأوا فيهم قداسة خاصة أو أمثلة جديرة بأن تتبع ، وعرفت هذه السير حين جمعت باسم (مصهف منكوسات) أى (صحف الرهبان) وظهرت الرهبنة أيضاً فى الواحات المصرية ونحن نعرف أن نسطور بطريرك القسطنطينية حين حكم عليه فى مجمع أفسس الأول بالعزل من منصبه وحرمانه ونفى إلى الواحات الخارجه حيث ظل حتى مات . وكانت هـذه السلسلة من الواحات ترتبط بوادى النيل بعدة طرق تخرج من أسوان ومن أدفو ومن إسنا ومن الرزيقات ومن فرشوط ومن العلوانية ومن الـكوامل ومن الغنايم ومن الزرابى ومن بنى عدى وكلها بلاد مصرية وينتظمها الطريق بين الواحات

وبعضها درب الأربعين الذى ينتهى عند الفاشر، وكان الاضطهاد الدينى الذى لقيه مسيحيو مصر سبباً فى هجرة كثيرين منهم إليها وظلت بها المسيحية غالبة فى العهد الإسلامى حتى ليقول لنا ابن حوقل (والغالب على أهل الفرفرون « الفرافرة » القبط والنصارى) .

وفى هذا العصر المبكر قام الرهبان الإتيوبيون بواجبهم فى ترجمة الـكتب المصرية إلى لغتهم فبعد ترجمة الأناجيل الأربعة عن النص اليونانى فى القرن الخامس ترجمت بعض أجزاء من العهد القديم وكانت هذه الترجمة على أساس الترجمة السبعينية ، كما نقلت عدة رسائل لآباء الـكنيسة وهى تسمى عندهم (كرلس) لأنها تبدأ برسالة للبطريرك المصرى كيرلس الـكبير عن الإيمان الحقيقى كما تعتقده كنيسة الاسكندرية كما نقل الاتيوبيون أيضاً فى هـذا العصر المبكر الـكتاب المسمى (فسيولوجوس) وهى مجموعة من قصص الحيوانات مع وصف خصائص بعضها والنباتات وتأثيرها وقد عرف هذا الـكتاب فى الأدبين السريانى واليونانى ،ولـكن أقباط مصر جعلوا منه كتاباً ذا رموز مسيحية مثل قصه الطائر الذى يستريح فى جحره ثلاثة أيام فجعلوا منه رمزاً للمسيح الذى ظل فى القبر ثلاثة أيام وإلى هذا العصر أيضاً ترجع ترجمة بعض سير القديسين المصريين .

وانتشرت هذه الأديرة فى المنطقة الشمالية حول اكسوم ثم انتقلت إلى أجزاء أخرى جنباً إلى جنب مع انتشار المسيحية . وأصبحت هـذه الأديرة مركزا للنشاط الدينى حيث ترجمت أكثر الـكتب الدينية المسيحية على نحو ما كان يفعل إخوانهم فى مصر . وكتبت على الرق أو الجلود ولم يلبث هذا النظام الباخومى أن سمع به فى العالم المسيحى القريب كالشام أو البعيد كأوروبا وقدم بعض رجالهم ليعيشوا فيها المعيشة الرهبانية المصرية ثم ينقلون إلى بلادهم

ولـكن هذا ليس فى موضوعنا ويكفى أن نقول أن هذا النظام المصرى الخالص انتقل مع ظهور المسيحية إلى افريقيا وتأثرت به كل البلاد التى شربت من المنبع المصرى .

ويحسن بنا أن نقف عند نهاية هذا القرن من تاريخنا لنقول أننا انتهينا من تاريخ الاتصال المصرى الافريقى خلال العصر القديم لنبدأ مرحلة أخرى هى تاريخ الاتصال المصرى خلال العصر الوسيط .

الـكتاب الثانى

العصر الوسيط

(ا) مصر طريق المسيحيه إلى النوبة

(ب) شبهة أثر مصرى فى غانه

(حـ) مصر طريق الإسلام إلى الشمال الإفريقى

(د) الصحراء الـكبرى لاتحول دون التوغل المصرى

(هـ) العصر المملوكى ذروة الاتصال المصرى الاتيوبى

(و) مصر طريق الإسلام إلى النوبة وغرب إفريقيا

العصر الوسيط

(ا) دخول المسيحية إلى النوبة

رأينا كيف اهتم ملوك مصر باقليم النوبة منذ أقدم العصور فكان اهتمامهم متواليا إلى حد أن اصطبغت هذه البلاد بالصبغة المصرية حتى إذا قامت بها مملكة مستقلة كانت هذه المملكة مصرية لحما ودما وإن كانت نوبية الملوك، فشعورهم دائما مصرى. وكثيرا ما استدعوا العمال المصريين لإقامة المعابد المصرية، فعمل هؤلاء العمال على إدخال فن العمارة والزخرفة وغيرها من الفنون المصرية. بل نستطيع أن نقول أن مدرسة مصرية تحمل الطابع المصرى تأسست بالنوبة وأن تأثرت بالبيئة النوبية، ولكن ضعف الحضارة المصرية بعد ذلك أدى إلى اتخاذ الحضارة النوبية مجرى جديداً، حتى لقد بدت بعيدة عن أصلها المصرى.

وكانت قوة ملوك النوبة ترتكز على الحركة التجارية التى كانت تسير بين بلادهم ومصر وتمتد إلى الجنوب بطريق القوافل كما ترتكز أيضاً على استثمار مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية. أما الأرض الزراعية فكانت لا تعدو شريطا ضيقا من الأرض قليل السكان ضئيل الموارد فكانوا يستوردون من الجنوب الرقيق والعاج وريش النعام والأبنوس وجلود النمور ويرسلونها إلى مصر مقابل ما يرد منها من الحبوب.

ولكن ضعف الحضارة المصرية فى أواخر عهد الأسرات أدى إلى ضعف الحضارة النوبية ومملكة النوبة ثم تفككها حتى إذا كان القرن الثالث قبل الميلاد وجدنا مملكتين نوبيتين إحداهما فى نباتا والثانية فى مرو وإن كنا

لا نعلم على وجه التحقيق الأسباب المباشرة لهذا الانقسام ، وصار اتصال الممالك النوبية لاسيما الجنوبية منها بالشمال ضعيفاً ، بينما أخذ اتصالها بالجنوب يقوى ويشتد . وان كان المؤرخ اليونانى هيرودوت يذكر لنا أن (ارجاميئس) أحد ملوك النوبة الشمالية قد أرسل ابنه إلى مصر أيام بطليموس الرابع ليتعلم الحكمة والفلسفة فى مدرسة الاسكندرية .

ولكن كان بين الدولتين علاقة تجارية متينة لغرض ضمان وصول العاج وريش النعام إلى مصر وكان يسمح لمن أراد من ملوك النوبة القدوم إلى مصر لتقديم القرابين إلى معبد ايزيس بجزيرة فيلة فى عيدها السنوى .

وعندما دخلت مصر تحت الحكم الرومانى سنة ٣١ ق . م . وضع أوكتافيوس عند مدينة سيين (أسوان) حامية رومانية للمحافظة على الحدود .

وفى سنة ٢٩ عين كرنيليوس جالوس أول وال رومانى على مصر فغزا النوبة ، وفى جزيرة فيلة قدم إليه سفراء ملوك النوبة للتحية ، كما غزاها بترونيوس Petronius فى سنة ٢٥ ق . م . ودخل مدينة نباتا حيث قدمت له الملكة كنداكة ولاءها .

ويقول الأثرى الأمريكى رايزنر Reisner إن اسم كنداكة لم يكن اسما لملكة معينة حكمت النوبة ، بل كان لقبا لسبع ملكات حكمن متعاقبات . وقد جاء فى الإصحاح الثامن من سفر (أعمال الرسل) أن وزيرا لإحدى هذه الملكات كان يهودياً وكان يقوم مع غيره من اليهود بزيارة القدس ، ولا بد أن هذه الزيارة كانت تتم عن طريق مصر ، فإقامة علاقات طيبة دائمة مع مصر كان ضروريا لهذه الغاية إلى جانب الغاية التجارية الدائمة . وفى طريق عودة الوزير إلى بلاده قابل فى برية غزة فيلبس الرسول وأعتنق المسيحية على يديه

وإن أخطأ مترجمو الإنجيل ووصفوه بأنه كان (وزيرا لكنداكة ملكة الحبشة) .

وتذكر لنا المصادر أن النوبيين انتهزوا فرصة غياب القوات الرومانية عن مصر فأغاروا على المراكز الرومانية فى مصر تحت قيادة الملكة كنداكة ولكن الحامية الرومانية تمكنت من صدهم وإعادتهم إلى الجنوب .

ونحن لا نستبعد أن تكون الحملة النوبية قد تمت بناء على دعوة قوات حركة المقاومة المصرية من أجل مصارعة الحكم الرومانى ، وحاولت النوبة غزو مصر مرة أخرى سنة ٢١ ق.م إلا أن حظها من النجاح لم يكن خيراً من الحملة الأولى . وعلى كل حال تدل هاتان الحملتان ـ مهما كانت أهدافهما ونتائجها على وجود الصلة القوية بين مصر والنوبة .

وفى خلال العصر الرومانى المسيحى فى مصر كانت النوبة مهجراً لعدد من المصريين المسيحيين الهاربين من الإضطهاد الرومانى حيث عاشوا فى أمان ، بل أسس بعضهم الأديرة المصرية فبدأت فى النوبة بعض بواكير المسيحية ، وقد تعرضت هذه الأديرة المصرية لتخريب قبائل البدو والبلميين أكثر من مرة فنهبت وقتل كثير من رهبانها ، ولكن ذلك لم يكن ليصد المصريين عن موالاة الهجرة إلى هذه الأقطار بسبب عنف الاضطهادات التى وقعت عليهم فى مصر لاسيما أيام دقلديانوس فاستقر بعض المصريين فى المنطقة التى تلى أسوان جنوبا وأمعن كثيرون فى الهجرة نحو الجنوب حيث عاشوا أولا معيشة الرهبان المتوحدين ثم اشتركوا بعد ذلك فى جماعات صغيرة أخذت تكبر حتى إذا تكونت الأديرة المصرية على يد باخوم قلدتها الأديرة النوبية حين سمعت بالنظام الباخومى ونحن لا نستبعد أن يذهب اليها بعض الرهبان المصريين الذين أخذوا بالنظام الباخومى ويعطوهم بعض قواعد هذا النظام . بل ذهب بعض هؤلاء إلى الواحات الخارجة وأقاموا لهم كنائس وأديرة بل وصل بعضهم إلى مسافات بعيدة غرب

الصحراء حتى اتصلوا بالطوارق فنشروا المسيحية بينهم وظل هؤلاء على مسيحيتهم حتى قدم العرب وأطلقوا عليهم أول ما عرفوهم اسم (مسيحي الصحراء) وما زلنا نجد حتى الآن دليل مسيحيتهم فى كثير من ألفاظهم فهم يطلقون على الإله اسم ماسى Masi وعلى الملاك اسم انجيلوس كما يكون الصليب أساس زخارفهم ونجده واضحا على ملابسهم وسروج خيولهم، بل ما زالوا يعزفون عن الزواج بأكثر من واحدة ويطلقون على أولادهم أسماء صموئيل ودافيد وشاؤول.

وبعد الأيام الأولى من الإمبراطور قسطنطين نزلت بمسيحيى مصر بعض الأضطهادات وكان البابا اتناسيوس أول ضحاياها إذ سرعان ما ظهر الخلاف المذهبى بين طوائف المسيحية مما دفع بالمضطهدين إلى الاستمرار فى الهجرة فكان نصيب النوبة والصحراء الغربية -سواء المصرية أو النوبية- كبيراً.

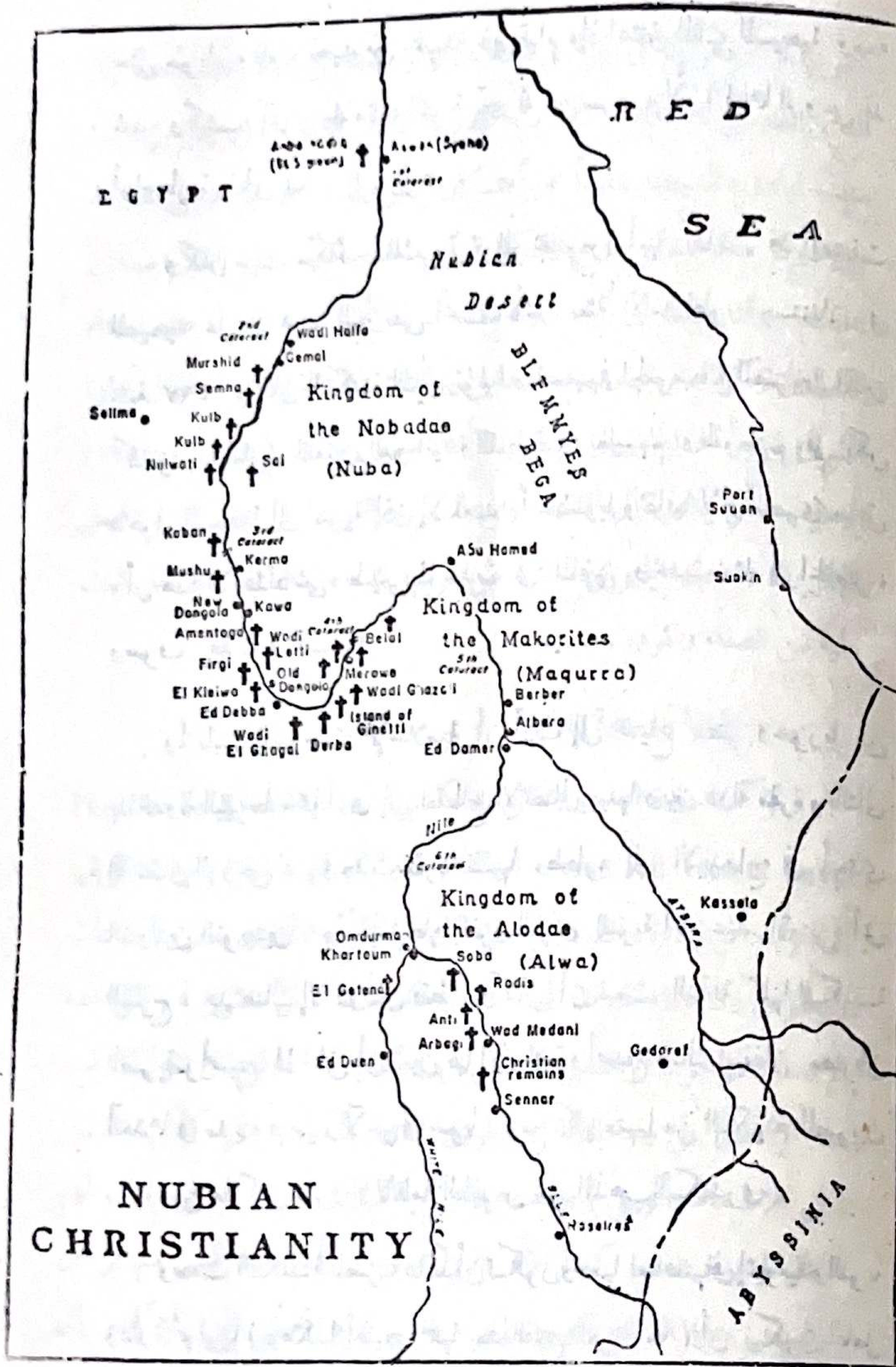
وكان القرن السادس الميلادى حين شهدت النوبة ثلاث ممالك هى النوبة أو نبوديا كما سماها البيزنطيون وكانت عاصمتها مدينة فرس فى الشمال. ثم دولة علوة أو ألوديا كما سماها البيزنطيون وتقع عند الجهات الدنيا من النيلين الأزرق والأبيض وعاصمتها سوبا على النيل الأزرق على بعد عشرة كيلو مترات جنوبى الخرطوم. ثم مقره أوما كوريا كما سماها البيزنطيون وتقع بين الدولتين السابقتين وعاصمتها شمال شندى الحالية.

ونحن نقرأ فى سيرة الأنبا شنوده الذى أسس الدير الأبيض فى أخميم فى القرن الخامس الميلادى إشارة خاصة إلى علاقته بالنوبيين والبجه فقد أوى كثيرين منهم فى ديره وأسبغ عليهم كثيرا من عطفه وخدماته الاجتماعية. فضلا عن أن تيودور أسقف فيله المصرى حاول محاولات إيجابية لنشر المسيحية بين النوبيين فى بداية القرن السادس.

ولكن المرحلة الحاسمة فى نشر المسيحية فى بلاد النوبة بدأت أيام الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥) حين فكر أن يدخل إلى الحظيرة المسيحية جميع القبائل الوثنية التى تسكن وراء الحدود الإمبراطورية كوسيلة لتأمين حدود إمبراطوريته، فدخلت النوبة ضمن برنامجه فعول على أن يرسل إليها وفدا إمبراطوريا لهذا الهدف. فسمعت بذلك زوجته الإمبراطورة تيودورا وكانت تميل إلى المذهب السكندرى الذى كان معروفا فى ذلك الوقت بالمذهب التيودوسى نسبة إلى البابا تيودوسيوس (٥٣٥–٥٦٦) الذى صدر قرار من مجمع خلقدونية بعزله وحرمان كل الأساقفة الذين أيدوه فى موقفه فحدد الإمبراطور إقامتهم فى القسطنطينية وأنزلهم أحد القصور. وحينئذ حملت الإمبراطورة تيودورا. رغبة الإمبراطور إلى البابا تيودوسيوس وسهلت له السفر إلى الاسكندرية سرا. وهناك نجح فى تكوين وفد مصرى برئاسة يوليان أسقف أسوان ومعه تيودور أسقف فيله وأرسلت هى من جانبها إلى حاكم أسوان أن يسهل سفر الوفد البطريركى الى النوبة ويعوق الوفد الإمبراطورى. وفعلا أستطاع الوفد البطريركى المصرى أن يصل إلى فرس فى سنة ٥٤٢. كان جستنيان قد وجه إلى أسوان حملة بقيادة نرسيس خربت معبد إيزيس بجزيرة فيله وصادرت أملاكه ووضعت حداً لعبادتها.

وفى مدينة فرس استقبل سيلكو ملك النوبة البعثه البابوية استقبالا وديا وتقبل هداياها واعتنق المسيحية على المذهب السكندرى. وإذا ماوصل الوفد الإمبراطورى بعد ذلك استقبله الملك استقبالا وديا ايضا ولكنه رفض مذهبه وتسجل لنا سنة ٥٥٩ تحويل معبد دندر إلى كنيسة. وسمع جستنيان بذلك وغضب ولكن عرفت تيودورا كيف تسترضيه وعين لونجينوس أول اسقف مصرى على بلاد النوبة ولكنه لم يستطع السفر إلى مقر منصبه الا متنكراً

* ولدت الامبراطوره تيودورا بالاسكندرية وعاشت بها وكانت على علاقة طيبة بالبطريرك الذى كانت كثيرا ماتقصدة التى التماسا لبركته.



بسبب المكائد الإمبراطورية ، وإذا ماوصل إلى هناك فى سنة ٥٦٩ استقبله النوبيون استقبالا حسناً. ومنذ هذا الوقت أصبح البطريرك المصرى بطريركا (المدينة العظمى الإسكندرية وسائر مصر وبنتابوليس والحبشة والنوبة) ويؤثر عن الملك أربيا توم بن سيلكو أنه حول معابد كلابشة ودكا ووادى السبوع وعمادا وآبو إلى كنائس بينما حول تيودور أسقف فيله معبدها إلى كنيسة . ورسم على جدرانها الصور المقدسة بعد أن طلاها بالجص ولم يتوقف هذا التحويل بل عثر كراوفوت على بقايا كنائس فى كرجى وخالبوه وانتوجو كان قد بناها الملك روفائيل سنة ١٠٠٢ م بالطوب الأحمر . واتجه النوبيون أيضاً إلى الحياة الديرية وانشأوا الأديرة التى ازدحمت بالرهبان النوبيين والتى هاجر إليها بعض الرهبان المصريين ، وظلت هذه الأديرة عامرة بالرهبان مدة طويلة وقد عثر الأثرى جيمس كورى على بقايا بعض الاديرة فى واحة سليمة غربى النيل ،واتجه الرهبان النوبيون إلى مثل مااتجه إليه الرهبان المصريون من تدوين الأناجيل ثم بعض الكتب الدينية عن اليونانية و كانت مصر هى المصدر الوحيد لثقافتهم الدينية .

وحوالى سنة ٥٧٨ ارسل ملك علوة رسولا إلى ملك النوبة يطلب السماح للاسقف لونجينوس بالسفر إلى الجنوب لتنصيره واهل دولته . فارسل ملك النوبة هذه الرغبة إلى لونجينوس ـ وكان قد سافر إلى مصر للمشاركة فى انتخاب البطريرك الجديد ـ فاتجه لونجينوس إلى علوة فى رحلة استغرقت مائتى يوم وصل فيها إلى جبال البحر الأحمر بسبب المكائد التى اقاما فى طريقة ملك مقرة . ولكن اتفاقات ملك النوبة مع بدو البليميين القاطنين فى الصحراء الشرقية أعطته الأمان فى رحلته ومكنته من الوصول . وفى مكان جنوبى الشلال الرابع التقى لونجينوس برسول ملك علوة الذى أركبة النهر

حتى سوبا . وقام لونجينوس بمهمته خير قيام ، إذ اعتنق الملك المسيحية ومعه شعبه وكتب إلى زميله ملك النوبة يعبر له عن سروره لأن (اباهما الروحى قد أراه طريق الحق) .

وكان سبب مكائد ملك مقرة للونجينوس أنها كانت قد اعتنقت المسيحيه على المذهب البيزنطى تحت تأثير بعثة الإمبراطور جستنيان فى سنة ٥٦٧ . وكان الكهنة الذين تولوا مناصبهم فى الجنوب من المصريين الذين كانوا يستعملون اللغتين اليونانية والقبطية فى تعليمهم وطقوسهم ، فلم يكن دخول المسيحية إلى النوبة إذن إلا امتداداً حضاريا وثقافيا لاثر مصرى سابق وأن هذا الأمتداد شىء طبيعى لما حدث فى الماضى ويحدث مثله فى الحاضر ، وسوف يحدث فى المستقبل .

ولم تلبث الفتوحات الإسلامية أن أدت إلى ضياع مصر وسوريا من يد الدولة البيزنطية مما أدى إلى انقطاع الاتصال بينها وبين دولة مقرة وبالتالى الاتصال الروحى . ووجدت مقره نفسها مضطره إلى الاندماج فى أحدى الدولتين النوبيتين . حتى إذا جاء الغزو العربى للنوبة أيام عبد الله بن أبى السرح لم يجد هناك إلا دولتين فقط . وكان أن تبعت النوبة كلها الكنيسة المصرية وأصبح لها الحق أن تعين لها الاساقفة وأصبح هناك اسقفان مصريان أحدهما فى مدينة فرس والآخر فى سوبا . ومع كل منهما من الكهنة المصريين والنوبيين ما كان ضروريا لاقامة الطقوس على المذهب السكندرى .

وسعت الكنيسة المصرية دائماً أن تكون ومعها اساقفتها فى إثيوبيا والنوبة وعلوة ثم ليبيا (وهكذا أصبح اسمها بعد الفتح العربى لها) أن تكون عامل صداقة وسلام دائم بين هذه الدول وبعضها ثم بين هذه الدول ومصر لأنها تدرك أن هذا السلام وهذه الصداقة هما اللذان تأمر بهما المسيحية . كما أن

شعوبها لا تزدهر إلا فى جو من السلام . وأن العداء بينها لا يخدم أحداً إلا العدو الخارجى . فكانت الكنيسة المصرية دائماً حريصة على إداء رسالتها منفذة لمبادىء المسيحية تنفيذاً عملياً، فكان البطريرك اذا سمع عن وجود خلاف بين ملوك هذه الدول سارع بالكتابة إليهم محاولا إحلال السلام مكان الخصام . وقد حدث أن أراد داود ملك النوبة أن يغزو مصر عند ابتداء الدولة المملوكية لتخريب عيذاب واسوان اللتين كانتا سوقين لاستقبال تجارة الشرق فالتجأ السلطان إلى البطريرك أتنا سيوس الثالث (١٢٤٣ — ١٢٥٠) يرجو منه أن يكتب إلى الملك داود يطلب منه العودة عن هذا العزم ، ففعل البطريرك وعادت الجيوش الغازية عن عزمها كما عادت العلاقات إلى ما كانت عليه من الصفاء والمودة .٠.

ب — شبهة مسيحية فى غانة :

وتؤكد السيدة ايفا ميروفتش فى كتابها The Divine Kingship in Ghana and Ancient Egypt أن العبادات والأفكار المصرية وجدت طريقها إلى غرب أفريقيا فى وقت مبكر يعود إلى عهد الأسرات وان بعض المعبودات والطقوس والأسماء ظهرت فى غانا وان انحرفت بعض الشىء . وظل هذا الإتصال موجوداً فى العصر المسيحى وإن كانت لا تستطيع أن تعرف وقت هذا الإتصال على وجه الدقة أو الطريق الذى سلكه . وفى كتابها المسمى (فى بلاط ملك أفريقى) وصف لليلة رأس السنة تقول فيه إنه فى أول أيام السنة الجديدة يتجمع كهنة الاله الذين يعتبرون أبناء لتا كيسى مع قرابين آلهتهم فى معبد الله الدولة وبعد إجراء طقس قصير تحمل نذور تا كيسى إلى الفناء على رأس كاهن حيث يوجد صف طويل من الكهنة يحملون نذور آلهتهم ، وبدأ الموكب فى التحرك وعلى رأسه حامل قرابين تا كيسى تحت

مظلة الدولة . ويسير موكب الكهنة وجماهير الشعب ، تتبعهم بينما اصطفت بقيتهم على جانبى الطريق. ثم ينضم إليهم موكب آخر من كهنة الآلهة الأخرى. ويسيرون خلال الغابة ليصلوا إلى مدخل الدغل المقدس . (وحين دخلت إلى الرحبة التى فى وسط الدغل على ضفة النهر كان جميع الكهنة قد جلسوا على الأرض ومعهم نذور آلهتهم ورسموا فى جلستهم شكل حدوة رمز الحل) .

ثم قام كاهن وذهب إلى ضفة النهر وتلى صلاة قصيرة فى صوت مرتفع و تبعته بقية الكهنة ونزلوا إلى النهر يغتسلون ليتطهروا بينما اكتفى آخرون بغسل وجوههم وأيديهم وبينما كان ذلك يجرى. جاء كاهن مساعد وملأ قدحا كبيراً بماء النهر . ومنه ملئت أوان صغيرة بها جير أبيض وأوراق من نبات الأوديرا . فأخذ كل واحد من الكهنة أحد الأوانى الصغيرة وحملها إلى حيث كان نذره وكشفوا جميعاً عن نذورهم ومسحوها من الخارج بهذا المزيج . كل واحد بثلاث خطوط أفقية وثلاث خطوط رأسية متقاطعة معها . ووضع بعض الكهنة من المزيج على وجوههم فى خط يبدأ من منبت الشعر حتى قنطرة الأنف. ثم اقتلع رئيس الكهنة نبات السلام وأعطاه إلى الكاهن الذى يقوم بالصلاة فغمسه فى ماء النهر ورش الحاضرين بالماء المقدس . وكذلك رشت جميع النذور بالماء بينما كان كل كاهن يصلى ثم غطوا النذور ثانية) .

وإذا ماخرجوا من الدغل أوقد الكاهن ثلاث نيران (واحدة تكريماً للملكة . والآخر تكريماً للملكة الأم والثالثة تكريما للملك) . ورأت المؤلفة هذا العمل أثرا مسيحيا ظاهرا . وهى تصر فى كل كتبها على أنه أثر مصرى . وأن كانت لا تستطيع أن تذكر الطريق الذى وصل منه هذا الأثر .

ولكن فى رأيى أن هذا الاتصال تم فيما بعد القرن السادس بعد الميلاد عن طريق الممالك النوبية ثم التوغل غرباً ولكن فى عصر متأخر بعض الشىء عندما عرف الجمل واستعمل على نطاق واسع وهو الحيوان الوحيد الذى يستطيع السير فى الصحراء لمسافات طويلة دون أن يحتـــاج إلى الماء إذ يذكر الأصطخرى (أن الطريق إلى الواحات يسلك اليه من مصر إلى غانة) وقد يكون هذا الاتصال قد تم بعد ذلك بعد أن دخل الإسلام إلى الواحات

ويشاركنى هذا الرأى الأستاذ دنكوا الغانى فيقول أن قومه من الأكان ـ وهم الذين يكونون حاليا قبائل الأشانتى والفانتى قدموا من مصر إلى غانة خلال العصر الوسيط وربما يكونون قد قدموا من وادى الفرات (سومر) أما الأستاذ بيوباكو Pro of Biobaku النيجيرى يقول أن قبائل اليوروبا التى تقطن الجزء الجنوبى الغربى من نيجيريا ينتسبرن فى أصلهم إلى المصريين القدماء ونؤيد هذا الرأى المؤرخ الأفريقى مبورو أوجيكى Mboru Ojike الذى مات فى أوائل هذا القرن . وكذلك جرافت جونسون Graft johnson والشيخ أنتا ديوب Cheikh Anta Diop الأفريقيان ومؤرخون آخرون . مما دعا بعض الكتاب الأوروبيين إلى إثارة هذه النقطة فى كتبهم والكتابة حولها فى اسهاب خلال أبحاثهم السلالية .

أما عن الكتاب العرب فالمسعودى الذى عاش فى القرن العاشر يقول (وصاحب الواحات فى وقتنا (٩٤٣ م) عبد الملك بن مروان وهو رجل من العرابة إلا أنه مروانى المذهب وبينه وبين الاحباش (بعض بلاد النوبة) ستة أيام) ثم جاء إبن حوقل الذى قال (أن صاحبها هو عبدون بن محمد بن عبدون) أما الأدريسى فيقول بعد ذلك بقرن (أن الواحات الداخلة خراب لاساكن فيها أما الخارجه فمعمورة فيها قرى كثيرة . وبالفرفرون قصران لآل عبدون ولايمد آل عبدون

وخدمهم أيديهم فى شىء من الجباية سوى الخراج والجزيه من النصارى) كما يذكر ابن حوقل صراحة بعد ذلك (أن سكانها من المصريين الاقباط والمسلمين أما السكان الأصليون فهم من البربر) ومعنى ذلك أنهم يتبعون كنيسة الاسكندريه التى لابد وأنها تقيم عليها مطرانا كلما احتاجوا وقد يكونون تابعين لاحد مطارنة النوبة ويذكر الاستاذ عبد الرحمن محمود عبد التواب مدير مصلحة الأثار الاسلامية والقبطية (أن هناك صلة واضحة من الناحيه المعمارية بين قباب مقبرة البجوات فى الواحة الخارجة وبين قباب مقابر اسوان . مما يؤيد علاقة بين المنطقين) ويذكر لنا ابن دقماق (أن بالواحات اربعة وعشرون بلدا وميرتهم اربعة وخمسون الف دينار) ويذكر من بينها القلمون (وهى الان قرب الفيوم) ويقول عنها (وبها كنيسة للنصارى) . كما يؤكد لنا هذه الحقيقة فى نهاية عصر الدولة الايوبية أبو صالح الأرمنى فيذكر كنائسها وفى العهد المملوكى تولاها اميران طبلخانه أحدهما الخياب العلائى ابن الطبلاوى والاخر أمير فرج نائب الوجه البحرى وبها مسجد أمر بعمارته المأمور بن المطائحى فى شهر شوال سنة ٥١٧ هـ .

ح — مصر طريق الاسلام نحو الشمال الافريقى

ونعود إلى مصر فى عصرها الإسلامى . فنجد أن عبد الله بن أبى السرح قد حاول فتح النوبة إلا أنه فشل وانتهى الأمر إلى هدنة أو معاهدة إقتصادية اتفق فيها على أن ترسل النوبة إلى مصر ما تحتاجه من الرقيق مقابل أن تأخذ منها الحبوب والأقمشة وأن تحافظ النوبة على المسجد الإسلامى الذى سبق أن أقامه بعض المسلمين المقيمين هناك . وكانت هذه المعاهدة سبباً فى قيام صداقة بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية . حتى إذا احتاج عبد الله بن أبى السرح إلى أن يقيم منبرا فى جامع عمرو بالفسطاط أرسل له الملك زكريا هدية هى بعض الخشب ومعها عامل يسمى بقطر هو الذى أقامه له .

ولم تكن هجرات المصريين بعامة والمسيحيين بخاصة نحو الجنوب لتتوقف بعد الفتح الإسلامى . بل ربما ازدادت شدة ولذا أخذ عدد المصريين هناك يزداد فى بعض الظروف التى كانت تحتمها الحياة المصرية .

وتحدثنا المصادر المسيحية أن حفص بن الوليد طلب من البطريرك البابا خائيل (وهو الواحد والأربعون من عداد البطاركة) مالا كثيراً فسافر إلى الصعيد يجمعه وسمع بذلك قرياقص ملك النوبة (٨٤٤ — ٨٦٨) فقدم على رأس مائة ألف من الفرسان ومثلها من الجمال . فلما وسمع الوالى بذلك كتب إلى البطريرك أن يكتب هذا الأخير إلى ملك النوبة ليعود إلى مملكته وتخلى عن طلب المال . ففعل البطريرك وعاد الملك قرياقص من حيث أتى . ويؤيد هذه الرواية ستانلى لين بول ولكنه يذكر أن الوالى كان عبد الله بن عبد الملك الذى حمل على المسيحين وأمرهم بلبس البرانس .

وإذا كان المسلمون قد حاولوا غزو النوبة مرة واحدة انتهت بهذه المعاهدة التى ذكرناها إلا أنهم إتخذوا مصر مركزاً لعدد من الغزوات العربية التى اتجهت لفتح الشمال الأفريقى حتى وصلت المحيط الأطلسى . وكانت الأموال المصرية هى التى تمون هذه الغزوات بل كان الولاة على مصر هم الذين يقودون هذه الغزوات حتى لكأن الولاية على مصر كانت مرتبة بنجاح الوالى فى غزو جزء من هذا الشمال الأفريقى .

ونحن وأن حاولنا أن نذكر الحملات الحربية الإسلامية التى انتهت بفتح هذا الجزء من أفريقيا فمن أجل ما تكبدته مصر من أموال بذلت فى هذا السبيل دون أن تكون لمصر فائدة أدبية أو مادية أو دينية مطلقا . ومما يؤسف له ان لم يحاول أحد من المؤرخين المسلمين أو غيرهم تقدير هذه الأموال .

بدأ غزو برقه بغزوة عقبه بن نافع حين أرسله عمرو بن العاص فبدأ بغزو واحة فزان من أجل أن يضمن ولاءها بينما اتجه عمرو إلى برقة عن طريق الساحل . وكانت برقة على شىء كثير من الثراء بسبب إنصراف أهلها إلى التجارة فغنم منها شيئاً كثيراً قسم بين المحاربين . وقيل أنه صالح أهلها من قبيلة لواته على جزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار هى قيمة ما كانوا يدفعونه إلى الروم، ولا شك أن هذه الجزية كلها ذهبت إلى دار الخلافة فى المدينة وقيل بعد ذلك إنها كانت تدفع دون أن يذهب جابى إليهم مما يدل على إنضمام برقة إلى مصر على نحو ما كانت أيام البيزنطيين ولكننا لا نعرف فى الواقع ما يفيد دفع هذه الجزية بصفة مستمرة مما يؤكد أنها لم تدفع إلا مرة واحدة ثمنا لعودة الجيش العربى عنها وهذا هو نفس ما يفهم من عبارة

البلاذرى حين قال (ولم يكن يدخل هذه المنطقة جابى من قبل صاحب الفسطاط) ويبدو من أخبار هذه الغزوات عدم وجود مقاومة جدية للمسلمين مما يجعلنا نعتقد عدم وجود تحصينات كان الروم قد أقاموها ولعل هذا ما يؤيد ما ذكرناه من أن هذا الأقليم كان مهملا سواء من دولة روما أو بيزنطة ، وكتب عمرو إلى الخليفة يقول أنه قد أتم فتح برقه وأن ما بين برقة وزويلة سلم المسلمين أى مسالمون لهم . وهذه العبارة كافية لأن تجعلنا نفهم أن أهل هذه البلاد لم يخضعوا للمسلمين بل سالموهم .

وفى سنة ٢٦ هـ (٦٥٦) سار عبد الله بن أبى السرح على رأس حملة أخرى بعد أن وعده عثمان بخمس الغنيمة الذى كان يذهب إلى بيت المال وأحس جريجورى حاكمها بالخطر وكان قد أعلن استقلاله عن الدولة الرومانية الشرقية حديثا واحتاج إلى فسحة من الوقت يعزز فيها سلطته فتمكن عبد الله من فتحها وقتل من أهلها خلقاً كثيراً على ما تقول المصادر الإسلامية كان جريجورى من بينهم وأسرت ابنته واستولى عبد الله على نصيبه من الغنائم وبعث إلى عثمان بنصيب بيت المال . وقسم الباقى على الجند فبلغ نصيب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل الفا ، كما صالح بطريقها كما تقول المصادر الإسلامية على الفى الف وخمسمائه دينار .ولم تصب مصر من هذا كله شيئاً . وعجل عبد الله بالعودة إلى مصر بعد أن أقام سنة وشهرين . دون أن يترك حامية أو يقيم مدينة أو يعمل على استمرار خضوع المهزومين . بل خاف أن يكر الروم أو البربر فيسلبوهم ما غنموا .

وتجددت المحاولات مره أخرى أيام ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر سنة ٤٤ هـ وكان الإمبراطور قسطنطين (٦٤١ — ٦٦٨) قد عزم على الدفاع عن امبراطوريته الغربية فاجرى تحصينات كثيرة بها ولكنها كانت

على حساب الأهالى الذين ازدادت نقمتهم على الحكومة الإمبراطورية ولذا تقول لنا المصادر الإسلامية أن معاوية بن حديج وصل إلى أفريقيا (وهى نار تضطرم) ولذا لم يلاق فى برقة مقاومة تذكر ووصل إلى تونس فى سرعة غريبة .

وعاد عقبة بين نافع مرة أخرى سنة ٤٧ هـ (٦٦٨) ففتح بعض واحات الصحراء فقاومته لواته مقاومة جبارة لم يستطع عقبه أن يتغلب عليها إلا بعد لأى . فنقض عقبةما كان بينها وبين المسلمين من عهد وأسر أفراداً كثيرين وسبي من نسائها كثيرات فتحولت لواته من هذا الوقت عن برقة إلى الغرب وسكنت جبال نفوسه فكانت ضربة شديدة لحقت بأقليم برقة .

وعاد الفتح مرة أخرى أيام أبو المهاجر دينار ، ولكن جهده انصب على مايلى تونس وكذلك من قدم بعده من القواد . ويبدو من ذلك أن برقة قد استسلمت لاسيما ونحن نعرف أن عبد الملك بن مروان جهزجيشاً جديداً لا كمال فتح المغرب بقيادة حسان بن النعمان الغسانى نجح فى الوصول إلى قرطاجنة وهزم الجيوش الرومية التى تجمعت هناك وأنه سبي ونهب وقتل قتلا ذريعا . فتقهقر الروم إلى برقة . وهناك تجمعوا من حديد تحت قيادة امرأة تدعى الكاهنة . حتى إذا وصل اليهم حسان هجموا علية وهزموه بعد أن قتلوا من المسلمين مقتلة كبيرة . فتراجع حسان الى برقة وكتب إلى عبد الملك يطلب المدد فأرسله له بعد خمس سنين أقامها حسان فى برقة فى منطقة عرفت فيما بعد باسم قصور حسان . مما يدل على استسلام هذا الجزء من الشمال الأفريقى للحكم الاسلامى .

ولاحاجة بنا الى أن نطيل فى ذكر عمليات الفتح القتالية ولكن يكفى أن نذكر أن الأمر انتهى الى انتهاء الحكم البيزنطى ودخول هذا الجزء من

أفريقيا تحت ظل الحكومة الاسلامية الجديدة فى دمشق ومن هذا الجزء الأفريقى خرجت الحملات الى أوروبا لفتحها عبر بوغاز جبل طارق ونجحت فى هدفها مما ليس فى موضوعنا .

وهنا ملاحظة صغيرة لابدمن ابدائها وهى أن الدولة الاسلامية بفتوحاتها قد استطاعت أن تحطم الدولة الرومانية الشرقية ذات الحول والطول وذات القوة الحربية الهائلة حين أخذت منها الشام كله وكذلك الشمال الأفريقى كله . بينما لم تستطع هذه الفتوحات أن تحطم الوحدة الدينية التى قامت بين مصر وبرقة واتيوبيا والسودان والتى كان يرأسها بطريرك الاسكندرية ولا يربط بين اجزائها سلاح . بل اقتصرت الرابطة بينها على العامل الروحى وحده بل عمل عمرو بين العاص على تقوية هـذه الرابطة حين استقدم البطريرك بنيامين (البطريرك الأربعين) وكتب له عهد الأمان وترك له حرية التصرف فى كل الأمور الدينية فكان لاينى عن ارسال المطارنة الى هذه البلاد كلما احتاج الأمر الى ذلك . واذا كانت المسيحية قد أخذت تتقلص بعد ذلك عن بعض هذه الأجزاء مثل برقة فان هذا الأمر لم يحدث الا بعد عدة قرون من الفتح الاسلامى كما أن مسئولية هذا التقلص تقع على عاتق كنيسة الاسكندرية نفسها أكثر مما تقع على أى شخص أو هيئة أخرى تحت تأثير عوامل كثيرة متشعبة ولعل أول هذه العوامل هو هجرة من كان بها من الروم .

أما العامل الثانى فهو أنه بالرغم من أن الحكم الإسلامى فى مصر قد رد البطريرك بنيامين وأعطاه الأمان ورد إليه سلطته كاملة إلا أن هـذا الأخير أهمل فى رعاية هذا الجزء من رعاياه .

حقيقة لابد أن نذكرها وهى أنه ظل يعين لهم الأساقفة الذين يسافرون إلى برقة ويباشرون مهامهم هناك إلا أن شيئا جديداً دخل فى الموضوع وهذ

الشىء الجديد هو أن شدة نقمة المصريين ومعهم رؤساء الروحانيين على الحكم البيزنطى جعلهم يقلعون عن استعمال اللغة اليونانية شيئاً فشيئاً ويستبدلون بها اللغة القبطية — وهى اللغة المصرية القديمة ـ الديموطيقية — بعد أن كتبت بحروف يونانية . وأخذت تستعمل هذه اللغة الجديدة فى إقامة الطقوس ثم كتابة الكتب ثم الكلام . وكان إقبال المصريين على استعمال هذه اللغة الجديدة مقبولا من المصريين ولكنه لم يكن مقبولا فى برقة . فكل من اليونانية والقبطية أجنبى ولو عنى المصريون بترجمة الكتب والطقوس إلى تلك اللغة الوطنية فى برقة أو العربية التى أدخلت إلى المنطقة لظل المسيحيون على مسيحيتهم يزاولونها بلغتهم الوطنية أو باللغة الجديدة التى دخلت إلى بلادهم وأصبح لها السيادة ومن هنا تقهقرت المسيحية بلغتها القديمة والجديدة وانتصر الإسلام ولغتـــه الجديدة لاسيما وقد قدم على يد مهاجرين من العرب سكنوا هذا الأقليم وتسودوه .

وهذه الهجرة العربية ازدادت منذ قيام الدولة الأموية واضطهاد أعدائها السياسيين الذين أخذوا فى الهجرة إلى (الأقطار النائية) بعيدا عن سلطة الخلفاء . وبدأت هذه الهجرة مبكرة منذ ثورة الزبيريين . واشتدت بعد سنة ١٣٢ ه من جراء شدة بطش العباسيين لكل من الأمويين والعلويين . وكانت الجيوش العباسية تتبعهم وتحاول القضاء عليهم وتستقر هناك لمراقبتهم . وهكذا انتهت المسيحية وانتهى معها نفوذ مصر هناك .

ولكن مع الفتح الإسلامى بدأت دراسة العلوم الإسلامية من القرآن والحديث والفقه ، وقدم إلى مصر فريق كبير من علماء الإسلام يعلمون الناس أصول الدين ويضعون الأساس الأولى لمدرسة مصر الدينية ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن عمرو بن العاص . وفى العصر الأموى قطعت مدرسة مصر شوطا

بعيداً فى طريق التطور بكثرة عدد الوافدين إليها من التابعين وسرعان ما بدت بواكير هذه المدرسة وبرزت مجموعة من أعلام أساتذتها منهم أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد وسرعان ما انتقل علمهم إلى بقية الشمال الأفريقى . ودليل ذلك سيادة مذهب ابن مالك هناك عن تلاميذه المقيمين فى مدرسة جامع عمرو وأصبحت هذه المدرسة مقصد الدارسين وطالبى الاستزادة من مذهب بن مالك ولعل أشهرهم أسد بن الفرات العالم المشهور فى تاريخ أفريقيا الذى سمع من على بن القاسم إمام المالكية فى مصر . وبدأ أهل المغرب يقبلون على هذا المذهب مما دفع بفقيه المغرب المشهور سحنون بن سعيد إلى القدوم إلى مصر ليسمع على ابن القاسم وأقام بمصر برهة تشرب فيها مذهب مالك وعاد إلى بلده وجمع خلاصة دراساته فى أول كتاب يظهر فى فقه مالك وهو (المدونة) وإلى سحنون يعزى فضل دخول أهل المغرب جماعات فى المذهب المالكى وأصبح مذهب الدولة الرسمى حتى إذا قامت الدولة الفاطمية هناك قاوم أهله المذهب الشيعى مقاومة جبارة وكانت سبباً فى عدم استقرار هذا الجزء لهم وتفكيرهم فى غزو مصر والانتقال إليها حتى تم لهم ذلك . وأرادوا أن ينتقموا من المغرب وتم لهم بعض هذا الانتقام حين أرسلوا إليها قبائل بنى هلال التى خربت ما وراء حدود مصر الغربية خراباً لم تشهده هذه البلاد إلا فى عهد الواندال . واستحالت البلاد إلى أتون ملتهب فكانت مصر إذن وجهودها سبباً فى فتح هذا الإقليم وإدانته للدولة الاسلامية

عن طريق أموالها ، ثم عاملا فى انتشار الثقافة الاسلامية عن طريق علمائها . ثم سببا فى خراب هذا الأقاليم عن طريق من أرسلتهم من القبائل البدوية وكان إسلام غرب أفريقيا نتيجة أيضا لهجرات من علماء المغرب حين هربوا إليها من غزوات بنى هلال .

د الصحراء الكبرى لاتحول دون التوغل المصرى

وصحب قدوم العرب إلى الشمال الأفريقى استعمال الجمل على نطاق واسع فقد كان هؤلاء العرب هم الذين يجيدون استعماله إلى جانب معرفتهم بأداب السفر فى الصحراء . وما يستلزمه قطع الصحراء من استعدادات لم يكن أحد يعرفها جيداً بقدر ما يعرفونه هم ، كما يعرفون كيفية التغلب على مشا كل الرحلة الصحراوية وأول هذه المشا كل احتمال الضلال فى الصحراء الذى لم يكن يعنى سوى الموت ، فكان الدليل الأمين الخبير بمسالك الصحراء أول ما يبحثون عنه . ثم تنظيم وقت قيام القافلة وراحتها وحسن تحميل حيوانات القافلة وترتيب أحمالها ! وترتيب وصولها وحسن استقبال الأهالى لها وكيفية إقامة الأسواق وفضها وواجب أفرادها نحو المستقبلين (بكسر الباء) ثم الرياح والعواصف وكيفية التغلب عليها . فكأننا نستطيع أن نقول دون مبالغة إن وصول العرب إلى الشمال الأفريقى كان بمثابة القنبلة الذرية التى فجرت هدوء الصحراء الكبرى نشاطاً لم يكن مألوفاً من قبل ، هذا إلى جانب النشاط العلمى الجبار فى دراسه الجغرافيا ثم كتابة نتائج هذا النشاط من مجموعة من الكتب أظهرت تفوقهم بأجلى بيان فى علم تقويم البلدان منذ القرن الثالث الهجرى وكذلك تفوقهم فى علم الفلك . فكانت النتيجة الطبيعيه لهـذا كله قيام الممالك الإسلامية على حافتى الصحراء الشمالية والجنوبية ورغبة أهلها فى تبادل التجارة أولا ، ثم القيام بالحج إلى الاماكن المقدسة ثانيا والتعرف إلى اخوانهم فى الدين ثالثا هى التى جعلت من الصحراء الكبرى خلية نحل لا تهدأ لها حركة نهاراً أو ليلا خلال العصر الوسيط كله . ولكننا سوف نقتصر فى دراستنا هذه على الدور الذى لعبته مصر فقط مع غيرها من أجزاء القارة الأفريقية

خلال القرون الأولى من العصر الإسلامى إلا أن الهدوء لم يلبث أن عاد إليها حين قام بها الحكم المصرى المستقل بعض الشىء . لا سيما أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك .

فقد حرصت الدولة الفاطمية بعد أن استقرت فى مصر على أن يمتد نفوذها إلى بقية شمال أفريقيا ، إلا أن نجاحها كان محدوداً . واستقل المغرب تحت حكم أمرائه المحليين وقامت الدول المغربية المختلفة . ولكن الخلاف كثيراً ما كان ينشب بين أمرائها المحليين فيتنازعون العرش فكان المهزوم منهم يفر إلى مصر حيث يجد من سلاطينها عوناً . فقد قدم إليها أبو يحيى بن زكريا الحفصى سنة ٧١١ مستنجداً بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون على أن يكون نائباً عنه فى حكم تونس فأنجده السلطان ونجحت الحملة فى مهمتها وعاد أبو يحيى إلى العرش وخطب للسلطان الناصر على المنابر هناك فكونت هذه الأجزاء من أفريقيا جزءاً من السلطنة المصرية للمرة الأولى فى تاريخها إلا أن هذا السلطان لم يدم طويلا .

وحرص سلاطين المغرب بعد ذلك على أن تظل العلاقات الحسنة تربطهم بمصر لأنها كانت طريق حجهم إلى الأراضى المقدسة فوجدوا من سلاطين مصر ما دفعهم إلى أن يكتبوا إليهم شاكرين هذا الاستعداد . هذا فى الوقت الذى شهدت فيه إتيوبيا نشاطاً تجارياً ملحوظاً تزعمه التجار المسلمون الذين سكنوا أقاليمها الشرقية .

وفى نفس الوقت قامت على حافة الصحراء الكبرى الجنوبية ممالك غانا ثم مالى ثم صنغاى . وكانت هذه الحركة التجارية النشطة وما تحمله من مواد غالية الثمن هى التى حركت أطماع الأمير هنرى الملاح فصمم على اكتشاف

الطرق البحرية التى تؤدى إلى منابع هذه الثروة ثم إلى أطماع السلطان المنصور ملك مراكش فأرسل بحملاته البرية لنفس الهدف وتكون هذه الحملات البحرية المسيحية والبرية الإسلامية بداية العصر الحديث فى تاريخ العالم .

ونحن إذا نظرنا إلى خريطة الصحراء الكبرى وما يمكن أن يخترقها من طرق تربط بين واحاتها المختلفة نجد بها ثلاث طرق رئيسية أفقية .

(ا) الطريق الأول الشمالى ويبدأ من مراكش فى أقصى الغرب إلى فاس فتلمسان فالقيروان ماراً ببسكرة ثم إلى طرابلس وبنغازى فبرج العرب فالإسكندرية فطنطا فطوخ فالقاهرة ومنها إلى القلزم أو قوص .

(ب) وثانيها الطريق الأوسط وهو يبدأ من وادان إلى تغازة الغزلان ففات فمرزوق ، فالكفرة فبولاق فقوص ثم يتابع الركب سيره إلى عيذاب .

(حـ) وثالثها طريق القطاع الجنوبى وهو يبدأ من بلاد التكرور فى أقصى غرب القارة ثم يتجه شرقاً إلى أودغاست فولاتا فتمبكتو فتكدا فأغادس ثم يتابع الركب سيره شرقاً إلى بلما فأبشر فى إقليم واداى (تشاد حالياً) ثم الفاشر ثم الأبيض فى كردفان . حيث يستطيعون متابعة الركب إلى الشرق أو السير شمالا إلى مصر عن طريق وادى الأربعين .

كما أن هناك طرق رأسية يعنينا منها طريق أقصى الشرق حيث يلتقى تجار الفاشر بتجار كردفان فى الأبيض ثم يصعدون شمالا إلى بير النطرون فبولاق فى الواحات الخارجة ثم يتصلون بطريق النيل عند أسيوط .

ولعل أهم مواد التجارة التى عنيت مصر باستيرادها عبر هذه الطرق هو الرقيق حين عنيت الدولة الطولونية فالأخشيدية فالفاطمية بتكوين الجيوش التى تدافع عن أرضهم ضد المهاجمين،فقد عنى جميع المؤرخين الذين عنوا بتاريخ هذه الدول بإظهار الفرق السودانية التى كونت جزءاً كبيراً من الجيش. كما عنيت باستيراده من الممالك النوبية المسيحية .

وحملت القوافل السودانية إلى مصر أيضاً ريش النعام والعاج والعنبر والمسك فكان أغلى ريش النعام ما يصل من دارفور وكردفان ، فقد تمتع سلاطين مصر خلال عصور الاستقلال بكل أنواع الترف ،فما زالت المصادر تعنى بأخبار القصور الملكية التى بناها أحمدبن طولون وكذلك الأخشيديون والفاطميون . ثم من بعدهم سلاطين الدولة الأيوبية . وكذلك سلاطين الدولتين المملوكيتين ، وما كان بها من أنواع الترف والأثاث ، وظلت تجارة ريش النعام والعاج قوية حتى القرن التاسع عشر حين قامت حكومة محمد على فى مصر فجعلتها ضمن ما احتكرته من مـــواد التجارة وما زالت المتاحف فى القاهرة تحوى كثيراً من الأثاث المطعم بالعاج .

وكانت القوافل المصرية التى تسير إلى هذه البلاد تصل فى بعض الأوقات إلى إثنى عشر ألف جملا أى ما يوازى ثلاثين سفينة بحرية من سفن ذلك الزمان . وكانت وجهتها مدينة تكازه التى كانت عاصمة تجارية لمملكة مالى وكان التجار المصريون أداة انتشار الإسلام فى هذه الجهات كما حملوا معهم مصنوعات مصرية حازت إعجاب سلاطينها فقد كانت معظم هذه المصنوعات من الأنواع الراقية غالية الثمن التى قصر استعمالها على السلاطين . فقد حدثنا ابن بطوطة أنه اتجه إلى سلطان مالى المسمى منسى سليمان فوجده (فى يوم

جلوسه يجلس إلى طيقان قصره التى تطل إلى الخارج وقد أخرج من إحداها شرابة حرير وقد ربط فيها منديل مصرى مرقوم . وإذا مارأى الناس هذا المنديل ضربت الطبول والأبواق) .

كما تذكر لنا المصادر أن الملك اسكيا Askia (١٤٩٤ — ١٥٢٩) بن سنى على ترك بلاده مدة سنتين وطاف بالممالك الاسلامية المعاصرة ومنها مصر حيث وجد فى القاهرة المتوكل العباسى آخر خلفاء العباسيين فاعترف بسلطته عليه حتى إذا خرج منها قاصداً العودة إلى بلاده صحب معه مجموعة من العلماء والقضاة عملوا على تفقيه قومه فى العلوم الدينية كما ساعد على تنظيم دولته تنظيما إسلامياً متقدما ، ولعل ثمرات هذا الاتصال ظهرت فى النظام الادارى الذى وضعه لبلاد حين قسمها إلى ولايات ومديريات .

وكان حكام المديريات مسؤولين أمام حكام الولايات وهؤلاء بدورهم مسؤولين أمامه كما عمل على اقامة جيش من الرقيق متفرغ للحرب على نحو مافعل المماليك . كما يذكر ابن بطوطه عند الكلام على تكدا (أن لاشغل لأهلها غير التجارة . يسافرون بها كل عام إلى مصر يجلبون ما بها من حسان الثياب ولأهلها رفاهية وسعة حال) وقد مدح ابن بطوطه أهل مالى فى المعاملة مما بعث الطمأنينة فى نفوس تجار القاهرة فقد ذكر (أنهم لا يتعرضون لمال من يموت فى بلادهم من البيض ولو كان القناطير المقنطرة إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقة) .

ومنذ الأيام الأولى للفتح العربى كانت مصر مقصد بعض القبائل العربية المهاجرة فاستقروا فيها وطال مكثهم فتصـــاهروا إلى المصريين وسرعان ما ملكوا الأرض واشتغلوا بالزراعة ، ولكن قصر مكث الآخرين فعبروها

إلى الجنوب حيث استقروا فى شمال السودان بينما أوغل غيرهم فى الهجرة ووصل إلى السودان الأوسط بل اشتد آخرون فوصلوا إلى غربه وإلى إثيوبيا والصومال وكان أكثر ما يغريهم بأرض السودان تلك الحرية التى تمتعوا بها وما كان يستخرج من الذهب من وادى العلاقى . وسرعان ما اندمج هؤلاء القادمون مع السودانيين وتصاهروا إليهم ، وكان الجندى المصرى والأموال المصرية هى التى فتحت هذه الأجزاء حين قضت على سلطان قبائل البجة . وقام بهذا العمل محمد بن عبد الله القمى أيام المتوكل حين جهز بالسلاح والخيل عنبسة ابن اسحق ثم ولاه الصعيد الأعلى وأطلق يده ، فسار على رأس سبعة آلاف واقتحم بلادهم وأمعن فيهم تقتيلا حتى دانت بلادهم وأرسل ملكهم إلى القمى يسأل الأمان وحمل معه ما تأخر عليه من المال . فسار معه إلى المتوكل وقدم له الخضوع فعفا عنه المتوكل وأفاض عليه الخلع . واشتدت الهجرة إلى السودان حين فسدت الأحوال فى مصر فساداً كبيرا فحملوا معهم - كما كانوا يفعلون فى الماضى - نتاج الحضارتين المصرية والعربية ممتزجتين - ولم يقف ملوك النوبة المسيحيون فى وجه هذه الهجرات طالما يدخل الداخلون إلى بلادهم دخولا سلميا . ويستقرون حيث أرادوا خاضعين لسلطة هؤلاء الملوك.

وإذا ما اشتد تجار الرقيق فى الهجوم على القرى السودانية من أجل اصطياد الرقيق الذين طلبهم الطولونيين وغيرهم كان هجومهم على القبائل الوثنية أو المسيحية أكثر من هجومهم على غيرهم مما دفع بهؤلاء إلى الدخول فى الإسلام أمانا لهم من الوقوع فى ذل الرق ، فعرف الإسلام طريقه إلى هذه البلاد ولعلنا نجد فى قصة هروب مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر

مثلا من هذه الهجرات فقد جاء إلى مصر هاربا تطارده جيوش العباسيين . وما زالت هذه المطاردة مستمرة حتى تقابل الجيشان فى الصعيد ودارت الدائرة عليه فقتل من أنصاره من قتل وهرب الباقون إلى السودان فاثيوبيا حيث استقر بعضهم وعاد من بقى منهم إلى الحجاز عن طريق البحر ،

ونقلت هذه الطرق - إلى جانب التجارة - الحجاج من أقصى غرب القارة إلى أقصى شرقها من أجل العبور إلى الحجاز وكانت الرحلة فى العادة تتم فى سنة وسبعين يوما على الأقل إذ يغادر الحجاج بلادهم لينضموا إلى قوافل التجارة عقب عيد الفطر . ليصلوا إلى الحجاز فى عيد الأضحى للسنة التالية . وكانوا ينضمون إلى قوافل التجار ثم يتركونها عند انتهاء مرحلة ما ليستقروا بعض الوقت ويستريحوا وقد يشتغل بعضهم فى عمل ما يربح منه مصاريف الرحلة الثانية . وقد تطول فترة الاستراحة فيتزوجون فى أثنائها من بنات المدينة التى يستقرون فيها وقد ينجبون . ولكن إذا حان سفرهم تركوا كل ذلك وراءهم - إلا ما جمعوه من مال - وتابعوا مرحلة أخرى إلى مدينة يفعلون فيها ما فعلوه فى المدينة الأولى . ثم يتابعون رحلتهم مما يؤدى إلى أن تطول رحله الحج إلى عدد من السنوات . وما زال بعض حجاج غرب أفريقيا من الفقراء يتبعون نفس هذا النظام حتى الوقت الحاضر ويطلق السودانيون على هؤلاء الحجاج اسم (الفلاتة) وكثير منهم يعملون فى الوقت الحاضر فى مزارع القطن فى منطقة الجزيرة .

ولعل من أشهر من قام من الصحراء الكبرى بقصد الحج على إحدى هذه الطرق منسى موسى ملك مالى . الذى اعتلى العرش سنة ١٣٠٧ (٦٠٧ هـ) بعد أن مات سونديانا مؤسس مملكة مالى بنصف قرن . وتقول الرواية عن صاحب هذه الرحلة أنه خرج فى سنة ١٣٢٤ (٧٢٥ هـ) وهى السنة السابعة عشر من

حكمه تصحبه جحافل من أتباعه من أهل ونجارا وولاتا وتوات . واختلفت الروايات بعد ذلك فى الطرق التى سلكها إلى القاهرة . وربما كان طريق ورجالا . أى الطريق الأوسط ثم إلى الطريق الشمالى . . وكان السلطان يمتطى جوادا يتقدمه ٥٠٠ رقيق يحمل كل منهم كتلة من الذهب تزيد عن ٥٠٠ مثقال (المثقال ثمن أوقية) وفى القاهرة لم تكن العظمة التى أحاط بها الملك الزنجى نفسه هى التى سببت شهرته بل عطفه . إذ رفض أولا أن يقدم الهبات المعتادة لسلطان المماليك بل رفض مقابلته لعدم رغبته فى تقبيل الأرض بين يديه كعادة كل من يقابلهم . ورغم ذلك لم يأل السلطان جهدا فى سبيل تكريم ضيفه وراحته .

ووجد العمرى ـ صاحب مسالك البلدان ـ وقد كان فى القاهرة بعد زيارة منسى موسى باثنتى عشرة سنة — أن الناس لايزالون يشيدون بمدحة فصغار الموظفين الذين كثيراً مايتكالبون على الأغنياء يذكرون هداياه من الذهب الذى حمله معه . إذ كان يصحبه أكثر من ثمانين جملا يحمل كل منها ثلاثة قناطير ، كما استفاد آخرون من التجارة التى اتموها مع اتباعه إذ كان الواحد منهم يدفع بكل بساطة خمسة دنانير لثوب لم يكن يساوى اكثر من دينار واحد وكانت نساءوملابسهن الرقيقة اشدماأعجبهم وحدث ولاحرج عن تبذير السودانيين وكرم ملكهم الهائل فكان أن طرح ذهب فى السوق بلغ من كثرته أن هبطت قيمته هبوطاً شديداً ولم يستعد الذهب سعره الأول إلى وقت قدوم العمرى .

ولم يقتصر توزيع منسى موسى لذهبه وثروته على القاهرة بل كان ينثر الذهب اينما ذهب . وفى المدن المقدسة استفاضت هداياه التى دلت على الكرم فليس من الصعب أن نصدق أنه حين عاد إلى القاهرة خلال رجوعه إلى وطنه

كانت ثروته قد أتت إلى نهايتها مما سبب له الحرج ولكنه لم يجد صعوبة فى أن يجد التسهيلات المؤقتة لملك ينتج بلده الذهب على مدى أثار دهشة الكثيرين . وكان واحدا من الذين تقدموا لمساعدته تاجر من الإسكندرية ذهب معه إلى السودان ليسترد ما أقرضه إياه ، ومات الرجل فى تمبكتو ولكن منسى موسى دفع دينه كاملا لورثته .

وصحب حاشية منسى موسى وهو عائد إلى بلده شاعر أندلسى اتصل به فى مكة وظل يتابعه حتى دخل حاضرته وكان يسمى بالساحلى وكان إلى جانب كونه شاعراً ـ مهندسا،وكان أن أوكل إليه سيده الجديد أن يستبدل بالبناء القديم للمسجد بناء جديدا أليق بعبادة الله . وبنى المسجد الجديد ـ الذى ظل قائماً ثلاثمائة سنة ـ من الأجر .الأمر الذى لم يكن معروفا حتى هذا الوقت فى السودان وكانت هذه الرحلة سبباً فى أن أصبحت تمبكتو مركزاً للثقافة والعلم فقد تقاطر اليهاالمعلمون المسلمون لاسيامن القاهرة فاتخذوا من مسجدها مدرسة وكان من اكبر الاساتذة الذين قصدوها أحمد بابا المؤرخ الذى كثيرا ماشار اليه السعدى مؤرخ مملكة مالى .

وشهد حكم منسى موسى اتساعا كبيرا فى تجارة مالى لاسيما مع مصر والجزيرة العربية بسبب المرونة التى اقام بها علاقته مع الخارج إلى جانب الصداقة التى نجح فى اقامتها .

وكان من أثر هذه الرحلة أن سمعت أوروبا لأول مرة شيئاً عن وسط أفريقيا حتى إذاحاول راسمواالخرائط الجغرافية الأوروبيون رسم خريطة لأفريقيا بعد ذلك وضع انجيلينو دولسرت Angelino Dulcert الميورقى فى وسط الصحراء الغربية عرشاً عليه تمثال كساة بالثياب الملكية وعلى رأسه تاج وذكر أنه (ملك مالى) . وكان ذلك فى سنة ١٣٣٩ أى بعد موت منسى

موسى بسبع سنين فقط كما ظهر أطلس كاتالان Catalan المشهور الذى رسم فى ١٣٧٥ م وفى وسط الصحراء رجلا ملثما راكباً جملا متجها إلى ملك جالس على عرش لابسا ملابس ملكية وتاجاً وممسكا بالصولجان فى إحدى يديه والصاجات الذهبية فى اليد الأخرى وهو يناولها إلى الراكب . وقد كتب تحت هذا أن الملك الزنجى (منسا موسى ملك الزنوج فى غانة والذهب كثير فى مملكته إلى حد أن أصبح أغنى وأنبل ملك فى العالم) ولكن هذه الصورة أخذت تختفى بعد ذلك نتيجة للضوء الذى ألقاه ليو الأفريقى على وسط أفريقيا .

وحملت قوافل الصحراء إلى الشمال النحاس الذى كان يستخرج بكثرة هائلة فى تكدا حيث يحفرون إليه فى الأرض فيسكبونه فى دورهم ليصنعوا منه قضباناً فى طول شبر ونصف وتباع كل اربعمائة قضيب بمثقال من الذهب وكان هذا النحاس يرسل فى كميات هائلة إلى مصر والمغرب وقد رأينا كثرة النحاس المستورد فيما تركه المماليك فى مساجدهم .

أما ماعنيت قوافل التجارة باستيراده من مصر لترسل به الى سلاطين ممالك السودان فهو المنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية وقد كانت بمصر صناعة راقية لهذه المنسوجات على اختلاف أنواعها وعملت كثير من المدن المصرية فى إنتاج هذه الأنواع الراقية من المنسوجات ، بل قامت بمصر صناعة للبسط والسجاجيد . بل أرسلت أيضا كميات كبيرة من الدمور الذى كون نسبة كبيرة من هذه التجارة وقد ذكر ابن بطوطة أن ثياب أهل أيوالاتن (حسان مصرية) ولم تقتصر هذه القوافل على أن تحمل اليها المصنوعات المصرية بل حملت إليها ما كانت تستورده مصر من أوروبا كالمخرمات والقطيفة فقد ذكر ابن بطوطة أيضا أن (سلطان مالى لبس جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى بالمطنفس) .

هـ ـ العصر المملوكي ذروة الأتصال

المصرى الأتيوبى

أما عن شرق النيل فقد كانت هذه المنطقة مهجرا طبيعيا لسكان الجزيرة العربية منذ أقدم العصور واشتدت هجرات المسلمين اليها كنتيجة طبيعية للاحداث الإقتصادية والسياسية والطبيعية التى سادت الجزيرة العربية وإتيوبيا والسودان بعد الاسلام .

وقد اشتغل هؤلاء المسلمون بالتجارة على نطاق واسع وعن طريقهم اتت التجارة الهندية إلى مصر فارتبطت هذه الأجزاء مع مصر ارتباطا قويا على مدى العصور الوسطى إلى جانب ماحملوه إلى مصر من الرقيق الاتيوبى والزنجى . فقد كان التجار الهنود أو تجار المدن الحكومية التى قامت فى شرق أفريقيا كزنجبار وكلوة يحملون التجارة الهندية من مواطنها بعد أن عرفوا سر الرياح الموسمية واتجاهيها الصيفى والشتوى . إلى ميناء عدن . ومن هذه الأخيرة بدأ نشاط التجار الأتيوبيين أو العرب بسفنهم الصغيرة ليحملوا هذه التجارة إلى موانى البحر الأحمر ومنها القلزم وعيذاب . وقد كان لهذه التجارة واحد من طرق ثلاث .

احدها طريق بحرى خالص يسير فى البحر الأحمر صوب الشمال إلى حيث أحد هذين الميناءين وليس أدل على نشاط هذين الميناءين من قول ابن جبير حين رأى ميناء عيذاب أنها (من احفل مراسى الدنيا) لما كان يصلها من أحمال الفلفل الذى كان يترك فى بعض مراحل الطريق الصحراوى بين عيذاب وقوص دون حراسة فلا يجرؤ إنسان على أن يقربه

حتى يأتيه صاحبه . وثانيها طريق نصف بحرى إلى زيلع أو عدل ومن هناك تحمل برا إلى عيذاب حيث ينقلها التجار إلى قوص فالقاهرة .

وثالث هـــذه الطرق بحرى إلى سواكن فقط وهناك ينزل التجار إلى البر ويخترقون السهل السودانى إلى النيل النوبى حيث يصعدون بها برا إلى القاهرة أو يحملونها إلى النيجر وساحل غانة أو إلى بلاد التكرور فى أقصى الغرب .

وكانت المسافة من القاهرة إلى قوص تستغرق خمسة عشر يوما ومثلها إلى عيذاب وثمانية عشر يوما للوصول إلى سواكن على أن بعض هذه الطرق البحرية كان معرضا للقرصان ولـكن وحدة العقيدة بين القرصان والتجار جعلت الوصول إلى اتفاق يحفظ حقوق كل منهما أمراً اسهلا .

وإذا ماوصلت هذه التجارة إلى القاهرة حملت إلى الاسكندرية حيث انتظرها تجار البندقية وجنوه وأمالفى ـــ وقد كانوا متعهدى نقلها إلى موانيهم ـ ومنها ترسل إلى أواسط أوروبا وكانت اسعار هذة البضائع فى الاسكندرية أقل منها فى الشام رغم مايفرضه المماليك عليها من الضرائب الفادحة ومن أجل هذه التجارة لم يتردد السلاطين المماليك من عقد الأتفاقات السياسية مع الدول الأوربية . وقد اتاحت هذه الأتفاقات لهم بنـاء الفنادق التى اقام بها التجار وحفظوا فيها تجارتهم .

وعن هذا الطريق كانت تأتى التوابل من الهند والجواهر من سيلان والقرنفل وخشب الصندل من الصين الهندية والفلفل من ملبار والنحاس من كلبانا بالقرب من بمباى والـكشمير من السندوالحرير الخام والصينى من الصين واللبان والبخور وسن الفيل من إتيوبيا مقابل مايأتى من أوروبا من

المنسوجات الحريرية والمخرمات والأقمشة الموشاة بالذهب وكان الأوروبيون يعتقدون أن التوابل تأتى من الجنة ولذا كانوا يسمون نهر النيل نهر الجنة، وأنها تنزل من أشجار تنمو على جانبى النهر وتسير فى الماء إلى القاهرة حيث يصطادها الناس بشباكهم وكانت هذه الخرافة مما يتبادله الحجاج المسيحيون فى أحاديثهم، وكان المماليك من جانبهم يعملون على إخفاء مصادر هذه التجارة عن الافرنج لئلا يبلغهم خبر ملك مسيحى فى الجنوب هو ملك الحبشة فيقوم بينهما اتفاق لا يأتى إلا بأبلغ الأضرار على مصر الإسلامية التى تقع بينهما . ولم يكن قيام هذا الاتفاق حديث خرافة ولا كابوسا يقض مضاجع المسلمين ،ففى سنة ٨٣٢هـ أيام حكم السلطان يوسف بن برسباى (٨٢٥ — ٨٤٢ هـ) قبض على تاجر فارسى يدعى نور الدين على تبريزى اعترف بأن اسحق ملك إتيوبيا أرسله إلى ملك الفرنجة يدعوه إلى الانضمام إليه لسحق الإسلام بأن يغزو مصر من ناحية الجنوب بينما يغزوها الفرنجة بأساطيلهم من الشمال وأنه سافر فعلا إلى أوروبا عن طريق الصحراء ، وأنه الآن فى طريق عودته إلى إتيوبيا يحمل نتيجة السعى، فحوكم أمام قاضى القضاة شمس الدين محمد وحكم عليه بالإعدام ، فأركب جملا وطوف به فى شوارع القاهرة والفسطاط وبولاق متبوعا برجل يقول (هذه عاقبة من يحمل السلاح ضد السلطان) ثم ضربت عنقه تجاه المدرسة الصالحية .

وإذا كانت هذه المملكة المسيحية التى تقع فى داخل إفريقيا أملا أو خيالا للأوروبيين طالما نسجوا حولها الأقاصيص والخرافات، إلا أنها لم تكن كذلك أمام مصر وسلاطينها ، فهم يعرفونها ويعرفون الطريق إليها بل يعرفون أيضا أن مياه النيل التى تتوقف عليها حياة بلادهم تأتى منها . وأنها ربما تكون قادرة على منعها عنهم وإذا كان الأوروبيون قد أطلقوا عليها اسما أقرب إلى الخيال

منه إلى الحقيقة وهو أرض القس حنا prester John فمصر كانت تعرف اسمها الحقيقي وهو الحبشة وتعرف أن ملكها المسيحي كثيراً ما أرسل إلى سلاطينها الهدايا والرسل من أجل طلب المطران الذى يرأس كنيستهم ومن أجل حسن معاملة مسيحيي مصر كى يحسن هو من جانبه معـــاملة من يقيم بها من المسلمين .

فمنذ وقت مبكر فى تاريخ الدوله المملوكية وصل إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى رسول من سلطان اليمن يقول أنه قد وصله وفد حبشى يقصد مصر من أجل طلب المطران ، وأنه قد احتجز الوفد حتى تأتيه الأوامر من سلطان مصر بما يفعله بشأنه ، أما ما يحمله من كتب قد أرسل بها إلى السلطان الذى وجد فى خطاب ملك الحبشة تذللا لم يألفه منه من قبل ،يسأله الموافقة على أن يعين بطريرك الاسكندرية مطرانا مصريا لاتيوبيا يقول فيه أقل المماليك(يعنى نفسه) يقبل الأرض وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه أن رسولا وصل من والى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا ، فنحن ماجاءنا مطران مولانا السلطان . ونحن عبيده . فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطرانا يكون رجلا جيداً عالما لا يحب ذهباً ولا فضة ويرسله إلى مدينة عوان ،وأقل المماليك يسير إلى الملك المظفر صاحب الملك (صاحب اليمن) ما يلزمه وهو يسيره إلى مولانا السلطان إلا أننى كنت فى سكار والملك داود قد توفى . وقد ملك موضعه ولده ،وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس مسلم،أما النصارى فكثير لا يحصون . والكل غلمانى وتحت أمرك والمطران الكبير يدعو لك . والخلق كلهم يقولون أمين،وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون لهم أقل المماليك ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون،وأما الرسول الذى سفروه فهو مريض وبلادنا وخمة أى من مرض

فيها لا يقدر أحد أن يدخل إليه . ومن شم رائحته فيمرض ويموت ونحن نحفظ كل من يأتى من بلاد المسلمين فسيروا مطرانا يحفظهم) .

ولكن السلطان الظاهر لأسبـــاب أو لأخرى لم يرد أن يجيبهم إلى ما يطالبون وبالتالى لم يستطع البطريرك أن يقيم لهم مطرانا ، فالمطران ضرورى للاتيوبيين من أجل تتويج الامبراطور فمنذ أيام الإمبراطور يوكونا املاك أصبح تتويج المطران المصرى للامبراطور ضرورياً دليلا على صحة ولايته العرش وأنه لا يصح لأحد غيره أن يحكم . وفى استطاعة الشعب أن يخرج عن طاعة من لا يتوجه المطران .

فعدم تتويج الأول للثانى قد يسبب خروج الناس عن طاعته ولذا كان هذا الرفض سببا فى قطع العلاقات مع مصر واتصال إتيوبيا ببطريرك إنطاكية لأجل أن يرسل هذا مطرانا يأخذ مكان المطران المصرى . إلا أن الشعب الإتيوبى لم يرض عن هذه الخطوة الجريئة من ملكه وهدد ومعه الأكليروس الوطنى بالثورة على الإمبراطور لاسيما والمطران السريانى الجديد لم يكن فوق مستوى الشبهات . فكان أن أرسل الإمبراطور يجبياصيون بن يوكونا املاك إلى السلطان قلاون فى شهر رمضان سنة تسع وثمانين وستمائة (١٢٩٠) بخطاب جديد يقول فيه أنه ماهو مثل والده (وإنى احفظ المسلمين فى مملكتى ومولانا يحفظ النصارى فى بلاده حتى نصير مشورة واحدة ويداً واحدة وتتواصل الرسل من الجهتين . والذى جرت العادة به عند إنفاذ المطران من الخدم والجوارى والذهب والأسد يصل مع رسولى) وكان يطلب أن يسير ذلك صحبة رسوله يوسف . ولكن تأخر (لأجل المطران الصريانى الذى أتلف البلاد فى زمان والدى ـ وهو من أعداء المسلمين ـ واشتهى أن تحضر المطلوب صحبة رسول السلطان وصحبة رسولى . وأنا انتظر جواب السلطان

بما يصلح المسلمين والنصارى حتى تنصلح بلاد الحبشة ، ولا يقول السلطان ما وصلتنى العوايد التى جرت العادة بها عند طلب المطران فإذا وصل صحبة رسول السلطان ورسولى عملت ما يشتهيه السلطان ويوصى به البطريرك).

وكانت نتيجة هذا الخطاب أن وافق السلطان قلاون على قيام البطريرك باختيار مطران مصرى وسفره إلى هناك .

وفى نفس الوقت حمل الرسول خطابا إلى البطريرك يؤنس الثامن يقول فيه (أتوسل للبطريرك أبو يحنس ونسلم عليه بالسلام الذى نسلم به على مرقص وأنذر يانون يكون عليك ـ اسمع كلامى ـ واقض حاجتى ـ وأبعث لى مطرانا أسقف جيد صالح يعلمنى كل شىء جيد ويكون مثل ما ضرب داود عليه السلام . المثل فى الزبور شأننا . وقال خلو رجالا جيادا من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلمونكم العبادة والزهد وقال فى وصيته لا تخلى يابنى خروفك يأكله الذئب وهؤلاء المطارنة السريان الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم . ولأجل محبتنا فى بطريركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم . وما كانوا تقدموا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك . والساعة لا تخرب مدينتك وتسير إلينا مطرانا حتى يشكرك الرب المسيح . وأذكر مرقص لا تخلينا بخطيئتنا وإن كنت وحدك تسير إلينا مطرانا فسيره، وإن كنت لا تقوم فبمرسوم مولانا السلطان ، وبعد ذلك مهما اشتهيت نسيره اليك ولاتخلى هؤلاء السريان فى بلادنا ونخرجهم إذا قلت أطردهم . وان قلت خلوهم خليناهم . وأنت انكرت (تنكرت) علينا بسببهم فأغفر لنا هذا الذنب حتى لاتبقى علينا خطيئة وأغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا فى الحياة والموت).

(كلام آخر . السلام يامنصور . اسمع يا سلطان مصر ـ نصرك الله ـ

أعط البطريرك الدستور (الأذن) يبعث لى أسقفا ، فنحن وهم أماننا واحدة (أصحاب عقيدة واحدة) من زمن مرقص وإلى اليوم والرسم الذى لك والتقدمه أنا أعطيك إن سيرت لى أسقف وإذا سيرته أنا اتقصى منه من رسمك (عن الهدية التى تسير اليك) ومهما قال فعلته).

ولم تكن المكاتبات التى تدور بين ملك إتيوبيا والبطريرك لتقف عند حد الرغبة فى اختيار المطران وإرساله . بل كان البطريرك يرسل إلى الملك مرتين كل عام يسأل فيهما عن أحوال شعب إتيوبيا كى يطمئن من ناحية العقيدة التى تدير عليها أو يعتنقها ، وإذا كان هناك ما يتطلب الكتابة أكثر من مرتين فإنه لم يكن يتردد فى الكتابة إليه أو إلى المطران ينصحه فى أمر من الأمور ونجد مثلا من هذه الكتب فيما كتبه البطريرك بطرس الجاولى إلى الإمبراطور بتاريخ ٢٤ طوبة سنة ١٥٤١ش + ٢٨٤ = ١٨٢٥ م .

(من بطرس عبد الله المدعو بنعمته القائم بمشيئته فى خدمة الكرسى الرقسى بالاسكندرية والمدينة الأورشليمية والديار المصرية والأقاليم الحبشية والبلاد المجاورة) .

سلام الله القدوس . الخاضع لعزته وللجلاله وعظمة الرئيس والمرءوس يحمل ويتضاعف ويزداد ويترادف ويشمل ذات الأخ الحبيب، والمحل الشريف العالى . الملكى ، ملك ملوك الجيوش النجاشية والحامى بصوارم سلطانه الممالك الحامية الملك البار المحب المختار كيكار تاج الأمم النصرانية . وفخر بنى المعمودية أدام الله تعالى أيامه وأيده ونصره ورفع أعلامه وشمل محله بالبركات السمائية وسوابغ الأنعام الآلهية بطلبات من قبلت طلباتهم آمين).

(انه فى أبرك وقت ، واشرق ساعة ، قد حضر إلينا فى جمادى الأولى

سنة ١٢٤٠ هلالية كتابكم المؤرخ فى شهر ربيع الثانى سنة ١٢٣٧ هلالية يتضمن اعتقاد أمانتكم بتجسد ابن الله الكلمة الأزلية بالجسد الذى أخذه من الروح القدس ومن مريم العذراء ، أنكم حكم قولكم الإبن الوحيد بدهن المسحة وإن أخانا المطران الذى توجه لكم لما منعكم من الاعتراف طلبتم أن نرسل لكم واحدا خلافه يقول بقولكم . واعتقادكم هذا ، وتقدمون لاعتقادكم الذى أنتم متمسكون به شهادات تفسيرها تجدونه مكتوبا فى روح الأمانة الواصل لكم) وسار الكتاب بعد ذلك أكثر من صفحتين يشرح فيهما عقيدة كنيسة الاسكندرية شرحا وافيا لا لبس فيـــه ولا إبهام كما توارثه ونصت عليه المجامع الدينية المعترف بها حتى يقول فى النهاية (وإن كان لم يصير عندكم الاقتناع بذلك تميزوا اثنين أو ثلاثة من طرفكم ذوى فهم وعلم بالكتب المقدسة وأرسلوهم ليحضروا لطرفنا نتكلم معهم شفاهيا بالفهم حتى يقتنعوا بحضور صورة الأمانة وما يصير بيننا وبينهم من القول وما ينتجه الكلام يصل لكم به كتاب تفهمون كل شىء منه تفصيلا والله تعالى يثبتكم ويساعدكم ويدبر أموركم وسلام الرب يحل عليكم والبركة تشملكم) .

وفى نفس الوقت كتب إلى المطران الأب سلامة الثالث فى نفس التاريخ السابق (حضر لنا جواب من أخينا كيكار سلطان الجيش يعرفنا فيه عن التمسكين به فى اعتقادهم فى المسحة المسحة * وغيرها . وأنكم حرمتموهم بسبب ذلك وبطلب إرسال مطران عوضكم ** يقول باعتقاده فأرسلنا له رد الجواب

(*) المسحة يقصد بها سر المسحة وهو زيارة رجال الدين للمرضى وطلب الشفاء لهم .

(**) أرسال مطران جديد أثناء حياة المطران صاحب المنصب مخالف للتقاليد .

ودرج الأمانة بما* فيه الكفاية عن رده عن اعتقاده حكم الدرج الذى أرسلناه لكم سابقا وعرفناه فى الجواب أن يصطلح معكم ومع كل القائمين على هواه . وبعد الصلح الشاف يترجمون درج الأمانة . من اللغة العربية إلى اللغة الحبشية ويقرأوه عليكم ويفهمون مضمونه . فإن كان يقنعهم ذلك فالله يبارك ، وإن لم يقنعهم فيرسلوا جماعة من طرفهم ليأخذوا الأمانة منا مشافهة) .

(وأما أنتم يا أخانا فيحتاج الحال أن تحاولوهم ولا تقسوا عليهم بشىء لا هم ولا غيرهم فإن الناحية التى أنت مقيم فيها تشكو منكم بسبب الحرم والسفه والشتيمة والضرب وكامل الذى أخبرناكم به فى جواب الوزير . فيحتاج الحال يا أخانا أن تحايل الجميع ولا يخرج من فيك إلى أحد بل البركة والدعاء الصالح ، وتهذيب أخلاقك معهم ، وتطول روحك عليهم فى كل الأمور لأن الكلام فى الدور الديانة والأمانة لا يكون بالفترسة (الفطرسة) والحروم بل يكون بالملاطفة والسياسة ، لأن أبانا القديس كيرلس ** لما تحرف أهل المشرق فى أمانتهم بسبب لغتهم وعدم فصاحتهم فى المنطق وذر به اللسان وعرف أبونا القديس أن انحرافهم بعدم المعرفة مال معهم فى رأيهم وعرفهم أن أمانتهم على الصحيح ولما ركنوا إليه وزال نفورهم منه صار أبونا القديس يجذبهم إليه قليلا وقليلا إلى أن عرفهم غلطهم فاعترفوا له بالشكر) .

وكان هؤلاء المطارنة المصريون دائما مثلا من أمثلة القيادة الصحيحة الواعية من أجل صحة العقيدة التى يحافظون عليها والتى هى أول مهامهم فقد قاد الأب سلامة الثانى حركة ترجمة ضخمة فى القرن الثالث عشر وقد أصبحت معظم الكتب التى ترجمت من العربية بدلا من القبطية أو اليونانية ، فروجع

(*) درج الأمانة يقصد به الخطاب الذى يحتوى على شرح العقيدة الصحيحة .

(**) القديس كيرلس الأول الذى اختلف مع نسطور بطريرك القسطنطينية فى مجمع أفسس الأول وأدى إلى حرمان نسطور وصحة عقيدة كيرلس .

الكتاب المقدس على النص العربى ونقلت كتب الطقوس وصحف الرهبنة وحياة القديسين والشهداء .

وقد استمرت حركة النقل بعد الأب سلامة . فكتاب الأجبية (خدمة القداس الكنسى) المعروف فى إتيوبيا باسم (ساعاتات) نقل فى منتصف القرن الرابع عشر وكتاب التجنيز ولبس الإسكيم (طقوس سيامة الرهبان) وحياة الرسل نقلت فى نهاية هذا القرن نفسه .

وفى أيام الامبراطور زرء يعقوب (١٤٣١ —١٤٦٨) استأنفت الكنيسة نشاطها كما ذكرنا ، فبثت رجالها فى القرى من أجل القضاء على الخرافات والمعتقدات الوثنية التى كانت منتشرة بين الأثيوبيين فوضعت بإرشاد الآباء المصريين والاتيوبيين متعاونين — الرسائل الدينية التى من شأنها تعليم الدين الصحيح كما استؤنفت حركة الترجمة التى كان يقوم بها فى العادة راهبان أحدهما مصرى والآخر اتيوبى فترجم من العربية (عجائب العذراء) ثم (عجائب العذراء ويسوع) وفى عصر لبنا دنجل (١٥٠٦ — ١٥٥٤) نقل كتاب المكين جرجس بن العميد الياس المعروف بابن العميد إلى الاتيوبية كما ترجم (رسالة الشيخ الروحانى فى الرهبنة) . وشرح رسائل العبرانيين ليوحنا ذهبى الفم وشرح الأناجيل لايونيسيوس .

وإذا كانت هذه الكتب قد أفادت الاتيوبيين فى حياتهم الدينية وساعدتهم على فهم دينهم ، إلا أن هناك من الكتب التى ترجمت ما أفادهم فى حياتهم المدنية إلى جانب الدينية وأثر فيها تأثيراً مباشراً طويلا استمر أكثر من سبعة قرون مثل كتاب (المجموع الصفوى) الذى ألفه صفى الدين بن العسال الذى كان كاتماً لأسرار المجمع المقدس وهو يبحث فى جزئه الثانى عما يجب أن

تقوم عليه العلاقات بين الأفراد المسيحيين فى كل شؤونهم الدينية ، وقد أعجب الاتيوبيين به إعجاباً شديداً دفعهم إلى ترجمته فى القرن الرابع عشر ولم يمض وقت طويل على تأليفه حتى اتخذوه فى بداية القرن الخامس عشر أساس حياتهم المدنية والدينية والناموس الذى يسيرون بمقتضاه فى حياتهم العامة والخاصة بعد أن أطلقوا عليه إسم (فتح نجست) .

ويعتز الأثيوبيون برابطتهم بالكنيسة المصرية اعتزازاً كبيراً ويظهر هذا الاعتزاز فى تكريمهم المطران المصرى . فما أن تأتى الأخبار بقرب وصوله حتى تصدر الأوامر من الملك بأن يستقبله حكام مقاطعات الحدود بكل مظاهر التكريم الرسمية ومعهم رجال الاكايروس . وكلما تقدم الموكب إلى العاصمة انضم إليه حكام المقاطعات التى يمر بها ومعهم بعض الجيش والأعيان والإكليروس . فما يكاد يهل الموكب على العاصمة حتى يكون قد وصل إلى عدد هائل من الرجال سواء من الرسميين أو المدنيين أو الإكايروس ويكون الإمبراطور وأسرته وحرسه ورجال دولته فى استقباله على مشارف العاصمة . فيقصد الموكب الكنيسة رأساً حيث يقام القداس الأول ولا يكاد ينتهى حتى ينثر الإمبراطور على رأس الحاضرين الذهب الكثير . وينتهز الفرصة فيهب أعيان دولته الرتب والألقاب وترفع على رأس المطران مظلة كبيرة حمراء مطرزة بخيوط الذهب تعادل مظلة الإمبراطور ويطلق تصرفه فى كل أموال الكنسية ويحرص الإمبراطور على زيارته فى مواعيد متقاربة بينما تحرص الإمبراطورة على زيارته يومياً إلتماساً لبركته . وهم يقدرون ما يبديه من رغبات ويعتبرونها أوامر واجبة التنفيذ .

وقد كتب كثير من الكتاب عن سر هذه العلامة التى استطالت ستة عشر قرناً والتى غلبت الزمن حتى غلبته وأرى أن ليس فيها سر يستعصى

على الباحث فهمه فهى علاقة بين شعبين يريان فى هذه الكنيسة رمزاً لقوة عليا هى التى تلهمهم الرشد فى الحياة بل تلهمهم الحياة نفسها .

هذا إلى أن الاتيوبيين رأوا فى الشعب المصرى وفى الكنيسة المصرية أخوة صادقة لاترمى إلى سيادة أو استعمار ولا خلق نوع من التبعية بين سيد ومسود،فهم لم يروا يوماً جيشاً مصرياً يتقدم إلى بلادهم غازياً مستنداً على ذراع الكنيسة بل وقفت الكنيسة دائماً فى صف الشعب تدافع عن استقلال بلاده على نحو ما سنبين فيما بعد .

وإذا كنا قد أطلنا فى هذه العلاقة الدينية بين هذين الشعب فإن ذلك لايمنعنا من أن نعود إلى وصف العلاقة بين الحكومتين بالرغم من كونهما مختلفتين فى الدين وهو أمر كان فى العادة سببا لتعكير هذه العلاقة بين دول أخرى لا سيما فى العصور الوسطى .

وإذا كانت العلاقة لم تنقطع قط بين الشعبين المصرى والأتيوبى فليس معنى ذلك أنها كانت دائمة وبصفة مستمرة بل أتت عليها أيام كادت تندثر فيها هذه العلاقة ولمدد طويلة لأسباب متعددة منها سوء المواصلات فى هذه الأيام المتقدمة مما كان يؤدى إلى طول المدة التى يستغرقها الوفد الأتيوبى للوصول إلى مصر لطلب المطران . أو اضطراب الأحوال الداخلية فى إتيوبيا مما يؤدى إلى تقاعس صاحب السلطة فى إرسال الوفد إلى مصر حتى تستقر له الأمور ولكن لاتكاد هذه الأزمة تمر حتى يبادر الأتيوبيون فيحاولون وصل ماانقطع . فقد حدث أن ضعفت الأسرة الملكية فى إتيوبيا فى أوسط القرن العاشر الميلادى حتى استطاعت أسرة جديدة هى الأسرة الاجوية الاستيلاء على العرش فى سنة ٩٤٠ م وكانت هذه الاسرة من مقاطعة لاستا شرقى بحيرة

طانا . ويبدو أن هذه الاسرة الجديده لم تستطع أن تفعل ذلك الابمعونة أصحاب الديانات القديمة ومنها اليهودية فقد جلست على العرش امرأة يهودية هى يهوديت اربعين سنة اتبعت فيها سياسة الاضطهاد للمسيحية وانصارها فخربت اكسوم وهدمت كنائسها وقطعت الصلة الدينية مع مصر ولكن عند وفاتها فى سنة ٩٨٠ جلس على العرش الامبراطور تكلا هيمانوت الذى لمس صعوبة اقامة عرش يهودى وسط دولة مسيحية فكتب إلى الملك جورج الثانى بن زكريا الرابع ملك النوبة (٩٦٩ — ١٠٠٢) أن يرسل له كهنة يستطيع بهم أن يعيد إلى المسيحية قوتها فأعتذر له الملك جورج عن هذا الأمر بأن كهنة دولته يأتون اليه من مصر ولكنه وعده بالكتابة إلى البطريرك فى مصر من اجل أخيه ملك اتيوبيا وفعل الملك ذلك فقدم إلى البلاد أبادانيال . وعادت العلاقة إلى ما كانت عليه .

وفى خلال حكم هذه الأسرة الذى استمر حتى سنة ١٢٦٨ . قامت فى مصر الدولة الفاطمية التى اضطهد خلالها الحاكم بأمر الله مسيحيى مصر وسمح لمن أراد منهم أن يخرج من البلاد إلى حيث يريد ، فخرج كثيرون إلى السودان واتيوبيا فرحب بهم الملك لاليبالا Lalibala سابع ملوك هذه الاسرة واستعان بمهرة الصناع منهم فى تشييد مجموعة من الكنائس كان معظمها محفورا فى الصخر (على مثال معبد أبى سمبل) ولم يكن يجيد هذا العمل وهو حفر المقابر والهياكل فى صخور الجبال سوى العامل المصرى الذى ورث هذا الفن عن اجداده من قديم الزمن ومازالت هذه الكنائس موجودة فى اتيوبيا فى مكان حمل اسم هذا الملك ـ ومازال الاتيوبيون يعتزون بها ويجدونها مفخرة لبلادهم ونجد كل كنيسة منها تبدأ بالاعمدة التى تسند المدخل الذى يقود إلى بهو تقام الاعمدة على جانبيه ثم إلى الحجرات الداخلية وهو نفس النظام

الذى ورثه المهندس المصرى فى بناء الهيا كل الفرعونية القديمة . ونجد أثر العلاقة وثيقة بين البلدين فى مظاهر شتى فلقد كان المصريون حتى العصر الفاطمى شديدى العناية بالاحتفال بعيد الغطاس وكانوا يطلقون عليه اسم (يوم الحميم) وقد وصف لنا المسعودى الذى زار مصر ايام الاخشيديين ليلة الغطاس فقال (حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس فى مصر والاخشيد محمد بن طغج قد أمر فأسرج فى جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ماأسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر فى تلك الليلة الاف من الناس من المسلمين والنصارى منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط يظهرون كل مايمكن اظهارة من المآكل والمشارب وللملابس وألات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف وهى ليلة تكون بمصر أشملها سرورا ولاتغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أنهم بذلك فى أمان من المرض).

وقد ورث الاتيوبيون عنهم هذه العادة واحتفلوا بهذا العيد أكثر من أى عيد مسيحى آخر حين يلبس الناس أحسن ملابسهم ويخرجون إلى حيث المطران والامبراطور ، وهناك يبارك المطران القسس والشعب والإمبراطور بنثر الماء المقدس عليهم حتى إذا أنتهت مراسم الاحتفال الرسمى وعاد المطران والامبراطور إلى قصريهما بقى القسس يغنون ويرقصون . ويكون قسيسو البلاد المجاورة قد قدموا من كنائسهم يحملون توابيت العهد التى تقام على المذابح ملفوفة فى لفائف من القطيفة المذهبة يحيط بها الشمامة فى ملابسهم المزركشة يرتلون وينشدون حتى إذا بوركت بمانثره المطران من الماء المقدس حملوها ثانية عائدين إلا قراهم مهللين مترنمين بأغانيهم وخرج صبيان القرية

يستقبلونها فيطوفون طرقات قريتهم حاملين الورود والازهار ويهدونها إلى أهلها وذوى قرابتهم .

وهنا لابد من تذكرة يسيرة بما كان يفعلة أهل غانا على نحو ما ذكرناه من قبل وظلت هذه العلاقة وثيقة فى العصر المملوكى أيضاً يتحكم فيها أربعة عوامل .

١ ــ عامل دينى : وهو بنوة الكنيسة الاتيوبية للكنيسة المصرية وضرورة تعيين المطران المصرى للكنيسة الاتيوبية ورعاية الكنيسة المصرية للكنيسة وتسهيل سفر الحجاج الاتيوبيين إلى بيت المقدس .

٢ ــ عامل حيوى وهو وجود منابع النيل بأتيوبيا وقد تصور سكان مصر آنذاك أن إتيوبيا تستطيع التحكم فى هذا المورد وتحويله عنهم وتصوروا أن الفيضان المنخفض ليس إلا نتيجة محاولة الامبراطور تحويل مجرى النيل .

٣ ــ عامل تجارى فقد كانت إتيوبيا مقصدا لكثير من التجار المصريين يحملون إليها المتاجر المصرية ويجلبون منها الكثير من الرقيق الذى حفلت به بيوت كثير من المصريين فى ذلك الوقت علاوة على الذهب والجلود والعطور وسن الفيل وريش النعام ولما كان أغلب هؤلاء التجار من مدينة نقاده بمديرية قنا (وتنطق نجاده باللهجة الصعيدية) عرف هؤلاء التجار بأنهم نجاده وسرعان ما اصبحت هذه الكلمة لقبا لكل التجار سواء كانوا من المصريين أو غيرهم . وأصبح معناها فى اللغة الأمهرية (تاجرا) .

٤ ـ عامل أخوى : فقد كان مسيحيو مصر ينظرون إلى الاتيوبيين نظرتهم إلى أخوان لهم فى الدين يستطيعون أن يجأروا إلى ملكهم بالشكوى إذا مسهم ظلم ، وأن امبراطور إتيوبيا بماله من القوة يستطيع أن يتدخل

لوقف هذا التيار وكثيراً ما كان الإمبراطور يكتب إلى سلطان مصر فى أمر هؤلاء المسيحيين . كما كان يسكن إتيوبيا كثير من المسلمين الذين نظروا أيضاً إلى مسلمى مصر كإخوان لهم فى الدين ايضاً ، يستطيعون أن يجأروا اليهم بالشكوى إذا ماتعرضوا لشىء من الضيق أو الإعنات وأن سلطان مصر القوى قادر بجيوشه واسطوله أن يتدخل لنصرتهم وشد ازرهم .

ولذا كان تبادل الرسائل بين امبراطور إتيوبيا وسلطان مصر أمراً كثير الحدوث حتى ليحفظ لنا ديوان الإنشاء فى القاهرة صيغا خاصة لما كان يرسله السلطان من رسائل إلى الإمبراطور فلا بد أن تبدأ هذه الرسالة كما جاء فى الجزء الثامن من صبح الأعشى وهى :

(أطال الله بقاء الحضرة العليه . الملك الجليل ، الهمام الضرغام ، الأسد الغضنفر ، الخطير الباسل ، المسيدع ، العالم فى ملته ، العـــادل فى مملكته ، المنصف لرعيته ، المستمع لما يجب فى أقضيته ، عز الملة النصرانيه ، ناصر الملة المسيحية ، ركن الأمة العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحواريين والأحبار ، الربانيين والبطاركة والقديسين ، منظم كنيسة صهيون ، أوحد ملوك اليعقوبية ، صديق الملوك والسلاطين (ثم يدعى له بدعاء يليق به) (أظهر الله فضله على من يدانيه) من ملك هو بالتاج مغتصب وتلف اللجاج بالعدل منتصب ، ولقطع حجاج كل معاند بالحق مقتصر ، أو للحق مغتصب ، صدرت هذه المكاتبة إلى حضرته العلية ، ومن حضرة القدس مسراها ، ومن أسرة الملك القديم مسراها ، وعلى تلك السريرة الصافية ترد وإن لم يكن غليل ، وإلى ذلك الصديق الصدوق المسيحى تصل وإن لم تكن بعثت الأمن تلقاء الخليل) .

ولابد أن ينتهى الخطاب بالتوقيع وهذا مثل له —

(أطال الله بقاء الملك الجليل المكرم الخطير ، الأسد الضرغام ، الهمام الباسل فلان ابن فلان ، العالم فى ملته حضرة الملك أمحرا ، أكبر ملوك الحبشان نجاشى عصره ، سند الملة المسيحية ، عضد دين النصرانية ، عماد بنى المعمودية صديق الملوك السلاطين) .

والكتب التى تبادلها ملوك إتيوبيا مع سلاطين الدولة المملوكية تبين بجلاء أحد أو بعض هذه الأغراض التى ذكرناها ، ففى شهور محرم من سنة ٧٢٦ ه (١٣٢٤ م) وصل إلى السلطان محمد بن قلاون خطاب من الأمبراطور عمدا صيون (١٣١٢ — ١٣٤٢) يطلب فيه تعمير الكنائس التى خربها المسلمون ، ومعاملة المسيحيين معاملة أكثر رعاية وهـــدده فى حالة الرفض بتخريب جميع المساجد التى توجد فى مملكته وبتحويل مجرى النيل ، الأمر الذى سوف يؤدى إلى خراب مصر خرابا كليا .

أما الكتاب الذى أرسله الامبراطور داود (١٣٨٢ — ١٤١١) إلى السلطان برقوق فقد حوى جميع هذه الأغراض مجتمعة فهو :

١ — يعلن إليه نبأ اعتلائه العرش الإتيوبى .

(نعلمكم بعد تجديد السلام عليكم أنه لما أراد الله تعالى برحمته ومشيئته وأحكامه غير المدروكة . جلوسنا على كرسى الملك . وتقليدنا أمور المملكة . واتفاق سائر الملوك والأمراء ومقدمى الدولة والوزراء وكل جيوش وعساكر السلطة العظيمة النجاشية . فجلسنا على كرسى الملك الموروث من داود الملك لسليمان ابنه عليهما السلام) .

٢ — وينهى إليه ما يفعله لصالح رعاياه من مسلمين ومسيحيين .

(ثم نظرنا إلى أمراء الرعية . وأمرنا باطلاق المحابيس والمأسورين . وفتحنا أبواب السبيل للتجار والمسافرين . وأمعنا النظر فى مصالح بلادكم وفى

الوصية بأولادكم التجار والكارمية[1] وغيرهم فى البر والبحر. وأمرنا بتجهيز الغلال وحملها إلى السواحل الإسلامية. كما سبقت به العهود للملوك المتقدمين ببلادنا وبلادكم. وخاصة من الملك الشهيد الأكمل عمدا صيون جدى وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون من المحبة والاتفاق) .

(وهؤلاء القوم (يقصد المسلمين) هم مقيمون ببلادنا راضون غير مكرهين وكانوا فقراء وصاروا تجار يتجرون ويمشون شرقاً وغرباً من غير جزية ولا حق ولا مكس يطالبون به. بل هم أكثر عن أهل البلاد يكرمون. ومن اختار منهم الإقامة ببلادنا فلا نمنعه من ذلك فيكون منهم بالرضا وبالرغبة الشافية. أما إحساننا لجماعة المسلمين فى كل وقت وحين فهذا ظاهرة للعارفين) .

٣ — ويطالب بحسن معاملة المسيحيين فى مصر :

(وانتم تعاملون الرعية وأهل الذمة بضد ذلك حتى أيام والدى الملك الأعز سيف أرعد الذى أرسل رسله مع الهدايا إلى السلطنة الشريفة الإسلامية والديار المصرية لما سمع انكم تضرون أبانا البطوريك وأخوتنا النصارى والأكابر والمشايخ الذين فيها. وكتبنا لأجل الوصاية الأكيدة على أبينا البطريرك وأخوتنا النصارى فى الديار المصرية بما حوته الأقاليم الإسلامية وإجرائهم على عوائدهم القديمة ومراعاتهم وإكرامهم ورجوع كنائسهم وأديرتهم التى أخذتموها وجعلتموها مساجد وهذا بخلاف ما أمر به صاحب شريعتكم من حفظ الذمة فإن كنتم تقرونهم على عوائدهم بين الملوك المتقدمين من حفظ كنائسهم وأرزاقهم وأموالهم وركوبهم معتدلا كجارى العوائد القديمة وحفظهم ما سألناكم فيه) .

(١) يقصد الكانمية وهم أهل كانم فى نيجيريا .

٤ — ويهدد بتحويل مجرى النيل وسوء معاملة المسلمين فى أتيوبيا :

(ومهما فعلتوه مع أبينا البطريرك وإخوتنا النصارى من الخير والشر فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين الذين فى حوزتنا وفى سلطاننا وأنتم مطالبون بما يأتيهم) .

(فإذا سمعنا أنكم فعلتم هذا جميعا مع إخواننا النصارى فنحن نوصى بالمسلمين الذين تحت سلطاننا والصادرين والواردين من عندكم والى - والعياذ بالله تعالى - حصل لأبينا البطريرك وإخوتنا النصارى جورا من قبلكم أو من جهة الذين يرمون الفتن بين الملوك فليس علينا لوم فيما يصدر لنا لسائر الأقاليم الإسلامية الذين تحت سلطاننا وإلى البلاد المصرية من قطع بحر النيل المبارك وتوزيعه إلى أقاليم أخرى كما أعلمناكم فى أعلى كتابنا ومهما يحل بكم يكون الذى كان السبب فيه مطالبا بدمائهم) .

٥ — ويطالب برعاية الحجاج الإتيوبيين الذين يقصدون بيت المقدس :

(وقد بلغنا من المترددين ان جماعة من إخواننا الحبوش توجهوا إلى الديار المصرية قاصدين القدس الشريف للتبرك به وجماعة من رسلنا أيضا فخاصمهم عبيد التجار الكارمية وغيرهم وأخذوهم باليد الغالبة ليعطوهم مسلمين وهذا غير واجب فى الشريعة ولاجرت به عادة فى زمن المسلمين السالفين) .

ولم يفت الإمبراطور داود أن يرسل مع خطابه هذا هدية كانت مضرب المثل فى الكثرة ، حملها عشرون جملا وكانت قدورا من الذهب مملوءة بحبوب صغيرة تشبه الحمص من الذهب الخالص ويبلغ كيلها ويبة كاملة. ومائة وخمسين رطلا من الذهب الخالص وعشرون سقرفا وتسع وعشرون سكرجا ومغزل. وعشرون لجاما وأربعون قلادة ومائة قدر صغير ومعها أغطيتها وخمسون صينية كلها

من الذهب عدا مغزلين . وثلاثمائة سكرجة وصينية أخرى من الفضة وقد بلغ وزن الأوانى الذهبية وحدها تسعا وعشرين ألفا ومائتى مثقال .

وقد قوبلت هذه الهدية كما قوبل الوفد والخطاب أحسن قبول وأجاب بقبول كل ماطلبه الامبراطور وكتب إلى البطريرك برد جميع ما أخذ من أديرتهم وكنائسهم وأموالهم ثم جهز هدية مما خف حمله وغلا ثمنه وأرسلها إلى إتيوبيا رداً للهدية السابقة .

وكانت الوفود تأتى من إتيوبيا سواء لطلب المطران أو لحمل خطابات الرد فتستقبل بما يليق بمرسلها من التبجيل والاحترام فقد ذكر ابن إياس فى حوادث سنة ٨٢٢ هـ) أنه وصل إلى بلاط السلطان رسول من ملك الحبشة فاستقبله السلطان جالساً على منصة فى أرض الرماية محاط بالأمراء عن يمينه ويساره كل حسب رتبته ووصل الرسول ومعه الأمير زيمور والمهمندار وعدد كبير من المماليك وكان يتبعه خمسة من أمراء الأحباش وكان على رأسه عصابة حمراء من الحرير موشاة بالذهب والأحجار الكريمة وفى وسطها لؤلؤة كبيرة غالية الثمن وعلى كتفيه عباءة من الحرير الأحمر ، ومن يتبعه كان يلبس نفس الملابس ورءوسهم معصوبة بمناديل حريرية كبيرة وتتكون الحاشية من خمسمائة كلهم ممنطقون بالأحزمة الشبيهة بتلك التى يلبسها المسيحيون فى مصر. وأثناء سيرهم كان الطبل المحمل على جملين يقرع وصحب البطريرك هذا الموكب حتى إذا صعدوا أرادوا الجلوس على كراسى صغيرة من الحديد أحضروها معهم . ولكن الأمراء نهوهم عن ذلك وأفهموهم أن الجلوس فى حضرة السلطان ممنوع ثم تقدم السفير وقبل الأرض مرة ثم أخرى عند مبدأ السجادة وفعل الأمراء التابعون مثل ما فعل وقدموا الخطاب الذى يحملونه) .

(وقد أمر السلطان بإكرامهم وإنزالهم منزل الضيافة الذى يقع بجوار السرادق عند جسر الأسود وأمر بالقيام بخدمتهم وحراستهم بشرذمة من المماليك أمرهم أن يمنعوا الناس من الدخول عليهم أو الاقتراب منهم وبعد ثلاثة أيام رحل الوفد إلى القدس لزيارة كنيسة القيامة) .

وقد حاول الامبراطور زرء يعقوب كذلك أن يديم علاقات الصفاء والود بين الدولتين رغبة منه فى جنى ثمار التعاون الاقتصادى فبادر فى سنة ١٤٤٣ (٨٤٧ هـ) بارسال هـــدية إلى السلطان جقمق (٨٣٨ – ٨٥٨ هـ) وصلت إلى مصر فى الثامن والعشرين من رجب مع رسولين أحدهما مسيحى والآخر مسلم وكانت سبعين جارية وطستا وأبريقا من ذهب وسيفا مسقطا بذهب ومهمازاً ومعها خطاب .

١ — يشيد فيه بمدح السلطان وعدله وحسن إدارته :

(وقد اتصل إلينا جميع أخباركم ـ انكم حفظكم الله تعالى ـ قد أمرتم بإبطال المظالم من سائر المعالم وردعتم القوم الظالمين ورفعتم أسباب المضرات من الرعايا لكل البلاد والأقاليم وعقدتم عن من له حرمة وأبعدتم آثار المفسدين ورحمتم ذوى الفاقه من الفقراء والمساكين) .

٢ — ويشيد بما كان يربط إتيوبيا ومصر من علاقات الود المتبادل :

(وقصدنا تجديد ماسبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادكم اتباعا لآثارهم المشكورة وقصدنا إعلامكم بشارة لكم ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف والاتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف وأخر ذلك ما كان من أيام الشهيد برقوق ونجله الناصر سقى الله عهدهما صيب الرحمة وأيام والدنا وجدنا من المحبة الاتفاق على ما ظهرت به الصحائف من أخبارهم الحميدة وسيرهم المرضية) .

٣ — ويوصى خيرا بمسيحيى مصر ويطلب حسن معاملتهم :

(وأنتم — حفظكم الله — عارفون بما يلزم الراعى من النظر فى حال رعيته وأن الله يطالبه بذلك ، وأبونا البطريرك وإخوتنا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة ، نفر قليل جداً ضعفاء الحال مساكين فى كل الجهات، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا وأنتم تأمرون بالنداء ان لا يقول أحد للنصرانى يا كلب) .

٤ — ويبدى ما يعمله من خير لمسلمى إثيوبيا :

(وليس يخفى عليكم فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، ونحن لهم ولملوكهم مالكون . ولم نزل نحسن لهم فى كل وقت وحين ، ومن تقدم من أبائنا وأجدادنا لم يزالوا بهم متوصين ولأنفسهم وما لهم حافظين سامعين لأقوالهم رادعين من يتعرض لهم. ونحن على ما كان عليه أباؤنا سالكين فى طريقهم غير معترضين لإقامة مساجدهم ولا إلى أيام أعيادهم وأيام مواسمهم ، وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب . راكبين الخيول المسوقة . وعامتهم فى أسبابهم آمنون مطمئنون على أنفسهم وأموالهم راكبون البغال فى أحسن الأحوال . لا نأخذ منهم جزية ولا شيئا قليلا ولا كثيراً ولا نشوش عليهم أصلا. ولو أخذنا منهم جزية وكان كل واحد يزن درهما لكان يجتمع لنا من الأموال ما لا يحصى ، وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا التجار والمترددين إلى بلادنا ليخبروكم بذلك بالحق والصدق ومن نقل إليكم غير ذلك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمى الفتن التى هى أشد من القتل عند العارفين) .

٥ — ويهدد بتغيير مجرى النيل .

(وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر اليكم من بلادنا ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التى تروى بها بلادكم عن المشى إليكم لأن لنا بلاد انفتح لها أماكن قوقانية ينصرف منها الماء إلى أماكن أخرى قبل أن يجيء إليكم ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله والمشقة على عباد الله) .

٦ — ويطلب السماح للاثيوبيين بتعمير الأوقاف الخاصة بهم فى القدس .

(وقد بلغنا أن دير الفطس هدم وهو من أيام الملوك السابقة ومن احسانكم بروز أمركم الشريف بعمارة ذلك ونحن مقيمون على العهد القديم) .

(وبلغنا من الحبوش القاطنين بالقدس الشريف أنهم قصدوا عمارة بالأرض لميت مدفون فيه ومنعهم من عمارته نائب السلطنة هناك ، والقصد من عظمة سلطانكم بروز أمركم لنائب القدس أن يرسم للحبوش بعمارة ذلك) .

على أن بعض حكام مصر لا سيما فى عصر المماليك كانوا يضيقون بهذه العلاقة خوفا من تسرب أخبار سوء معاملتهم للمسيحيين فى مصر إلى إثيوبيا فكانوا يمنعون البطريرك من الكتابة إلى ملوك إثيوبيا أو النوبة إلا بعد إطلاعهم على هذه الكتب فقد روى السخاوى أنه (فى يوم الإثنين والعشرين من شعبان سنة ٨٥٢ هـ عقد مجلس بين يدى السلطان يوسف بن برسباى جقمق بالقضاة الأربعة وغيرهم منهم الشيخ بدر الدين العينى نسيب بطريرك النصارى اليعاقبة وكان السلطان قد غضب عليه وضربه وحبسه فى سجن المقشرة وأخذ منه مالا كثيرا فأمر بكتابة إشهاد عليه أن لا يكتب إلى ملك إثيوبيا بنفسه ولا بوكيله لا ظاهرا ولا باطنا ولا يولى أحدا على بلاد إثيوبيا لاقسيسا

ولا أعلى منه ولا دونه ، الا بإذن من السلطان ، ووقوفه على كتابة وأنه متى خالف ذلك وانتقض عهده ضربت عنقه . وحكم قاضى المالكية بذلك ونفذ بقية القضاة ثم قرىء الاشهاد بين يدى السلطان والجماعة ورسم بكتابة خمس نسخ منه لتكون عنده واحدة وعند كل واحد من القضاة نسخة ، وانفض المجلس على ذلك .

و — مصر طريق الاسلام

إلى النوبة وغرب أفريقيا

أما من ناحية النوبة فقد أخذت المسيحية ومعها ممالك النوبة تضعف من جراء من هاجر إليها من القبائل العربية ومزاولتهم لطقوس دياناتهم دون ما تدخل من الدولة مطلقا فقد حدثنا ابن سليم الاسوانى الذى أرسله المعز لدين الله الفاطمى إلى الملك جورج الثانى (٩٦٩ — ٩٧٩م) أنه حمل إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام فلم يستجب له وأنه شاهد المسلمين وهم يحتفلون بعيد الأضحى باقامة المهرجانات والاحتفالات كما يذكر أن المقربين من الملك حاولوا منع هذه المواكب فلم يستجب لهم الملك . وكان الكثير من هذه الهجرات قادمة من مصر ، على أن هناك بعض العوامل التى أدت إلى هذا الضعف أيضا فقد شهدت الدولة الفاطمية قيام إمارة عربية إسلامية اتخذت مدينة أسوان مركزاً لها وامتد نفوذها إلى النوبة وخضع لها هؤلاء النوبيون الذين ضعف سلطان ملوكهم عن أن يهيأ لهم الأمان وكان زعيم هذه الدولة ينتمى إلى قبيلة ربيعة وهو أبو مروان بشر بن اسحق وقد اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الإمارة حين استعان الحاكم بأمر الله بأميرها أبى المكارم هبة الله فى القبض على أحد الخارجين عليه وهو أبو ركوة فكافأه الحاكم بلقب (كنز الدولة) وتوارث ابناؤه هذا اللقب وعرفوا (ببنى كنز) وتمتد قراهم من أسوان إلى كورسكو وظلت هذه الدولة على ولائها للفاطميين وقاومت صلاح الدين الأيوبى حين أرسل أخاه توران شاه الملقب بشمس الدولة لأخضاعهم فاستولى على إبريم وخرب كنيستها وقبض على مطرانها وأهانه وأسر كثيرا من النوبيين ، وأرسلت إليهم

حملة أخرى بقيادة للملك العادل أخى صلاح الدين نجحت فى هزيمة كنز الدولة والقبض عليه وقتله فكان أن رحل بنو كنز نحو الجنوب واستقروا حول وادى حلفا .

وفى أيام الدولة الايوبية والمماليك كانت ميناء عيذاب على البحر الأحمر من انشط موانى مصر وكانت سببا فى خراب سواكن وماحولها من موانى النوبة بسبب الضيق الإقتصادى الذى عاشت فيه الممالك المسيحية هناك مما دفع بالملك داود ملك النوبة إلى غزو عيذاب سنة ١٢٧٣ م ولكن الظاهر بيبرس أرسل حملة كبيرة تمكنت من صد الحملة النوبية وكانت هذه الحمله بداية الصراع المملوكى النوبى الذى أنتهى بالقضاء على الممالك النوبية المسيحية .

وكان ضعف ملوك النوبة قد أدى إلى انقسام الأسرة المالكة بين عدد من الأمراء المتنافسين على العرش ولجأ كل منهم إلى حليف قوى ينصره .

وفى سنة ١٢٧٥ لجأ أحد الأمراء المتنافسين المسمى شكندة إلى الظاهر بيبرس يطلب نصرته على ابن أخيه الملك داود ، فنصره وأرسل له حملة ثانية ضمت ثلاثمائة فارس بقيادة الأميرين سنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم سارت معه إلى النوبة وخربت حصون داو وسوسى ودنقله وأجلسته على العرش. وكان ثمن هذه المساعدة معاهدة جعلت من شكندة تابعاً للملك الظاهر بدفع اليه جزية سنوية هى نصف دخل دولته إلى جانب عدد من الزراف والثيران والفيلة كما يتعهد بجمع الجزية من كل ذكر بالغ من سكان دولته ويرسل بها إلى مصر وفوق ذلك أن يتعهد بأقامة (وكالة سياسية) فى دنقلة يقيم فيها نائب للسلطنة المملوكية لمراقبة جمع الجزية وأكثر من هذا تنازل شكندة عن ميناء سواكن لمصر كما جعلت قلعتى الدر وأبريم خاصتين بالسلطان ومعنى هذا امتداد الحدود المصرية حتى شملت النوبة الشمالية كلها . أما جنوب ذلك فأصبح مناصفة بين

الملك والسلطان ، وأنشأ الظاهر بيبرس من أجـل ذلك (ديوان النوبة) بالقاهرة تحت إشراف بهاء الدين بن حنة لمراقبة وصول الجزية النوبية . وقد تردد صدى ذلك فى الجنوب مما أثار رعب مملكة علوة حتى إذا لجأ اليها الملك داود قبض عليه ملك علوة وأرسله إلى الظاهر فى القاهرة حيث اعتقل إلى أن مات .

وقتل شكندة فى العام التالى ورفض الملك الجديد سمعان الأستمرار فى فى تنفيذ المعاهدة فأرسل اليه السلطان قلاوون حملة فى سنة ١٢٨٦ بقيادة الأمير سنجر المسرورى والى القاهرة والأمير عز الدين الكورانى وانضم اليها عربان قوص ووصلت إلى الأطراف الشمالية للنوبة فلم يملك سمعان إلا الإنسحاب إلى الجنوب بعد أن أمر باخلاء البلاد . وعند دنقلة دارت الموقعة وهزم سمعان ففر نحو الجنوب فاقيم ملك نوبى مكانه وإلى جوارة أمير مملوكى لحمايته مستندا إلى حامية مملوكية تستقر هناك .

ولم تكن هذه الحملة الوحيدة التى ارسلها السلطان قلاوون بل كانت إحدى أربع حملات متواليه كان الملك سمعان يقابلها دائماً بالهرب إلى الداخل ثم العودة بعد عودتها ليستعيد العرش . وكان ملك النوبة الموالى لمصر يصحب هذه الحملات فى تقدمها لمطاردة الملك سمعان ولكن هذه الحملات كانت ولا شك سبباً فى خراب البلاد . فقد أحرقت دنقلة وغيرها من البلاد الصغيرة وكانت أخر هذه الحملات فى سنة ١٢٩٠ وانتهت كسابقها بتتويج ملك جديد أقسم على طاعة السلطان المملوكى وتعهد بإرسال الجزية إلى مصر بينما عادت الحملة محملة بالغنائم .

ولكن الحامية المصرية التى تركها هناك لم تمنع سمعان من أن يعود ويسترد العرش بعدأن قتل الملك النوبى المنافس وقبض على قائدالحامية المملوكية

وأرسله إلى قلاون وسيطا يطلب الصلح ووقع معاهدة بذلك .

وتابع خليل بن قلاون سياسة أبيه فى محاولة نشر النفوذ المصرى فى النوبة ويساعده فى ذلك ما كان من أمراء النوبة من خلاف واستنجاد بعضهم بمصر وأخيراً قامت حملة فى سنة ١٢٩١ بقيادة الأمير أقوم نجحت فى إحلال ملك نوبى جديد مكان الملك سمعان الذى هرب إلى الجنوب كالعادة . ولكنه مات فى تلك السنة وهو فى المنفى .

ولم يمنع وقوع الملك الجديد تحت حماية مصر من قيام المنافسين له . وكان طالب المعونة من مصر بع وعد بالجزية بل اعتناق الإسلام هو الوسيلة الوحيدة لذلك ، فقد قتل كدنبس الملك أماى فى سنة ١٣١٢ وجلس على العرش فهرب أمير آخر قد يكون من عائلة الملك المقتول وهو عبد الله بن شامبو إلى مصر يلتمس مساعدتها بل بقى فى مصر وتعلم بها واعتنق الإسلام فأرسله الناصر بن قلاون على رأس حملة جديده فى سنة ١٣١٦ فر امامها كدنبس فأجلس عبد الله بن شامبو على العرش النوبى تابعاً لمصر فكان أول ملك مسلم يتولى عرش هذه البلاد ولكن الناس لم يلبثوا أن ثاروا عايه وقتلوه فى سنة ١٣١٧ وأقاموا مكانه كنز الدولة الذى كان ابن أخت كدنبس فلم يقم على العرش طويلا بل أجلاه عنه كدنبس .

وكان ابرهيم أخو كدنبس قد قدم إلى النوبة مصطحبا الحملة الجديدة التى أرسلها خليل الذى كان قد وعده بعرش النوبة وبذلك أصبح اعتناق الإسلام هو الضمان الوحيد لبقاء الملك على العرش النوبى مستندا على التأييد المصرى فشجع الملك الجديد القبائل العربية التى تسكن الأقاليم المجاوره لمملكته على القدوم اليها وسكناها فدخلت هجرات سلمية متتابعة استقرت وقويت حتى أصبح نفوذها أكبر من نفوذ الملك فكانت هذه القبائل العربية المسلمة

عاملا مهما لا فى القضاء على المملكة المسيحية نفسها ، بل ايضاً فى القضاء على المجتمع النوبى إذ حولته من مجتمع زراعى مستقر إلى مجتمع رعوى بدوى تلتف كل جماعة منهم حول زعيم ، وانتفت الوحدة التى كانت تربط جماعات هذا المجتمع فلم تكن القبائل العربية التى قدمت إلا عاملا هداما لكل من المجتمع والدولة وأخذت الدولة تفقد طابعها المسيحى المتحد .

وكانت جهينة وحلفاؤها من فزاره اشهر القبائل المهاجرة وبلغ من نفوذها أن لجأت إلى طبقات المجتمع النوبى العليا بل إلى الملوك لمصاهرتهم وبذلك انتقل الملك فى بلاد النوبة السفلى إلى بعض أبناء جهينة عن طريق أمهاتهم طبقاً لنظام الوراثة النوبى وهذا لا يعنى فناء المسيحيين فالراجح أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر كانت ولا تزال فى مملكة النوبة بقايا من المسحيين حتى من أسلم منهم ظل محتفظا بكثير من الأسماء والعادات المسيحية .

ورغم اتحاد العقيدة بين ملوك علوة وملوك النوبة فإن الأولين لم يحاولوا نصرة أخواتهم فى الشمال كما كان ملوك إتيوبيا أيضا . إذ كان العرش الأتيوبى قد انتقل إلى أسره جديدة هى الأسرة السليمانية وكانت لها من مشاكلها الخاصة مع المسلمين ما أعجزها عن مساعدة غيرها .

وتجمع الروايات التاريخية على أن نهاية مملكة علوة لم تبتعد عن هذا الوقت كثيراً فقد أتت إليها القبائل العربية من الشرق تكتسح البلاد ناهبة سالبة مما اضطر ملوك علوة إلى الهجرة إلى كردفان وتركت علوة وأهلها فريسة لهؤلاء القادمين من الشرق . ولم تلبث أن قامت سلطنة الفونج الإسلامية فى سنار .

• • •

فى غرب أفريقيا كان العلماء المصريون موضع التقدير من جميع سلاطين أفريقيا المسلمين فكانوا إذا رأوا واحد منهم — وكثيرا ما كانوا يصحبون القوافل فى الأراضى المقدسة — طلبوا منهم أن يسافروا معهم حيث يستقرون فى بلادهم . فأقبلوا عليهم وقربوهم وأجزلوا لهم العطاء من أجل أن يولوهم بعض المراكز الهامة فقد وجد ابن بطوطة ابن البرهان المصرى يتولى منصب القضاء فى مقديشو كما وجد شمس الدين ابن النقويسى المصرى يتولى منصب كبير الحجاب فى مالى أيام السلطان منسى سليمان فكان لا يدخل أحد إلى هذه الدولة إلا بإذن منه وكان يتولى الإشراف على راحة الغرباء حتى يرحلوا كى يكونوا موضع الرقابة منه .

وقامت مصر بنصيبها فى نشر الإسلام فى المغرب فقد وفد المذهب المالكى من مصر إلى القيروان كما وفدت المذاهب المصرية الأخرى فى الوقت الذى رحبت فيه مصر بكل من يقصدها من أهل المغرب والسودان وإثيوبيا والصومال فى طلب العلم إذ يذكر ابن بطوطة أن أسد بن الفرات العالم المشهور فى تاريخ أفريقيا رحل إلى مصر وسمع من على بن القاسم أمام المالكية فى مصر فتأثر به ، رغم أن أسد بن الفرات كان حنفيا . وقد دون خلاصة مشاهدته وتجاربه فى كتاب فى تاريخ الفقه الإسلامى عرف باسم (الأسدية) حاول فيه أن يوفق بين تعاليم ابن مالك وأبى حنيفة فأزداد الناس معرفة بابن مالك عن ذى قبل وقد ذكرنا أن سحنون بن سعيد قدم إلى مصر ليسمع أيضا على ابن القاسم وأقام فى الفسطاط زمنا حتى تشرب المذهب المالكى . فكان أن تمكنت تقاليد هذا المذهب فى المغرب الأقصى وأصبح مذهب الدولة الرسمى .

ومنذ القرن الحادى عشر أصبح الأزهر مقصد جميع الطلاب المسلمين

الأفريقيين حيث يجدون العلماء والمبرزين فى كل علم إسلامى بل يجدون الرعاية والأرزاق مما أوقفه السلاطين فأنشئت به الرواقات المختلفة لتضم المسلمين فأنشىء بها رواق الزيالعة ليضم مسلمى إثيوبيا ورواق المغاربة ليضم من قدم من أهل المغرب وكان بعض هؤلاء العلماء يعودون إلى أوطانهم وبعضهم يفضل المكث فى مصر حيث يجدون رزقا هينا فقد مكث عبد الله الزيلعى فى مصر ليحتل مكانا مرموقا فى مصر .

وكان الأسطول المصرى خلال الدولتين الفاطمية والأيوبية وكذلك دولتى المماليك البحرية والبرجية ينشر النفوذ المصرى على طول الساحل الشمالى الأفريقى حتى جبل طارق وعلى طول البحر الأحمر حتى باب المندب فخضع البحر الأحمر بضفتيه للنفوذ المصرى وكان من أثر ذلك أن سكن كثير من المصريين الساحل الإثيوبى واشتغلوا بالتجارة فكانوا سببا فى انعاش تجارتها لفترة طويلة حرص فيها أباطرة إثيوبيا على حسن رعايتهم .

ومن البلاد الأفريقية التى اتصلت بمصر ايضا بلاد كانم وهى فى نيجيريا الحالية وعرف أهلها بالكارمية وأهل غرب أفريقيا بالتكرور ولا بد أن بعضا منهم سكنوا فى مصر ومازلنا نجد من بقاياهم اسم بولاق الدكرور وأصلها التكرور . وقد انتقل إليها التجار وخاصة من مصر حيث أقاموا المتاجر فى مختلف أقاليمها وكان تجارها يفدون إلى مصر أثناء سفرهم إلى حج بيت الله الحرام وهم يحملون النطرون والياقوت والزبد والجلود وسن الفيل والذهب والرقيق وريش النعام وجاء فى مصادرهم المحلية اسم البنان الجلالى وهو مصرى كما جاء بها أيضا أن اثنين من سلاطين الكانم توفيا بمصر وهما فى طريقهما إلى الحج ، أولهما السلطان أمى جلمه (١٠٨٥ — ١٠٩٧ م) وقد زارها ثلاث مرات ، ومات فى الأخيرة منها وكان يترك فى كل مرة ثلاثمائة من

الرقيق أى أنه ترك تسعمائة نفس وقد ساور المصريين الخوف من بقاء هذا العدد مخافة أن يحدث بها انقلاباً لصالح سلطان كانم .

ويذكر المقريزى أن أحد سلاطين كانم بنى بالقاهرة مدرسة فى سنة ١٢٤٢ م (٦٤٠ هـ) لتدريس الفقه على المذهب المالكى وعرفت هذه المدرسة بمدرسة ابن رشيق زودت بغرف لكافة المسافرين من الكانم والتكرور .

وذكر القلقشندى أن السلطان أبو عمر عثمان بن الحاج أدريس أرسل قريبا له يدعى ادريس بن محمد كرسول إلى السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق وذلك فى ١٣٩٢ ومعه كتاب شكى فيه من قبيلة جذام لعدوانها على أهل بلده ومنهم من ينتمى إلى أسرة السلطان واسترقوهم وقتلو عدداً منهم وكان من بين القتلى أخوه من أبيه عمر وطلب من الامراء والوزراء والقضاة غيرهم أن يفتشوا الأسواق للبحث عن هذا الرقيق الذى أخذ من الكانم ويخلى سبيلهم .

الكتاب الثالث

العصر الحديث

انكماش العلاقات المصرية
الأفريقيـــة

العصر الحديث

وأهل العصر الحديث على مصر ولم يحمل لها إلا شرا فلم تمض تسع سنوات من القرن السادس عشر حتى هزم أسطول البحر الأحمر المصرى متعاونا مع أسطول البنادقة أمام الأسطول البرتغالى فى ديو بالقرب من الهنـــد وعاد الأسطول إلى قواعده ملطخا بالعار . وأصبح الأسطول البرتغالى سيد المياه الهندية . واحتكر البرتغاليون تجارة الهند واقفرت موانى مصر والشام مما كان يرد إليها من توابل ومنتجات الهند حتى اضطر السلطان الغورى إلى زيادة الضرائب على الأهالى . فزاد بؤسهم بؤساً ولم تمض سبع سنوات أخرى حتى قدم السلطان التركى سليم الثانى وفتح الشام وانساب إلى مصر وقضى على الاستقلال المصرى وأصبحت مصر دولة تابعة بعد أن كانت متبوعة . ولم تضع منها سيادتها فحسب بل ما كانت تتمتع به من سيادة على الشام والحجاز واليمن . وحرمت خيرة بنيها من الصناع المهرة حين حملهم السلطان سليم إلى القسطنطينية . ونصب خير بك والياً عليها . فكان من الطبيعى أن تصبح وجهتها إلى حيث يتجه سادتها الجدد ، إلى البحر المتوسط .

ولم يأت نهاية هذا القرن حتى أرسل السلطان المنصور سلطان مراكش حملته عبر الصحراء إلى مملكة صنغاى فقضى على استقلالها وقد كلفته الحملة علاوة على زهرة شباب مملكته كثيراً من المال صرفه على أمل أن يسترد ماهو أكثر من ذهب السودان . ولكنه لم يجد شيئا . ومات السلطان وورثه ابنه السلطان زيدان بن المنصور فوجد خزائن أبيه خاوية خالية أما مملكة صنغاى قد خربت تماما وضاع ما كانت تتمتع به من ازدهار بسبب تجارتها

السابقة مع الساحل الشمالى لأفريقيـــا . وأصبح الحكم المغربى الجديد نكبة عليها .

ولم يلبث الحكم التركى أن انساب إلى الشمال الأفريقى فخضعت له ليبيا ثم الجزائر ثم تونس وأصبحت كل هذه الأجزاء ولايات فى الامبراطورية العثمانية الجديدة ولكن ليس بينها وبين بعضها ارتباط ما إلا ارتباط الخضوع للسلطان العثمانى الذى كتب عليها جميعا — بل على جميع الولايات التى خضعت له — العزلة عن العالم الخارجى وتصورت حكومات أجزاء الدولة العثمانية أن كل علاقة مع دولة أوربية كفر ينهاها عنه الدين . هذا بينما قدم الفونج من الشرق وسيطروا على وسط السودان واتخذوا مدينة سنار عاصمة لهم ، ومدوا سلطانهم شيئا فشيئا على مشيخات النيل الأوسط التى تمتد من الجندل الثانى شمالا حتى منتصف النيل الأبيض وتكون من مجموع هذه المشيخات شىء أشبه بالحلف التجارى كان لسلطان الفونج حق اختيار المرشح لتولى زعامة المشيخة التى يخلو فيها كرسى الحكم فى الوقت الذى لا يتدخل فى الشؤون الداخلية للمشيخة ، ولما لم يستطع الفونج أن يقيموا جهازاً إدارياً قادراً على إدارة هذه الدولة المتسعة ، فلن نستطيع أن نذكر شيئا عن هذه المشيخات الإسلامية إلا ما كان متصلا بموضوعنا وهو علاقة مصر بها . فى أى ناحية من النواحى . وهذا الأمر الذى لا نكاد نجد عنه إلا أثارا طفيفة تجمع شذراتها من هنا وهناك .

وأول ما نجده عن هذه الدولة أن التجارة كانت عمودها الفقرى وأن المكوس التى فرضها المشايخ كانت أهم مواردهم ، واكتفى السلطان بنصيب من الضرائب عدا ما يتجر فيه بنفسه ، ومن أجلى هذه التجارة الشخصية كان

لشيوخ المشيخات وكلاء فى مصر لاسيما فى القاهرة وأسيوط وبعض المدن الأخرى كإسنا ودراو وأسوان .

وقد تميز القطاع السنارى الأوسط فى حوض النيل الأزرق بصفته المسيحية السابقة التى تأثرت بالتقاليد والعقائد الدينية القديمة وقال الفارز Alvarez البرتغالى الذى زارها فى العقد الثالث من القرن السادس عشر حين لم تكن قد مضت على احتلال الأتراك لمصر إلا ثلاث سنوات (أنه سمع عن القس حنا السريانى وأنه رأى فى بلاد علوة قرابة الخمسين والمائة كنيسة مزدانة بصور العذراء مريم محوطة بالملائكة ومع ذلك كان السكان فى حالة بعيدة عن كل من اليهودية والمسيحية والإسلام وأنهم فى حاجة إلى التبشير بيتهم بالمسيحية).

وليس أدل على ذلك من أن السلطان عبدالقادر الذى خلف والده السلطان عمارة سنة ١٥٣٧ اضطر إلى قتال السكان المحايين لأنهم ظلوا يقدمون فتاة فى كل عام قربانا (للآلهة) حتى لا تمنع عنهم الأمطار . وبالرغم من دخول الإسلام إليهم وانتشاره بينهم ونجاحه فى تحطيم المسيحية والمملكة المسيحية فإن العادات غير الإسلامية ظلت سائدة بينهم يمارسونها دون ماحرج، فالمرأة السودانية كانت تطلق من زوجها ويعقبه عليها غيره فى يومها دون وفاء عدتها . وقدم إلى هذه المملكة منذ أيامها الأولى كما كان يقدم إليها من قبل مهاجرون من مختلف أجزاء أفريقيا منهم الشيخ حسن ود حسونه الأندلسى والشيخ جابر البولادى المصرى (واظنها البولاقى) والشيخ محمد المصرى ، وقد ادخلوا إلى هذه البلاد الطرق الصوفية وقد أدى انتشار الثقافة المصرية عن طريق هؤلاء القادمين إلى ارتحال كثير من السودانيين إلى مصر فى طلب العلم فى الأزهر بعد أن هدأت الأحوال فيها فى ظل الحكم العثمانى ولذا نستطيع أن نقول أن الثقافة المصرية كانت أقوى الثقافات الإسلامية الأجنبية فى

المجتمع السودانى. وكانت علاقة هذه الدولة بإتيوبيا وثيقة إذ حين خلع السلطان بادى سيد القوم بن السلطان عبد القادر منافسة عدلان هرب هذا الأخير إلى إتيوبيا فأرسل النجاشى للسلطان الجديد (بادى) سواراً من الذهب وكوكورا (عرشا) فاعتبرها سلطان الفونج إشارة إلى تبعيته للنجاشى فأرسل مقابلها اثنين من الخيل الهزيلة العرجاء العمياء .

وتميزت فترة السلطان بادى الثالث بدخول البعثات الدينية الأوربية إلى مملكته فى طريقها إلى إتيوبيا ، وكان قدومها عن طريق مصر ومن بينهم الرحالة الفرنسى Poncet وكان قبوله فى إتيوبيا بناء على توصية من البطريركية القبطية فى القاهرة إذ كانت هى المكلفة من امبراطور إتيوبيا بالبحث عن طبيب يعالج الامبراطور من مرض جلدى وذلك فى سنة ١٧٠٠ ودخل البلاد فى أعقابه رجال من الفرنسسكان بعد أن أسسوا مركزهم التبشيرى فى بلدة إخميم وكان من بينهم الأب باسكال الذى عمل طبيبا للسلطان السنارى بادى لمدة سنتين ثم سافر إلى إتيوبيا وخلفه فى عمله Kramp البافارى .

وقامت هذه البعثة بنشاط كبير بين سنار والقاهرة وكان دى ماليت قنصل فرنسا فى القاهرة هو الذى يقوم بتجهيز ما تحتاج إليه .

وفى سنة ١٦٧٢ قدم إلى سنار أيضاً عن طريق القاهرة أولياشلبى الرحالة التركى وشهد حربا وقعت فى منطقة دنقلة وقد نتج عن هذه الحرب تحول التجارة عن طريق الشايقية .

وكان الهدف من هذه البعثات إلى جانب التبشير فتح طريق للتجارة بين فرنسا (لويس الرابع عشر) وإتيوبيا عن طريق مصر بدلا من طريق البحر الأحمر لاسيما بعد أن استقر الأتراك فى سواكن .

وكان لسلاطين الفونج علاقات طيبة مع علماء الأزهر إذ تقول مخطوطة كاتب الشونة أنهم نظموا القصائد فى مدح السلطان بادى أبو دقن (١٦٤٢ — ١٦٨٠) .

ولم تكن لمملكة الفونج عملة خاصة بها بل تعامل أهلها بالعملات الأسبانية والعثمانية وريال مارى تريزا وعملات مصر وكان يطلق على الريال المصرى اسم أبو كلب .

وكان من بين تقاليد التولية أن يقوم الجندى بخلع قفطان السلطان الجديد ويحلق شعره ثم يتقدم كبير رجال الدولة من البيت السنارى ومعه قفطان جديد وعباءة ويلبسها إياه ويضع على رأسه طاقية ذات قرنين ويسلم إليه السيف ، وبعد إتمام ذلك يجلسه على الكوكور ، فيتقدم الوزير وأكابر الدولة والمشايخ وغيرهم البيعة للسلطان الجديد وتحيته بينما تدق الموسيقى فى الخارج والفقهاء يقرأون القرآن ويرتلون الأدعية ولعلنا نرى فى هذه الطقوس أثراً ملوكياً مصرياً واضحا .

وكان العلم فى هذه الدولة يكاد يكون محصوراً فى التلمذة على أصحاب الطرق الصوفية الذين اكتسبوا مكانة تكاد تضارع مكانة السلطان . وكان لتوليتهم مناصبهم تقاليد خاصة أيضاً إذ لم تكن وراثية فى عائلة زعيم الطائفة بل كان يتولاها من بينهم من يختاره هو من بين أنصاره الذين يراهم قد استكملوا مرحلة العلم .

وقامت فى دار فور فى نفس الوقت الذى قامت فيه سلطنة الفونج تقريباً السلطنة الأدريسية التى سقطت فى سنة ١٦٤٠ وحلت محلها سلطنة الفور وأول سلاطينها سليمان صولون (١٦٤٠ — ١٦٧٠) وأول ذكر لسلاطينها أتى به فانسلب Vansleb الرحالة وكان ذلك عام سنة ١٦٦٤ ، وكان الناس كلهم

مسلمين ولكن اسلامهم كان شفافا يخفى خلفه كثيرا من العادات والتقاليد الوثنية إذ كانوا يتقدمون بالهبات إلى آلهتهم كما كانت لهم أعياد خاصة غير الأعياد الإسلامية إذ كان من عادتهم أن يعاشر رجالهم نساءهم قبل الزواج. مع ما كان يفعله السلطان من الخروج الأسبوعى إلى الصلاة الجامعة . بينما كان السلطان يرسل فى كل سنة محملا وصرة إلى مكة عن طريق مصر مع كمية من الريش والصمغ وأعداد من الرقيق تباع فى القاهرة وكان القائم بأعماله فى مصر أحد أعيان أسيوط هو المعلم حبيب شنودة .

أما عن النوبة فقد استقبلت كثيرين من الهوارة الذين ناصبوا الحكم التركى العداء . وقد تتبعهم هذا الحكم الجديد فاستقر بعضهم هناك وأصهروا إلى الأهالى يحتلون أرضهم ويمتنعون عن دفع ضريبة عنها ويسمون أنفسهم بالبلطجية لأن البلطة كانت سلاحهم ويسميهم الأهالى بالعثمانية ، واستغاث الأهالى بالسلطان فى استنبول فأرسل إليهم بعضا من البوشناق ـ وهم أهالى البوسنة الأوروبية ـ تحت امرة قائد يدعى حسن قوسى . وقد بنى البوشناق قلاعهم فى أسوان وابريم وصاى وسكنوها وورثهم أبناؤهم وأحفادهم ، ولم يلبثوا أن وضعوا أيديهم على الأرض التى حول القلاع دون أن يدفعوا عنها ضرائب لأحد ، ولما كانت هذه الأرض فقيرة أجرى عليهم ممثل السلطان فى القاهرة معاشاً سنويا رغم استقلال النوبة عن مصر وولاتها .

وأصبح الهوارة وأحفاد حسن قوسى يتناوبون السلطة على هذا الجزء واقتسموا المنطقة فيما بينهم واختص كل واحد بمنطقة يجبى فيها ما يشاء، وحمل بعضهم لقب كاشف نتيجة اتصاله بوالى مصر ومنحه إياهم هذا اللقب نظير جزية سنوية بلغت فى بعض الأوقات ما يساوى ١٢٠ جنيها .

وسارت التجارة بين هذه المشيخات والسلطنات المختلفة وبين مصر سيرها

العادى بانتظام وكان معظم التجار من المصريين وينتمون إلى بلاد نقادة ودراو وأسيوط وإسنا وكان درب الأربعين هو طريقهم الرئيسى إلى جانب طريق النيل أو مخترقا صحراء البيوضة . وكانت القافلة فى بعض الأحيان تصل إلى مائة جمل وكانت موادها الدمور وبعض الأوانى الزجاجية من مصر يقابلها الرقيق والعاج والسنامكى والتمر هندى والعرقسوس والصمغ والحناء وريش النعام من الجنوب وكان على التجار إذا ما وصلوا عاصمة السلطنة أو المشيخة أن يدفعوا ببعض موادها هدية إلى السلطان مقابل أن يسمح لهم بإقامة السوق وغالبا ما يكون للسلطان تجارة خاصة إلى جانب هذا الجزء الذى يحصل عليه .

ويذكر لنا بوركارت الذى جاب انحاء النوبة والسودان قبيل أمتداد الإدارة المصرية إلى السودان (أن سكان وادى العرب تجار نشطون أغنياء يسلكون إلى بربر ويجلبون السلع المختلفة التى تحفل بها أسواق سنار والطريق مأمون جداً) كما يذكر أيضاً أن تجار المحس يشترون الرقيق من دنقلة وبربر ويرسلون قافلته مرتين فى العام إلى القاهرة .

. . .

أما فى أتيوبيا فكانت الحالة فيها على شىء كثير من السوء فقد امتد حكم الأتراك إلى البحر الأحمر واستولوا على سواكن ومصوع اللتين اصبحتا باشوية تابعة لجده سميت (باشوية جده والحبش) وامتدوا أيضاً إلى بربرة وزيلع حتى إذا أطلوا على المحيط الهندى رأوا البرتغاليين يسيطرون على شرق أفريقيا من أجل أن يصلوا إلى الهند فتاقت نفوسهم إلى قطع الطريق على البرتغاليين ومن ثم إلى احتكار التجارة الهندية .

وسرعان ماوحدت العقيدة بينهم وبين مسلمى الشاطىء الشرقى لاثيوبيا

فقدوا معهم اتفاقا أمدوهم فيه بالأسلحه التى لم يكن يعرفها الأتيوبيون إمدهم
البنادق والمدافع . وفى سنة ١٥٢٦ اتصلوا بالأمام احمد بن ابرهيم اميرهرر
وأمدوه بهذه الأساحة وصوروا له أن باستطاعته تقويض الحبشة المسيحية
وتحويلها إلى مملكة مسلمة. وقام الإمام أحمد فعلا بهذه المهمة وثار واكتسح
إثيوبيا وظلت ثورته ناشبه والنجاح فى قبضة يده حتى سنة ١٥٣٨ انقطعت
فيها صلات اتيوبيا بمصر انقطاعا تاما وتوقفت التجارة بل خربت البلاد
خرابا كاملا ولاسيما وقد اتبعوا سياسة حرق الكنائس وتخريب الأديرة
وإرغام الناس على اعتناق الإسلام واستطاع الإمام الوصول إلى أديرة بحيرة
طانا باتخاذ القوارب من جذوع الأشجار بعد نحتها وطليها بالقار ، وتبين
للامبراطور لبنادنجل (١٥٢٧—١٥٤٠) عدم جدوى العلاقة بكنيسة مصر
فاتصل ببابا الكنيسة الكاثوليكية فى روما وأرسل له وفدا يطلب النجدة
لقاء انفصال الكنيسة الأتيوبية عن كنيسة مصر وتبعيتها لكنيسة روما
وانتهز فرصة انعقاد مؤتمر فلورنسا من امبراطور الدولة الرومانية الشرقية
والبابا لأجل النظر فى إمكان مساعدة الكنيسة الغربية للكنيسة الشرقية
والدولة فى صدخطر الأتراك العثمانيين الذين سلبوا الدولة أثمن ولاياتها وأصبحوا
يهددون العاصمة بل بدا للعيان أن نهاية هذه الإمبراطورية العظيمة التى
كانت ملء السمع والبصر قد دنت ، فبادر الإمبراطور بأرسال سفارتين إلى
هذا المؤتمر خرجت أولاهما من مصر يمثلها الأب اندراوس رئيس دير
القديس انطونيوس فى مصر وخرجت الثانية من القدس يمثلها الأب نيكوديم
أحد رهبان دير السلطان وتقابلا فى الطريق. واتجها إلى المؤتمر بعد أن مثلا فى
حضره البابا أوجين الرابع فى الواحد والثلاثين من أغسطس وهناك أظهرا
للمجتمعين أن لا خلاف مطلقا فى العقيدة بين الكنيسة الغربية وكنيسة
الاسكندرية سوى مسألة طبيعة المسيح فكانت نتيجه هذا المؤتمر أن دعا البابا

إلى قيام حملة صليبية أوروبية لإنقاذ القسطنطينية ثم الاستعلام عن حقيقة
الحال فى بلد هذين المندوبين الأجنبيين تمهيدا لخلق علاقات مع القس حنا
مما حدا بزرء يعقوب إلى أن يؤسس ديرا إتيوبيا فى سان استفانو بالقرب
من روما وقد سجلت حادثة وصول هذين المندوبين الاتيوبيين إلى مؤتمر
فلورنسا فى صورة مازالت موجودة بمكتبة الفاتيكان حتى الآن .

وحين ثار الإمام أحمد وعجزت الدولة عن صده لجأت إتيوبيا إلى
البابا والبرتغال مرة أخرى بعد أن ظهر أن كنيسة الاسكندرية أعجز من
أن تقدم اليها أى عون، فأرسل الملك جلاوديوس (١٥٤٠ — ١٥٥٩) بعثة
أخرى كان من نتيجتها وصول حملة برتغالية من أربعين جنديا يحملون المدافع
والبنادق تمكنت من هزيمة الإمام أحمد وقتلة . وعاد جلاوديوس إلى
قصره حيث وجد وفدا يسوعيا يطالبه بتنفيذ ما وعد به لبنادنجل من تبعية
الكنيسة الاتيوبية لكنيسة روما فوقف جلاوديوس من هذا الطلب موقف
المعارضة بل أخذ يجادل رئيس الوفد فى معتقدات كنيسته التى ورثها عن أجداده
وأمر بطردهم من بلاده وكتب إلى الاسكندرية يطلب تعيين مطران مصرى
لبلاده فعادت العلاقات بين الكنيستين .

وفى أيام سوسينوس (١٦٠٧ — ١٦٣٢) رأى هذا الامبراطور أن
الكاثوليكية هى العامل الوحيد الذى يستطيع أن يخرج ببلاده من عزلتها
ويصلها العالم الخارجى . فطرد المطران المصرى ونزع من الكنائس الصور
والايقونات التى تدل على هذا المذهب السكندرى وعين من يدعى منذز
Mendez مطرانا كاثوليكيا لاتيوبيا وأرغم رجال الدولة على أن ينكروا
المذهب السكندرى ونظم الأعياد والصيامات طبقا للتقويم الجريجورى حتى
إذا قام الشعب تؤيده الكنيسة الوطنية بالثورة عليه قمع ثورتهم بكل شدة

ولكن فى اليوم الثانى ذهب الإمبراطور إلى مكان الموقعة فقابله ابنه مؤنبا إياه على مافعل من قتله هؤلاء جميعاً وهم أخوته وأبناؤه . فلم يكد الأمبراطور يعود إلى قصره حتى أعلن مرسوما رد به إلى شعبه مذهبه واعتزل العرش ووضع مكانه ابنه فاسيلاداس واعتكف هو ليعيش فى دير عيشة هادئة حيث مات بعد مرض طويل .

وهكذا عادت الكنيسه الوطنية وعادت معها العلاقة مع مصر .

وهذه هى المرات القليلة التى تسجلها المصادر عن علاقة مصر بأفريقيا طيلة ثلاثة قرون كاملة (١٥١٧ — ١٧٩٨) هى التى اصطلحنا على أن تسميها بالعصر الحديث وهكذا نرى أنه بينما كانت أوروبا قد بدأت تنفتح على العالم كانت مصر تحت السيادة العثمانية تغلق أبوابها دون العالم أجمع .

الكتاب الرابع

العصر المعاصر

(ا) من ١٨٠٠ — ١٨٨٥

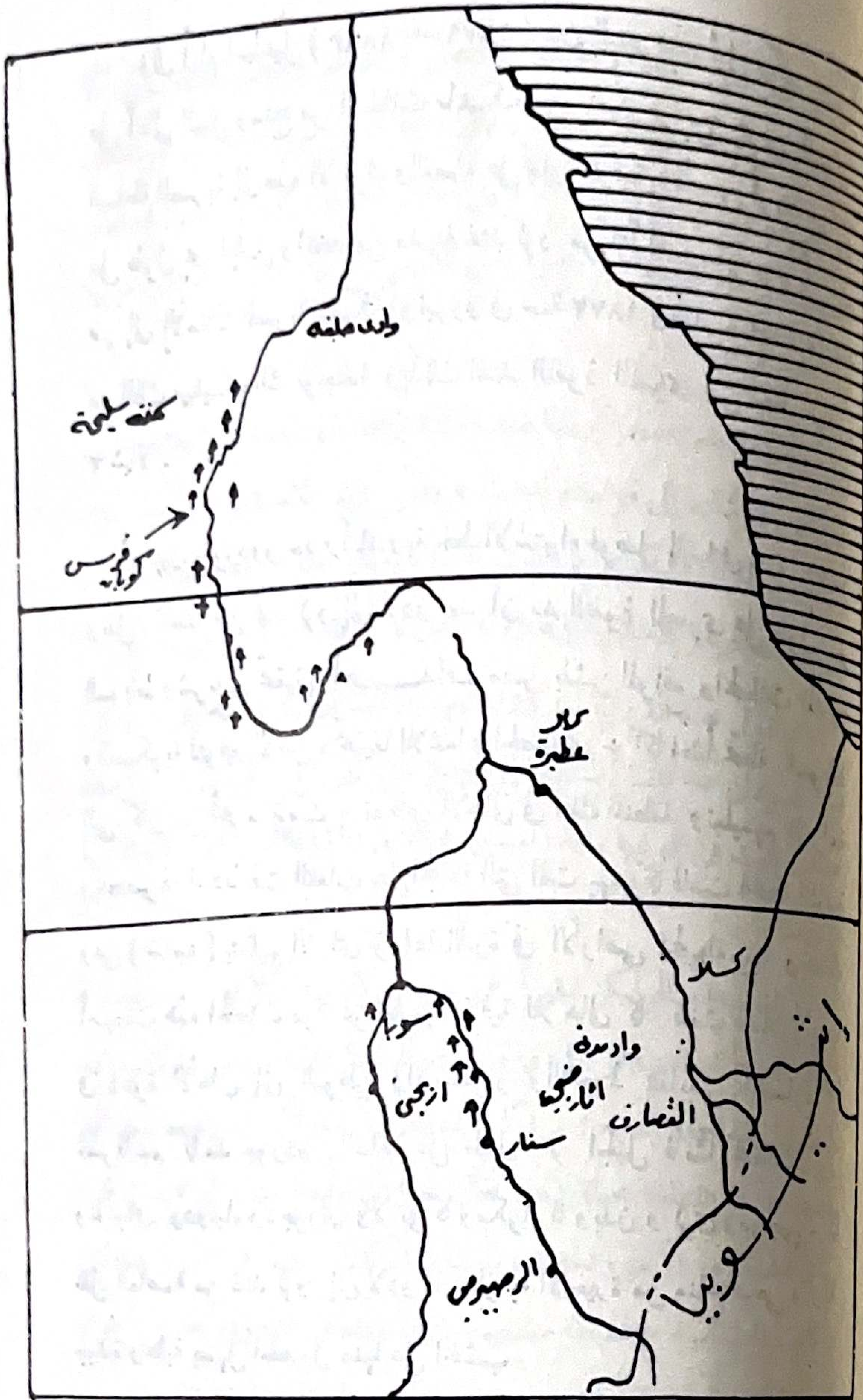
(ب) من ١٨٨٥ — ١٩٥٣

(حـ) بعد ١٩٥٣

العصر المعاصر

(١) ١٨٠٠ — ١٨٨٥

أول من نقل مصر إلى العصر المعاصر هو نابليون بونابرت حين قاد حملته الشهيرة إلى مصر ففتحت علينا النوافذ لنرى أوربا الحديثة ، فأعاد لمصر بعض اتصالها بإفريقيا حين أرغم بعض المماليك إلى الهروب إلى السودان . فكأنهم أدركوا من تلقاء أنفسهم أنه الامتداد الطبيعى لمصر وأنهم كانوا مخطئين فى الازورار عن هذا الركن من القارة. ومن هناك أخذوا يغيرون على الصعيد فى الأيام الأولى من حكم محمد على الذى اضطر إلى الذهاب إلى إسوان لصد هذا الخطر ومن ثم أخذ يفكر فى غزو هذا القطر ليبعد عن نفسه خطر هؤلاء المماليك من ناحية ولأغراض أخرى لم تكن إلا جزءاً من أطماعه. هذا فى الوقت الذى كانت فيه الأحوال قد ساءت فى السودان من جراء كثرة المجاعات التى حدثت هناك فأودت بحياة الألوف من سكان سلطنتى سنار وكردفان كما هرب كثيرون من السودانيين من ظلم السلطان بادى السادس واستقروا فى مصر وقابلوا محمد على وابنه إبراهيم ، وزينوا لهما ما يعود على مصر من خير إذا دان لها السودان، فكأن هؤلاء السودانيين أيضاً قد شعروا أن الامتداد الطبيعى لبلادهم هو إلى مصر لا إلى الجنوب، وأن الحاكم الذى يحكم مصر يعنيه السودان كما تعنيه مصر وأن هذين القطرين يكونان وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية واحدة، كما يكونان وحدة جغرافية واحدة. فأخذ محمد على يفكر فى ذلك ، لاسيما وقد استنفذت الحملة الوهابية قواته الحربية والمالية وتركته دون قوة يستند عليها ، لاسيما وقد أخذ المصريون يحاسبونه



مواقع الأديرة الباخومية فى السودان
خلال النصف الأول من العصور الوسطى

محاسبة عسيرة كثيراً ما اقتضت مضاجعه حتى اضطر إلى التخلص من السيد عمر مكرم بنفيه إلى دمياط . هذا إلى أنه رأى أن السودانيين قد يصلحون جنداً يعتمد عليهم كما اعتمد عليهم بعض من سبقوه فى حكم مصر وتركوا للمصريين ليوفروا للأرض الزراعية اليد العاملة لتنتج للمصريين ما يوفر لهم غذاءهم وللحاكم ما يجمعه من ضرائب .

وإذا كان محمد على قد أخذ يفكر فى فتح السودان من أجل مصالح مصر فإن ذلك لا يغض من جهوده فى أن يعيد العلاقة بين مصر وجزء من أفريقيا فكأنه قد شعر أيضاً ضمن من شعر أن هـــذا الاتجاه نحو أفريقيا اتجاه طبيعى .

ونحن لن نحاول أن نتبع الحملة المصرية فى سيرها . بل يكفى أن نقول أنه لم تأت نهاية سنة ١٨٢١ حتى كانت الإدارة المصرية قد امتدت على طول النيل حتى أعالى النيل الأبيض وإلى منتصف النيل الأزرق وإلى إقليم كردفان .

ولم تقف الإدارة المصرية عند هذا الحد بل لم تلبث أن امتدت إلى إقليم التاكة (فى الشرق (كسلا الحالية) أيام حكمدارية أحمد باشا الملقب بأبو ودان فى سنة ١٨٣٨ وقد استفاد أحمد باشا من النزاع بين القبـــائل فأغرى الهدندوة على الحلنجة ولم يلبث أن هاجمهما معا ونجح فى إخضاعهما . ووصلت بذلك سلطة الباشا إلى ساحل البحر الأحمر وامتدت واتسعت حين طلب من السلطان العثمانى أن تدخل مصر ضمن ولايته حال حياته . ولم يهدأ هذا الركن تحت حكم محمد على فاضطر إلى أن يبذل مزيدا من الجهد لإخضاعه . وإن لم ينته إلى هذا الإخضاع الذى يريده . ولكنه لم يرسم طبعاً حدوداً ثابتة بينه وبين إثيوبيا مما سبب كثيراً من النزاع بين الباشا وخلفائه من ناحية وحكام إثيوبيا من ناحية أخرى .

وفى أيام اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) عين السير صموئيل بيكر حا[كما] على أعالى النيل ومنح من السلطات مايمكنه من تنفيذ برنامج يرمى إلى مد السلطة المصرية إلى هذه الأجزاء والقضاء على تجارة الرقيق، فأسس أربعة مراكز على طول بحر الجبل واتخذ من مدينة غندكرو مركزاً له وسار جنوباً حتى ضم إلى الأملاك المصرية مملكة أونيورو فى سنة ١٨٧٢ وعقد معاهدة صداقة مع الملك ميتيسا ملك بوجندا وبذلك امتد النفوذ المصرى حتى خط عرض ٢ شمالا .

ثم عين جوردون مديراً لمديرية خط الاستواء فوصل إليها فى سنة ١٨٧٤ ونقل رئاسته من غندكرو إلى لادو بعد أن مد النفوذ المصرى على طول نهر السوباط وشرع فى تحقيق أهـــداف مصر بنشر المواقع والمحطات المدنية والعسكرية لتوفير الأمن وتحقيقا للاشعاع الحضارى . كما انشأ محطة السوباط التى كان من أهم ما قامت به توطين الأهالى فى تلك المنطقة وتعليمهم الزراعة وبمحصولها استطاعت التغلب على المجاعة التى المت بهم، كما قامت المحطة الثانية وهى (شانبه) بتعليم الأهالى زراعة الذرة فى الأراضى المحيطة بها وبذلك أصبحت هذه المحطات مراكز تعليمية ثقافية للأهالى كما كانت عاملا رئيسيا فى دعوة الأهالى إلى التوطن والاستقرار والأخـذ بمقاييس الحضارة فى تصرفاتهم كما مد جوردون السلطة على طول بحر الجبل فأنشأ محطات بور والرجاف ودوفيله ولابورى ولا توكا ومكراكا وبدن وكرى وموجى. كما نقل العاصمة من غندكرو إلى لادو لما تمتاز به الأخيرة من مناخ صحى وتربة جيدة وغابة يسهل الحصول منها على الخشب .

وقد شهد أرنست لينان بمدى التقدم التى بلغته تلك المحطات والمناطق القريبة منها حيث تعلم الأهالى زراعة المحاصيل الزراعية التى لم يكونوا على علم

بها من قبل مثل البامية والملوخية والبصل والطماطم والفلفل واللفت . كما أشار أيضا إلى الجهود التى يبذلها رجال المحطات فى سبيل استقرار المواطنين مع اسرهم واشتغالهم بالزراعة مما سهل انتقال الحضارة إليها إذ تعلموا استعمال النقود بدلا من المقايضة كما تعلموا لبس الملابس العربية والتكلم باللغة العربية فى بعض الأحيان .

وعندما علمت مصر برغبة متيسا ملك بوجندا فى اعتناق الإسلام وطلب من يقوم بإرشاده إلى قواعده قدمت له مصر جميع الامكانيات فأرسلت له نسخة من القرآن الكريم كما اعدت العدة لارسال بعثة من علماء الدين لتعليمه التعاليم الصحيحة للاسلام فأوفدوا له اثنين من العلماء لهذا الغرض .

ثم تولى هذه المديرية بعد ذلك امين باشا — عندما عين جوردن حكمدارا عاما للسودان — فقسم المنطقة إلى مديريات تتكون كل منها من عدة محطات بلغت فى مجموعها مائة وسبعين محطة عـــدا القرى التى ليست بها حاميات .

وبلغت هذه المراكز عشراً هى بور، ولادو، وكرى، ودوفيليه، ولاتوكا وفاديبك، وفوبرا، ورول، ومكراكا، ومونبوتو . وكانت لادو عاصمتها جميعا وقد أصبحت مراكز هذه المديريات مراكز إشعاع حضارى وقد وصف فلكن Filkin محطة لادو فقال عنها انها مدينة حسنة البناء بنيت فيها مبانى الحكومة بالآجر والحديد وبنيت مساكنها الأخرى بالخشب والحشائش وكانت ذات شوارع فسيحة مستقيمة وذات حدائق غناء وفى خارج أسوار المدينة انتشرت البساتين التى زرعت فيها الزهور الأوروبية والموز .

وقد الحقت الادارة المصرية بهذه المراكز مجموعة كبيرة من الموظفين منهم المترجمون وتعلم بعض الأهالى القيام بعمل الشرطة للمحافظة على الأمن

وكان من أعمالهم حراسة البريد والمواصلات بين مراكز المديرية ومحطاتها وعاصمتها وسكن معظم هؤلاء الموظفين ـ وقد بلغوا العشرين أو الثلاثين ـ بجوار المحطة .

كذلك أدخل التعليم الفنى فى جنوب السودان ، فقام جنود المحطات من المصريين والسودانيين بتعليم الأهالى الطرق الحديثة فى الزراعة وتجربة أنواع جديدة من الخضروات والفواكه ، وكان التعليم يتم بالمناطق التى ألحقت بالمحطات ، فقد كان بجوار كل محطة مساحة تقدر بستة أفدنة تستعمل كحقل للتجارب. ولكى تشجع الدولة الأهالى على الزراعة تنازلت عن ملكية الأرض التى يقوم أحد الأهالى بزراعتها كما أعفته من الضرائب المقررة عليها لا مساعدة منها على نشر التعليم والزراعة الحديثة فحسب بل مساعدة على الاستقرار ونشر الأمن ويبدو أن هذه السياسة قد نجحت إلى حد ما فقد زاد الانتاج الزراعى حتى استطاعت المديرية أن تحقق الاكتفاء الذاتى من هذه المحاصيل التى كان منها الذرة والقطن والتمر هندى والقصب والجوافة والليمون .

وقد حققت المديرية إلى جانب ذلك وثبة مرتفعة فى مجال الصناعة حيث أقيمت عدة صناعات قائمة على الانتاج الزراعى . فقامت صناعة النسيج ، وقد استفادت المديرية من ذلك إبان محنتها عند قيام الثورة المهدية إذ استطاعت أن تنتج الدمور وكفت نفسها منه بل أرسلت بما فاض عن حاجتها إلى السودان الشمالى . كما قامت صناعة مشروب كحولى يشبه البيرة . إلى جانب عصر الزيوت وعمل الصابون . وكذلك اهتمت المديرية بتصنيع المطاط . كما أدخلت صناعة دبغ الجلود فانتشرت مراكز الدبغ فى أنحاء السودان وصنعت الأحذية والقرب وسيور المطاط وكان هذا الانتاج يتم على يد مدربين من

المصريين الذين سرعان ما خلفهم جيل من الصناع السودانيين عملوا مع الحاميات العسكرية على سد حاجتها من هذه الاشياء .

ولم يلبث الزبير رحمت أن فتح إقليم بحر الغزال لحسابه الخاص حيث كان يعمل تاجراً من قبل . ثم أغار على إقليم دارفور ومد سلطته إليه أيضاً ثم قدم هذين الاقليمين هدية منه إلى اسماعيل باشا الذى أرسل له جيشاً مصرياً وتسلم منه هذين الاقليمين فى سنة ١٨٧٣ . وكان سلطان دارفور مستقلا فى مملكته طوال حكم محمد على وعباس وسعيد بل إنه حين سمع بقدوم نابليون إلى مصر ومحاولته القضاء على المماليك كتب إليه مهنئا بهذا الفتح وتمنى له الانتصار على هذه (الطغمة الفاسدة) .

وفى خلال عهد سعيد نمت العلاقات بينهما إلى حد أن أهدى له سعيد عربة (حنطور) ولاشك أن هذه كلها أدلة لاتقهر على وجود اتصال سريع مباشر مع مصر وكان سلطان دارفور يحافظ على وجوده طالما لا يستشعر منه خطراً عليه .

وفى كل هذه الأجزاء من افريقيا كان اخضاعها لحكومة نظامية أول عمل من نوعه فيها ، إذ لم يسبق لأى جزء منها أن خضع لمثل هذه الحكومة. وفى سنة ١٨٦٦ حصل اسماعيل على فرمان سلطانى بالحاق ثغرى مصوع وسواكن بالسودان بصفة دائمة نظير زيادة الجزية ثم جاء (فرمان الوراثة الصابية) فى سنة ١٨٧٣ ليجعل من هاتين (القائمقامتين) جزءا من الأملاك المصرية لأن أهل التاكة (إقليم كسلا) كانوا يهربون اليهما .

وفى العام التالى بسط النفوذ المصرى على أقاليم بربرة وبلهار وزيلع بعد أن تنازل الباب العالى عنها مقابل ١٥٠ ألفا من الجنيهات المصرية .

وفى سبتمبر من نفس السنة صدرت الأوامر إلى رؤوف باشا حكمدار البحر الأحمر بفتح مدينة هرر لأن نشاط مدينتى زيلع وبربرة يتوقف على ما كان يرد من هرر من مواد التجارة فتم فتحهـــا وإخضاعها للادارة المصرية فى أكتوبر .

ولم تلبث مصر أن تبينت أن الطريق الطبيعى لتجارة إقليم البحيرات هو طريق المحيط الهندى لا طريق النيل الذى تتعذر فيه الملاحة . وكان جزء كبير من تجارة العاج قد تحول فعلا إلى الشرق فارسلت حملة بحرية بقيادة ما كيلوب باشا وصلت إلى ميناء كيسماو واحتلته ورفعت عليه العلم المصرى إلا أن سلطان زنجبار الذى كان يعيش فى ظل الحماية البريطانية أحتج على هذا الإحتلال لجزء من من أملاكه كما أحتجت إنجلترا لأنها كانت ترى أن هذه الأجزاء من أفريقيا منطقة نفوذ لها من أجل الوصول إلى الهند .فسارعت القوة المصرية باخلاء ما أحتلته من شرق أفريقيا .

وشاب الحكم المصرى — وخاصة فى شرق السودان — كثير من المآسى لاسيما فى عهد محمد على وسعيد حين قتل جميع أسرى الهدندوة على مرأى من أبو ودان باشا والمنكلى باشا الملقب بالجزار مما اضطر أفراد هذه القبائل إلى الهجرة إلى إتيوبيا . وكان الحكم الاتيوبى من الناحية الأخرى يشجع من يقدم إليه ليعيش هناك عيشة سلمية بينما يصد من يقصد الأغارة على القرى الاتيوبية .

وزار السودان كل من محمد على وسعيـــد وكانت زيارة الأول فى سنة ١٨٣٩ وتبين له أستغلال كثير من الموظفين لسلطاتهم من أجل الاثراء إلى حد أن ارتفعت أصوات بالشكوى فالغى منصب الحكمدار

وجعل أحمد باشا مديراً للخرطوم وسنار والجزيرة فقط كما جعل إتصال بقية المديرين به شخصياً فى القاهرة فى أى أمر من أمورهم كى يأخذهم بالحزم ، ولكن لم يلبث هذا النظام أن فشل إذ جعل المديرين لا يشعرون بسلطة فوقهم تراقب أعمالهم ولذا سرعان ما عاد الباشا إلى النظام السابق وجعل مدير الخرطوم رئيساً لهم باسم الحكمدار وأطلق له السلطة فى تعيين المديرين وعزلهم وتأديبهم .

وكانت زيارة الثانى فى سنة ١٨٥٧ حين سمع أيضاً بهذا الفساد فألغى أيضاً منصب الحكمدار وأنقص عدد المديريات إلى خمس وكانت سبعا ، على أن يرجع إلى القاهرة فى كل الأمور وأثبت هذا النظام فشله أيضاً بسبب سوء المواصلات مما أدى إلى تعطيل كثير من الشؤون مادام المدير لا يستطيع عمل شىء قبل الرجوع إلى القاهرة لا سيما بعد أن زادت مساحة المديريات. فلم يجد سعيداً بدا من العودة إلى النظام القديم وفى عهد إسماعيل أنشئت إدارة خاصة بالقاهرة سميت (إدارة عموم السودان) للاشراف على كل شؤونه ، ثم عاد إسماعيل وألغى منصب الحكمدار وعاد عن هذه التجربة بعد خمسة عشر يوماً . وحين عين جوردون حاكماً على السودان وحد السودان تحت إدارته وأطلقت يده فيه . ولكن جعل سعيد باشا مدير كردفان بمثابة مشرف على غرب السودان . وكانت مديريات السودان قد بلغت أثنتى عشرة مديرية هى الخرطوم والتاكة وسواكن وبربر وسنار وكردفان . ودارفور ودارا وفاشودة وبحر الغزال والاستوائية وكبكابية . عدا البحر الأحمر والأخيرة تشمل مصوع وهرر . ثم ألغيت الأخيرة وضمت مصوع إلى التاكة وظلت هرر تحمل هذا الاسم .

وكان برنامج الباشا ينحصر فى إتخاذ السودانيين مادة الجيش الذى ينوى بناءه فعمل على تنظيم تجارة الرقيق بعد أن عقد عليها الآمال لتكون موردا يعتمد عليه فى تكوين هذا الجيش.

فارسلت الحملات إلى الجنوب من أجـل اصطياد الرقيق من الرجال وإرسالهم إلى مصر وقد وصف باتون أحدى هذه الحملات على إقليم الدنكا فقال أنها بلغت ألفين من المشاه وألفا من الفرسان معها أربعة مدافع و٢٠٠ جمل وبعد خمسة أيام عادت الحملة ومعها ٦٢٢ من الرقيق و١٥٠٠ من الثيران وتقدمت الحملة إلى بودون وقبضت على ٥٢٦ من الرقيق أغلبهم من العجزى ولذا لم يصلح منهم غير خمسة وسبعين سيروا مع السبعمائة الأولين إلى مصر لينضموا إلى الجيش. كما هاجم كوربوك على الحدود الإتيوبية ففر الاهالى إلى الجبال فدخل الجنود المدينة وأحرقوها ولم يلبثوا أن هاجموا الرجال وأعتبرت الحملة فاشلة لأنها قبضت على ١٨٧٥ رقيقاً فقط إذا قورنت بحملات أخرى مماثلة أحضرت أكثر من خمسة آلاف.

ولم يلبث الباشا أن تبين عقم الجهود التى تبذل من أجل تكوين الجيش المصرى من الرقيق فصرف النظر عن هذا المورد. ففتح طريق النيل أمام التجار وأطلق لهم حرية الإتجار فى الرقيق دون تدخل منه على أن يدفعوا ما فرضته الحكومة عليهم من ضرائب.

السياسة المالية لمصر فى السودان.

وأهتم محمد على بتدبير المال اللازم لاجل تموين مشروعاته فنظم جمع الضرائب وكان تنظيمهـا فى السودان جزءاً من تنظيمها فى مصر ففرضت

الضرائب على الاهالى إلا أنه فشل لعدم اشتغال الاهالى اساساً بالزراعة كما يفعلون فى مصر ولذا فرضت الضرائب على القبائل بشكل إجمالى كما فرضت خمسة ريالات على كل بهيمة وترك لرؤساء القبائل امر جمعها وتسليمها لعمال الحكومة ومن اجل هذا عين بعض السودانيين شيوخا لقبائلهم مثل الشيخ عبد القادر علاء الدين حين عينه شيخاً لقسم السكوع وكساه كسوه فاخرة كما قرب خورشيد باشا (١٨٢٥ — ١٨٣٩) نفس الشيخ عبد القادر كما جمع مشايخ البلاد وسألهم ان يختاروا شيخاً لينوب عنهم فى جمع الضرائب كما قلد الشيخ عدلان مشيخة الفونج وحسن خليفة مشيخة العتمور.

وإذا راعينا أن السودان قبل محمد على لم يكن يدفع ضرائب قط وأن ما فرض عليهم كان أكثر مما تحتمله طاقتهم الإقتصادية أدركنا ماسببه فرض الضرائب من إستياء عام من الأهالى وأدركنا ما تلا ذلك من قسوة أرتكبها الجنود ورؤساءهم مما أضطر الأهالى إلى الفرار وهجر القرى كما حدث فى سنار حتى لم يبق فى ١٤٥ قرية سوى ٥٩٩ شخصاً وإذا ما أشتد الغضب بالإهالى فى إقليم كسلا أيام أحمد باشا المنكلى (١٨٤٤ — ١٨٤٥) رفضوا دفع الضرائب وهموا بقتل القوة المصرية فجرد لهم جيشا أسر رءوس العصاة وعاد بهم إلى الخرطوم حيث أعدموا، وعندما زار سعيد باشا السودان أصدر فى ٢٦ يناير سنة ١٨٥٧ المراسيم الأربعة التى تحدد مساحة الفدان كما حدد الضرائب على الأرض الزراعية يجعلها عشرين قرشاً على الفدان فى الأرض العاليه عن منسوب النهر، ٢٥٠ قرشاً على الجزائر، ٢٠٠ قرشاً على كل ساقية، كما قسم الضرائب إلى أقساط متساوية كى يسهل دفعها وأبعد الجند عن عملية جمع الضرائب لابعاد استعمال القوة فى جمعها كما فتح جنوب السودان للتجار نظير ما يدفعونه من ضرائب فكونوا بالاتحاد مع بعض الأجانب شركات كانت

لها قوات من الرجال والسفن مزودة بالسلاح فرأينا من التجار الأجانب دى بونو وأمبيلى الإيطاليين وبلزاك الفرنسى ومن المصريين السيد أحمد العقاد وموسى العقاد ومحجوب البوصيلى وعبد الحميد وأبو عمورى وتكونت من دى بونو وشنوده وخورشيد وديكتاتورية ثلاثية استأثرت بكل النفوذ فى بحر الجبل . وبلغ من نفوذ هؤلاء التجار أن أقاموا لهم سلطنات واتخذوا لهم العواصم .

وفى أيام إسماعيل خضعت الضرائب وأعفيت الأرض المزروعة أشجار وفاكهة من الضرائب وكانت هذه الأعمال مرهقة للميزانية فظهر فيها العجز فكان العجز على سبيل المثال فى سنة ١٨٧٠ ، على مديرية بربر ٨٠٠٠ كيسا وفى التاكة ألفا ومائتين وفى مصوع ٣٦٩٢ كيسا وعلى عربان بنى عـامر ٩٥٢ كيسا وفى فازوغلى ١٤٥٨٦ كيسا وفى الخرطوم ٢٧٥٩١ كيسا .

السياسة الإقتصادية لمصر فى السودان

وكانت سياسة محمد على الإقتصادية فى السودان امتدادا لسياسته الإقتصادية فى مصر ، فكان الاهتمام بالزراعة على رأس برنامجه وكانت هذه الناحية صعبة لأنها لم تكن ترمى إلى إصلاح شىء فاسد كما هو الحال فى مصر بل كانت خلقا لشىء لم يكن موجودا . فبدأ بمحاولة لتعويد الأهالى على الاستقرار فارسل سنار ١١٨ فلاحا مصريا ليعلموا الأهالى الطرق الزراعية كما أرسل إليها المهندسين والصناع لعمل السواقى بعد أن حفرت الآبار فبلغت ٥٠٠٠ بئرا وحفر الترع محاولا إدخال نظام الرى الدائم كما فعل

فى مصر وشجع الأهالى على أحتراف الزراعة .

وحين زار السودان فى سنة ١٨٣٩ وزع على الأهالى مائة الف فدان علاوة على ما كان فى يدهم واعفاهم من الضرائب خمس سنوات وإذا ما فتح إقليم التاكة فى ١٨٣٠ انشأ به خزانا لخزن مياه الفيضان لأنها كانت ولا زالت تندفع اندفاعة واحدة فى السنة لمدة محدودة فكان هذا الخزان بمثابة محاولة للاستفادة بالمياه فى غير اوقات مجيئها لا من اجل الرى فحسب بل من اجل تكوين تربة جديدة كما ادخلت زراعة القطن وقصب السكر والنيلة

اما التجارة فقد احتكرها محمد على كما فعل فى مصر . فمنع التجار من الولوج إلى الداخل طالما هو يعمل على جمع الرقيق حتى اذا تبين له عدم صلاحيتهم للجيش فتح للتجار اسواق الجنوب كما ذكرنا . واحتكر تجارة الصمغ وكذلك فعل فى النيلة والقطن وكان مجال الصناعة ضيقاً بمصانع النيلة فى مرو وحنك والحفير كما حاول استخراج الذهب من بنى شنقول إلا أن ما استخرج فيه لم يف بتكاليفه .

وفى سنة ١٨٤٩ ألغى عباس ما كانت تحتكره الحكومة وخاصة الصمغ وتركه لمن يشاء من الأوربين وغيرهم وكانت كثرة ورود التجار الأجانب مستندين على الامتيازات الأجنبية قد انقصت إلى درجة ملحوظة حقوق سيادة الدولة على الأجزاء الداخلية .

وكان إسراف الجند فى أعمال السلب والنهب أيام سعيد من أجل جمع الضرائب سبباً فى مزيد من الانهيار الاقتصادى فى السودان حين هربت القبائل من قراهم وخاصة فى الشرق إلى إتيوبيا ولكن أثناء زيارته للسودان

قصر إختصاص الجيش أعلى حفظ الأمن . وترك لمشايخ القبائل أربعة فدادين دون ضريبة من أجل مساعدتهم فى جمع الضرائب وأمر أن يدفع الجيش ثمن ما يشتريه من الأهالى بزيادة مقدارها ٢٢ ٪ .

وفى أيام إسماعيل أهتم بزيادة الأرض المزروعة قطنا فبلغت ٣٦٫٦٠٠ فدانا فى منطقة كسلا . و١٠ آلاف فدانا فى منطقة بربر ترويها ٦٥٠٠ ساقية كما نجحت زراعة الدخان فى كسلا . والبن فى هرر وأرسل إلى السودان عدداً من العمال المصريين لتدريب السودانيين على أحتراف الحرف .

ومن أجل التجارة اشتريت مصوع وسواكن من السلطان ليضمن للسودان مخرجا على البحر الأحمر ووسعت اختصاصات المجالس المحلية التى أنشأها سعيد وجعل لها حق بحث المنازعات التجارية والنظر فى التظلمات وعاون على تأسيس شركة السودان من أجل تشجيع التجارة .

الحملات الكشفية

بدأ الحكم المصرى فى السودان ومعظم أفريقيا لا يزال مجهولا حتى لقد سماها الأوربيون بالقارة السوداء . فاهتم محمد على بكشف المنابع العليا للنيل إذ كان العالم يعتقد أن ما كشفه جيمس بروس لبحيره طانا فى أواخر القرن الثامن عشر هو المنبع الوحيد للنيل .

وكان أول من أرتاد منابع هضبة البحيرات هو البكباشى محمد سليم قبطان الذى أرسل فى ثلاث رحلات بين سنتى ١٨٣٩، ١٨٤١ وصحبه فى الرحلة الأولى مجموعة من العلماء الأوربيين من أمثال دارنو وساباتييه وتيبو الفرنسيين

وفلدن الألمانى .. ووصل القبطان سليم فى رحلتيه الثانية والثالثة إلى خط ٤° شمالا وكانت المعلومات التى دونتها الحملة ثمينه جداً لمن جاء بعده من المستكشفين الأوربيين .

وتقدم باتريك فى سنة ١٨٥٣ حتى وصل بحر الغزال ومنها واصل تقدمه حتى حدود الزاندى وكان باتريك هذا تاجراً ظل يزاول نشاطه حتى سنة ١٨٥٨ وحين عاد إلى بلاده فى سنة ١٨٦١ ونشر معلوماته عينته الجمعية الجغرافية عضوا بها وكلفته بالسفر إلى أعالى النيل لمقابلة المستكشفين سبيك وجرانت لامدادهما بالقوارب والحبوب ولكنه لم يفعل وتكفلت حكومة مصر برحلة الفريد بينى فوصل إلى غندكرو فى سنة ١٨٦١ وزار بلاد النيامبارا فى الغرب .

وبدأ عهد إسماعيل بصمويل بيكر الذى زار منطقة أعالى النيل قبل ان يعين حا كما عليها فاستكشف بحيرة البرت فى سنة ١٨٥٤ ثم وصل إلى باشلالات مرتشيزون عند رأس بحيرة فيكتوريا ثم عين بعقد لمدة أربع سنين بغرض كشف هذه الأجزاء وتأسيس تجارة مشروعة هناك فوصل فى كشفه إلى حدود بوجندا .

وأعقبه جوردون حين عين حكمدارا لمديرية خط الاستواء فنجح فى رسم خريطة دقيقة للنيل من الخرطوم حتى الرجاف وحين وصل مساعده شاييه لونج إلى بوجندا رحب به ملكها وقتل لذلك ثلاثين رجلا من عبيده وساعده فى الوصول إلى بحيرة فيكتوريا فوصفها فى تقاريره . ونستطيع نحن أن نرى فى هذا الوصول علاقة ما بين مصر وبوجندا الدولة الأفريقية المستقلة التى كانت قائمة حول بحيرة فيكتوريا . وكلف جوردون مرافقه جسى الإيطالى بكشف

بحيرة البرت فأقلع إليها فى سنة ١٨٧٨ وطاف بشواطئها ووصفها وصفاً تفصيلياً وأكد عدم وجود نهر يصب فيها غير نهر سمليكى من الجنوب والنيل من الشمال . فكان أول من ارتاد هذه البحيره وقدم السودان طبيب روسى هو جونكر فوصل الخرطوم بعد أن طاف بالسودان الشرقى . وسافر بمونة جسى إلى النيل الأبيض ونجح فى كشفه .

وفى سنة ١٨٧٨ عين أمين باشا حكمدارا لمديرية خط الاستواء فمكث بها حتى قامت الثورة المهدية وانقطعت أسباب إتصاله بالخرطوم واضطر إلى الخروج من البلاد عن طريق الجنوب مصطحبا فرقة من الجنود السودانية أبى أعضاؤها أن يخلعوا عنهم ولاءهم للخديوى فكشف نهر سمليكى كما كشف بحيرة أدوار مما يؤكد وجود العلاقة بين مصر وبوجندا بل مع بونيورو التى كانت إحدى الممالك الأفريقية القائمة فى هذا الجزء من القارة أما فى الشرق فلم يكد يتم فتح هرر حتى نشطت أعمال الكشف وكان الضابط محمد مختار من أعظم من ساهموا فيها لاسيما فى منطقة الصومال . كما أتم عبد الله فوزى رسم خريطة لمدينة هرر كما قام الضابطان عبد الكريم عزت وأحمد وعدى برسم خريطة لكل المنطقة الشرقية لزيلع حتى منطقة شوا الاتيوبية كما رسما حكمدارية هرر فى خريطة بينا عليها أسماء القبائل واماكن استقرارها كما قام محمد عزت بكشف المنطقة بين تاجورة وبحيرة اوسا .

محاربة تجار الرقيق :

سبق أن سجلنا على محمد على اشتغاله بجمع الرقيق من أجل أن يجعل منهم جيشا له وكانت تجارة الرق إذ ذاك مشروعة تعمل فيها شركات أوروبية تحت سمع وبصر حكوماتهم وإن ارتفعت بعض الأصوات فى انجلترا تنادى بتحريم هذه التجارة . ولم يلبث أن انضمت أصوات العالم إلى هذه الناحية وأخذ صوت تحريم هذه التجارة يرتفع شيئاً فشيئا حتى أصبحت هى الصيحة الغالبة فى العالم .

ولكن شيئاً هاما يجب أن نلاحظه وهو أن الرق فى السودان لم يكن يجرى على نحو مماثل لما كان يجرى فى العالم اذ لم يكن سوى جزءاً من نظام اقتصادى قامت عليه الحياة الاقتصادية وهو أن الرق كان متجها إلى استعمال الرقيق فى المنزل لمساعدة أصحابه اذ لم تكن السيدة السودانية تعمل بيدها فى منزلها مطلقا فكان الرق هناك رقا منزليا فقط ولم يكن متجها إلى تجنيد العدد الهائل من الرقيق لإنتاج الدخان أو قصب السكر أو غير ذلك من المحصولات كما هو الحال فى أمريكا أو البرازيل إذ كانت الزراعة ضعيفة وكان الرعى هو أساس الحياة الاقتصادية ولذا أصدر سعيد أمراً بإلغاء تجارة الرقيق أثناء زيارته للسودان فكان من جراء ذلك أن انسحب التجار إلى أعالى النيل حيث كونوا الكومبانيات كما ذكرنا .

ولكن الحال اختلف أمام إسماعيل . فإذا ما عين صموئيل بيكر حاكما لإقليم بحر الغزال نصت المادة الثانية من عقده على أن يعمل على القضاء على تجارة الرقيق واستعمل السير صموئيل بيكر، وسائل اتسمت بالشدة والعنف من أجل الضرب على يد تجار الرقيق مما كان سبباً فى إثارة عداء الأهالى ،

ولكن انتهاء عقده أدى إلى عودة الحال إلى أكثر مما كان ، فوقع اختيار الحكومة على جوردون لإنشاء الحكومة الموطدة فى الجنوب حيث أخفق صموئيل بيكر . فكان إدخال السفن المصرية إلى بحيرتى فكتوريا والبرت أهم الأمور التى طلبها جوردون من أجل فتح هذه الأجزاء للتجارة المشروعة فأصدر جوردون أمراً باحتكار تجارة العاج ومنع أى شخص من الذهاب إلى الجنوب مالم يحمل إذنا بذلك كما أمر بحل الجماعات المسلحة وهى التى كانت الكومبانيات قد كونتها . ويبدو أن ذلك لم يكن كافيا فصدر فى فبراير سنة ١٨٧٢ قرار حكومى باحتكار الحكومة لكل أنواع التجارة فى أقاليم النيل العليا كما بدأ جوردون يقيم سلسلة من المحطات العسكرية على طول النيل الأبيض الأعلى كما ذكرنا .

وكان استيلاء الحكومة على مصوع وسواكن ثم هرر خطوات ضرورية لأجل مد سلطة الحكومة على البحر الأحمر وبذلك قضى على تجارة الرقيق فى تلك الانحاء ولم تلبث سلطة الحكومة أن امتدت حتى رأس جوردفاى ومن موانى هذا الجزء كان رقيق إثيوبيا يصدر إلى الجزيرة العربية .

واتصلت الحكومة البريطانية باسماعيل وانتهى هذا الاتصال إلى إبرام معاهدة تحريم الرقيق فى الأملاك المصرية وأهم ما جاء بها ،

١ — منع تجارة الرقيق.

٢ — إنزال العقوبة بالمتجرين وتسليم الأجانب منهم إلى قناصلهم لمحاكمتهم .

٣ — تزويد الرقيق المحرر بأوراق العتق .

٤ — استخدام الرقيق المحرر فى أعمال مناسبة .

٥ — اهتمام الحكومة بتربية أولادهم .

٦ — إعطاء الطرادات البريطانية حق تفتيش السفن المصرية فى البحر الأحمر .

ووضعت الحكومة المصرية كل الخطوات اللازمة لتنفيذ هذه المعاهدة . مما أدى إلى ثوره سلطان دارفور فهاجم الفاشر ، فبادر جوردون بالهجوم عليه مما كان سببا فى غضب السكان الذين منع عنهم الرق المنزلى ، ووجد هذا الغضب صدى طبيعياً فى نفس تجاره السابقين، وكان هذا الغضب وقوداً للثورة المهدية التى كانت ترى أن تجارة الرقيق مشروعه لم يحرمها الدين بل حرمها المسيحيون فقط من أجل امتشاق الحسام ضد الإسلام .

الحياة الحضارية :

رأينا كيف قسم السودان منذ اللحظة الأولى لامتداد الإدارة المصرية إليه إلى مديريات ذوات عواصم واتجهت إلى هذه المديريات مجموعات من الموظفين المصريين الذى عاشوا فى هذه المدن حياة أقرب إلى الحضر وأبعد عن البداوة وزودت كل مديرية بجهاز من الكتاب بينهم قاض ومفتى. وبدء ببناء مدينة الخرطوم وفق تصميمات وضعت مقدما كما بدء ببناء قصر للحكمدار وآخر للحكومة من طابقين بالطوب الأحمر، ثم ثكنات الجيش وشجع الناس على بناء

بيوتهم بالطوب . وكان تشجيع الناس على احتراف الزراعة يشجعهم على الاستقرار وترك حياة الرعى والتجول ، فكان ذلك ابتداء ظهور المدن كالخرطوم وكسلا وكانت بها الجوامع والدواوين وعنيت الحكومة بإنشاء الطرق وتعبيدها فى دنقلة والخرطوم .

ومن أجل سرعة الاتصال بكل أجزاء السودان البعيد والقرى أصلح البريد ومدت خطوط التليفون والتلغراف وجعل إرسال السفن البحرية والنهرية وفق مواعيد ثابتة منتظمة وصار البريد ينقل إلى سواكن أسبوعياً وبدء بمد خط حديدى من حلفا إلى سرس .

الحياة الثقافية :

يذكر كتاب الطبقات تأليف ود ضيف الله أن بلاد الفونج لم تشتهر بها مدرسة علم ولا قرآن ولكن كان من يدعى محمود العركى قد تعلم فى الأزهر وتتلمذ على شيخين به من شيوخ المالكية فكان — إذا عاد إلى موطنه — أول من نشر أحكام الدين الإسلامى فى منطقة النيل الأبيض. أما ما يليها من جزيرة سنار التى كانت خالية من معاهد العلم ومعاهده فقد أسس بها سبعة عشر مدرسة بين الحسانية والكوة ، كما قدم إلى السودان بعض مشايخ الطرق الصوفية فكانت زواياهم مزدحمة بانصارهم، وأشهر هذه الطرق القادرية والشاذلية والسمانية والمرغنية أو الختمية . أما فى دارفور فقد كان بها أربعة أو خمسة مكاتب لتعليم القراءة وكانت كلها عبارة عن غرفة واحدة . هذا بينما كان الفقيه أو شيخ الجامع يتمتع بمركز اجتماعى ممتاز يحتكم إليه الناس فى حل مشاكلهم الخاصة وغالباً ما كان كل شيخ يمتلك مجموعة من الكتب أحضرها من القاهرة .

وإذا ما امتدت الإدارة المصرية إلى السودان عنى محمد على كما ذكرنا بتعليم السودانيين بعض الحرف فأرسل إلى السودان بعض الحرفيين مثل عمال دبغ الجلود وكذلك بعض النجارين الماهرين فى صناعة السواقى فبلغ عددهم اثنى عشر ومعهم ثلاثة من الغواصين لحفر آبارها، بل طالب محمد على من خورشيد باشا أن يصل بالسودان إلى درجة الاكتفاء الذاتى من الفنيين فى مجالات الصناعة، ولكن لم يعن أحد بفتح المدارس بالمعنى المفهوم لتعليم أبناء وأهالى السودان، ولكنه حين عاد إلى مصر بعد زيارته للسودان صحب معه ستة من أبناء وجهاء السودانيين ليتعلموا فى مصر حتى اذا وصلوا صدر أمره بتعليمهم الزراعة وأمر المدرسة أن لا تفرق بينهم كى لا يشعروا بالغربة ،وحين شرع فى ارسال البعوث الى الخارج لم يفرق بين أبناء مصر وأبناء السودان الذين كان يدرسون بمدرسة الألسن ، وبعد أن أتموا تعليمهم عادوا وشغلوا بعض الوظائف الهامة كزملائهم السودانيين .

هذا فى الوقت الذى استقبل فيه الأزهر بعض من قدموا من تلقاء أنفسهم، وعندما علم محمد على بذلك أمر بصرف الجراية لهم كزملائهم من المصريين وزاد عددهم بعد ذلك حتى أصبح لهم رواق عرف برواق السناريين .

وكان عباس أول من فكر فى إنشاء مدرسة بالسودان اذ كان قد استوطن هناك بعض الأتراك ومعهم أبناؤهم فأنشئت فى الخرطوم لهم مدرسة على غرار مدرسة المبتديان كان بها ٨٤ طالباً وعين رفاعه بك ناظراً لها وكانت نفقاتها تبلغ ٣٨٠ قرشاً شهرياً ولكن إنشاء هذه المدرسة لم يأت بنتيجة اذ كان الغرض الأصلى من إنشائها نفى رفاعه بك،وبعد سبعة أيام من وفاة عباس ألغيت المدرسة ، بينما استمر التعليم الدينى الأهلى وساعد على استمراره استقرار الأمور فى السودان واستمرار انتساب السودانيين الى

رواق السناريين ، واستمر سعيد فى تشجيعه بمد يد المساعد له .

واذا ماتولى اسماعيل كان عهده مختلفا جداً عمن سبقوه ، اذ أمر بانشاء مدرسة لتعليم الصبية حين اقترح الحكمدار موسى فؤاد انشاء خمس مدارس ، فأنشئت فى الخرطوم وبربر ودنقله و كردفان والتا كة والتحق بكل منها مائة تلميذ عدا مدرسة الخرطوم التى حدد لها ٢٠٠ تلميذاً ، وعين لكل مدرسة مدرس واحد اشترط أن يكون ملماً بالتركية والنحو والصرف والخط بأنواعه وبلغت ميزانية هذه المدارس ١٩٩٦ قرشاً شهرياً ، وفى نفس الوقت قدم كثير من السودانيين للالتحاق بمدارس مصر واستمرت هذه المدارس قائمة برسالتها فأخرجت لنا بعض الموظفين الأكفاء الذين عملوا فى دواوين الحكومة ، وعندما امتدت الإدارة المصرية الى بربره وزيلع وهرر أفتتحت بها عدة مدارس لتعليم القراءة والكتابة ثم افتتحت مدارس فنية مثل فن تعليم التلغراف وكان شرط الالتحاق بها أن يكون الدارس بها من خريجى مدارس السودان الأميرية ، هذا فى الوقت الذى ظلت فيه المساجد تقوم برسالتها بالتفقيه فى الدين وتدريس القرآن وقامت الحكومة بترميم بعضها واجراء المرتبات لبعض فقهائها حين يرفع فقاؤها التماسات إلى الحكومة بذلك .

الادارة المصرية فى السودان:

ليس من شك فى أن محمد على كان أول من جمع هذه الأقاليم الواسعة التى تقع جنوب مصر وأطلق عليها اسم السودان واخضعها لحكومة واحدة . وتمكن الحكم الجديد من أن ينشر هناك الأمن والنظام وكانا معدومين قبل ذلك واذا كان هذا الحكم قد شابه بعض المساوىء ولكنه ولاشك أتى بخير كثير فقد نفذت هناك بعض المشروعات . فقد أدخلت الزراعة وزرعت

محصولات جديدة ، ومن أجل الزراعة أقيمت مشروعات كلفت مصر كثيراً من المال كما مدت بعد ذلك خطوط التليفون والتلغراف الى أقصى الجنوب والشرق وانتظمت السفن المصرية تصل أجزاء البلاد ببعضها بل انشئت به المدارس .

وقد حاول محمد على أن يستغل السودان من أجل مصالح مصر الاقتصادية ولكن ما نفذ من المشروعات بعد ذلك قصد به مصلحة السودانيين قبل مصلحة مصر ، وهاجر إلى السودان بعض المصريين وسكنوا المدن وتصاهروا إلى السودانيين ولم يتعالوا عليهم وحاول المصريون أن يكونوا حكومة فى هذا الجزء من الدولة المصرية إلا أنه استعين بعد ذلك بالسودانيين وترك لرؤساء قبائلهم تدبير أمر من دونهم بالاشتراك مع الحكام . أى أنه اتبع فى حكم السودان طريقة الحكم غير المباشر التى أدعى البريطانيون أنهم كانوا أول من نفذها فى حكم الأجزاء الأفريقية من امبراطوريتهم ، وأخيراً يجب أن نتذكر أن الحكم المصرى فى السودان كان تجربة لمصر لم يسبق لها مثيل بل لم يسبق لدولة أخرى فى العالم القيام بمثلها فكان وقوع هذه الأخطاء بل أعظم منها أمراً متوقعا .

٢ ــ فرنسا تغرى محمد على بفتح الجزائر :

منذ سنة ١٨٢٩ ساءت علاقة فرنسا ببلاد الجزائر بسبب عدم رغبة فرنسا فى تسديد باقى ثمن القمح الذى كانت قد اشترته من الجزائر أيام الحصار القارى.

وكان ثمن هذا القمح ثمانية ملايين من الفرنكات دفعت فرنسا نصفه وقت الشراء ، وفى سنة ١٨١٩ بلغ الباقى مع ما تراكم عليه من فوائد سبعة

ملايين من الفرنكات دفعت فرنسا منه ٤ مليون ونصف وبقى مليونان ونصف ، وكرر الداى طلب هذا المبلغ أكثر من مرة . وفى يوم عيد الأضحى ٣٠ أبريل سنة ١٨٢٧ اجتمع القناصل لدى الداى لتهنئته، فسأل الداى قنصل فرنسا عن هذا المبلغ فأجاب القنصل أن جلالة الملك لن يتنازل بالرد عليه، فثار الداى وأمر القنصل بالخروج من حضرته بعد أن ضربه بمروحة فى يده، فاحتجت فرنسا وطالبت بترضيات معينة ، ولما لم تجب إلى مطالبها حاصر الأسطول الفرنسى سواحل الجزائر لثلاث سنوات . وفى خلال ذلك وصل من قنصل فرنسا بالقاهرة إلى الحكومة الفرنسية تقرير يعرض مشروع حملة لتأديب الجزائر على أن يقوم بها محمد على والى مصر على أن يقيم هناك حكومة على شىء من النظام كما فعل فى مصر ، وظنت فرنسا أن هذا العمل سوف يجد ترحيبا من كافة الدول الأوربية بعد أن فاض كأس سخطها على الجزائر، لكثرة ما تعرضت له سفنها من غارات القرصان الجزائريين الذين استولوا خلال الربع الأول من هذا القرن على أكثر من ٤٠ سفينة أوروبية،وامتدت المفاوضات بين القنصل الفرنسى والباشا وانتهت إلى رضى محمد على القيام بهذه الحملة إذا دفعت له فرنسا عشرين مليون فرنكا وأربع قطع بحرية من الاسطول الفرنسى على أن يتعهد بالقضاء على القرصنة فى البحر المتوسط ويدفع جزية سنوية للسلطان ، هذا فى الوقت الذى عرض سفير فرنسا فى استنبول الأمر على الباب العالى ليحظى بالموافقة السلطانية،ولكن انجلترا سرعان ماعرفت بالمشروع من رجال استنبول،ولم يكن يرضيها امتداد نفوذ محمد على على طول الساحل الشمالى لإفريقيا ولا زيادة قوته البحرية بعد أن تحطم أسطوله فى نوارين . وعرف محمد على بعدم موافقة انجلترا على المشروع وكان رضى انجلترا ضروريا لمشروعاته لاسيما امتداد نفوذه على سوريا فأرسل يعتذر إلى القنصل الفرنسى عن عدم قيامه بالمشروع (لأنه سوف يؤدى إلى غضب العالم الإسلامى عليه).

٣ ـ العلاقة مع إثيوبيا :

ودولة أخرى عملت مصر على استمرار العلاقة بها خلال هذه الفترة هى اثيوبيا التى كانت فى هذا الوقت تعانى حالة من الفوضى البالغة ، فقد انقسمت البلاد منذ أواخر القرن السابع عشر بين عدد من الرءوس الكبار. وفى بداية القرن التاسع عشر كان عدد الرءوس المتنافسين ثلاثة هم الراس عالى الذى كان يسيطر على اقاليم بجه مدر، ودمبية وولكايت المتاخمة للحدود السودانية عند منطقتى كسلا والقضارف ثم ضم اليه جودجام واستقر فى جوندار مدعيا لقب نجوس نجست ، واعترفت به فرنسا وارسلت إليه وفدا امبراطوريا يحمل هذا الاعتراف بينما كان الراس كاسا يسيطر على الاقاليم الشرقية والراس ووبى على الأقاليم الشمالية الشرقية فى تجرى . هذا فى الوقت الذى وقف فيه الراس سهلاسلاسى بعيداً عن هذه المعركة لا يحاول التدخل فيها مادام هؤلاء بعيدين عنه رغم انه كان الممثل الشرعى للأسرة السليمانية ، التى تدعى نسبها إلى منليك الأول بن ملكة سبأ من سليمان ملك القدس . وأرسل الراس عالى إلى مصر بطلب تعيين مطران مصرى يتوجه فأرسلت له الأنبا سلامة الثالث ، ولكنه لم يكد يصل حتى وجد الراس كاسا قد سحقه وجلس على العرش باسم تيودور الثانى فى سنة ١٨٥٥ وكانت هذه الفوضى فى الأقاليم المتاخمة للسودان سبباً فى تبادل الهجوم بين القبائل السودانية والإتيوبية كما أن مطاردة حكومة السودان لقبائل اقليم التاكة تشجع على هذه الفوضى أيضاً وكان نهب القرى السودانية والإتيوبية عملا يتبادله الطرفان.

ولم تكن علاقة الاتيوبيين بالانبا سلامة الثالث علاقة طيبة دائماً ، بل سرعان مادب الخلاف بينه وبين الاكليروس الاتيوبى حول مسائل دينية فرأى البابا بطرس الجاولى أن يحاول حسم الأمر فأرسل لهم الراهب داود

الانطونى ففشلت وساطته رغم الرسائل التى ارسلها البطريرك إلى كل من المطران والامبراطور تيودور وعاد الراهب داود وهو ممتلىء غضباً لهذا الفشل.

ولكنه لم يكد يصل إلى مصر حتى وجد البابا بطرس الجاولى قد مات وانتخب هذا الراهب داود بطريركا مكانه بأسم البابا كيرلس الرابع . هذا بينما كانت الإضطرابات على الحدود الأثيوبية تزداد حدة فأراد سعيد أن يجرب طريق القوة لاسيما والرجل كان فخوراً بجيشه شديد العناية به ، ولكن السلطان العثمانى كان تواقا لأن يحرم تابعه حرية العمل ، فلم يجد سعيد بدا من اللجوء إلى طريق المفاوضه ففاتح البابا كيرلس الرابع فى أن يرسله إلى إثيوبيا ليقوم بالوساطة فقبل الرجل على مضض منه إذ كان يرى أن واجبة كرأس للكنيسة المصرية أن يقيم السلام بين الجارتين وهى السياسة التى جرت عليها الكنيسة المصرية فى تاريخها الطويل . فرضخ للامر وتجهز للسفر وأمر سعيد أن تجهز له باخره نيلية تسير به صوب السودان كما جهزت له الخيول والجمال ليستعملها الوفد خلال رحلته بعد ذلك ، وسمع الإمبراطور تيودور بخبر هذه الزيارة فاستعد لها إذ هى الفرصة أمامه ليقوى مركزه . ويقضى على كل مايبذله أعداؤه من جهود للقضاء عليه .

ووصل البابا إلى إثيوبيا فاستقبله الإمبراطور بكل مايليق به من الاحترام ولم يكد البابا يفاتحه فى المهمة التى قدم من أجلها حتى أظهر ارتياحه وأمر ببذل الجهد لمنع اعتداء القبائل الإثيوبية على الحدود السودانية بل حاول تحديد الحدود بين الدولتين بصفة قاطعة ، وهنا ظهرت الدسائس الأوروبية لتلعب دورها التقليدى . فتقدم القنصل الفرنسى إلى سعيد ليؤكد له اتفاق كل من البطريرك والإمبراطور تيودور على غزو مصر بينما اكدت الدسائس فى بلاط تيودور أن زيارة سعيد باشا للسودان (وقد حدثت فى هذا الوقت) ليست إلا تمهيدا

للغزو المصرى المرتقب الذى أرسل البابا لفرض حجبه ، فكانت هذه الدسائس سبباً فى اهانة الامبراطور للاب البطريرك على نحو ما أجمعت عليه الروايات المختلفة ، ولكن سعة حيلة البطريرك وعمق تفكيره كانتا وسيلة إلى تبديد هذه الشكوك واثبات براءته وبراءه سعيد .

وسرعان ما كفر تيودور عن سوء ظنه بالاعتذار الكامل إلى البابا كيرلس الرابع وتوقيعه اتفاق صداقه وتسييره الهدايا إلى سعيد باشا يحملها وفد اثيوبى استقبله سعيد بالتحية والأحترام .

ولكن اسماعيل لم يلبث أن نقض هـذه السياسة القائمة على الصداقة واستبدل بها سياسة جديدة قائمة على الغزو وسوء التفاهم والعداء .

كانت العلاقات قد ساءت بين الملك تيودور الثانى الذى جلس على العرش الأثيوبى فى سنة ١٨٥٥ وكل من انجلترا وفرنسا إذ أرسل إلى كل من ملكة إنجلترا وامبراطور فرنسا خطابين كان الهدف الحقيقى منهما الاعتراف به امبراطورا على إثيوبيا ولكن فرنسا كانت على وشك الاعتراف بالراس وبى نجوس نجست حتى تغلب عليه تيودور ولم تكن فرنسا مستعدة بهذه السرعة إلى الاعتراف به ، كما كانت انجلترا على عداوة مع سعيد باشا والى مصر لأجل ميله إلى فرنسا ، والذى حدث أن أهملت كل من انجلترا وفرنسا الرد على خطابى تيودور ، فغضب لذلك وقبض على الرعايا الاجانب المقيمين باثيوبيا سواء منهم المشتغلين بالتجارة أو المبشرين وأودعهم السجن ، ومن بينهم القنصل البريطانى فأثار ذلك غضب بريطانيا وفرنسا فأرسلت الاولى إلى اسماعيل لاستخدام نفوذه فى التوسط بين الطرفين فارسل اسماعيل كتابا إلى تيودور فى

أكتوبر سنة ١٨٦٧ ينصحه بإطلاق سراح الرعايا البريطانيين ويحذره من مغبة عمله ويخوفه من قوة انجلترا.

والحق أن اسماعيل لم يكن لبقا فى هذا الخطاب وأكبر الظن أنه كان مملى عليه لأن تيودور لم يكن الرجل الذى يخاف التهديد ، وحياته كلها حياة عناد مع كل من يقف فى وجهه، بل كان أولى به أن يفعل كما فعل سعيد فيرسل إليه البابا البطريرك يأخذه باللين والتحايل . فلذا كانت النتيجة اصرار تيودور على خطئه مما جعل انجلترا تقرر إرسال حملة حربية على إتيوبيا تتمكن بها من اطلاق سراح المعتقلين وارسلت إلى اسماعيل تعلمه ذلك وتطلب منه إذنا بمرور الحملة خلال السودان . ولما كان اسماعيل حريصاً على إرضاء بريطانيا لأنه عالم بقوتها وخاصة لدى الباب العالى فإنه رضخ لهذا الطلب وأرسل إلى عبد القادر باشا محافظ مصوع بأمداد الجيش البريطانى بما يطلب فكان هذا بداية العداء بين مصر وإتيوبيـــا . بل وأكثر من ذلك وضع بعض سناجق الباشيوزق (الجيش غير النظامى) فى ميناء زولا المصرى لتقديم التسهيلات اللازمة للحملة ، كما وضع ستامن الفرقاطات لمساعدة السفن الإنجليزية القادمة من الهند، كماقدم إلى الحملة حين قدمت مايلزمها من المؤن وسمح لبعض التجار المصريين بمرافقة الحملة والتعاون معها ، والحق أن هذا كله كان أكثر مما يتطلبه الموقف وكأنه عنى بالمزيد من الإساءة إلى العلاقات الاتيوبية المصرية ، بل أنه كان عميلا لبريطانيا ضد دولة أفريقية ما كان يصح أن يقف منها موقف العداء الصريح وهى القادرة على إشاعة الإضطراب على طول الحدود السودانية الأتيوبية فى أكثر من موضع ، عند كسلا أو وراء مصوع أو وراء زيلع مما يجعلنى أقرر أن خوف اسماعيل وسعيه إلى إرضاء بريطانيا هو الذى دفعه إلى هذا الموقف الشاذ .

وارسلت الحكومة البريطانية حملتها إلى إتيوبيا ونجحت فى هدفها وانتحر الإمبراطور تيودور وتمكنت إنجلترا من تنصيب الإمبراطور يوحنا الرابع صديقها على عرش إتيوبيا وهذه كلها أمور لاتدخل فى موضوعنا فلا حاجة بنا إلى التوسع فيها ولكننا نستطيع أن تقول إنها وضعت بذور العداء بين مصر واتيوبيا . بينما وضعت بذور الصداقة من اتيوبيا وبريطانيا .

وكان التوسع المصرى فى البحر الأحمر خطوة أخرى فى سبيل هذاالعداء، فقد عين منزنجر باشا حاكما لمصوع فى سنة ١٨٧١ وكان هذا متزوجا من اتيوبية ، فكأنما أراد أن يريها قوته فخرج ولم يمض على تعيينه عام واحد على رأس قوة استطاع بها احتلال كرن بحجة القضاء على تجارة الرقيق فى تلك الانحاء ، ولم يمض عام آخر على ذلك حتى عين منزنجر محافظا لكل شرق السودان ويشمل اختصاصه سواكن ورهيطة (راضنيا) وكرن وكسلا ولا شك أن رهيطة وكرن كانا أملاكا أتيوبية أكثر منها مصرية. فكان أن غضبت إتيوبيا لهذه الخطوه وفكرت فى أن هذا علاوة على كونها اعتداء على أراضيها فهى تجميع للمسلمين ليحيطوا باتيوبيا التى طالما رأت نفسها جزيرة إتيوبية محاطة بأرض إسلامية لاسيما وقد تبع ذلك ضم زيلع وبربره فى سنة ١٨٧٣ .

ونحن لانستبعد أن يكون ضم بربره وزيلع قد نظرت إليه انجلترا نظرات الغضب فهى منطقة نفوذ بريطانية منذ أن ضمت انجلترا إليها عدن فى سنة ١٨٣٩ من أجل تأمين الطريق إلى الهند فكانت من وراء رجلها يوحنا حين غضب

ولذا وجدنا إثيوبيا تعين الضابط البريطاني Kirkman كيركمان حاكما على إقليم جندا Ginda المتاخم لإقليم بوجوس بل سمحت له برفع علم بريطاني عليه .

واقلعت من السويس في نهاية أغسطس سنة ١٨٧٥ حملة مصرية جديدة لتمكين النفوذ المصري بقيادة ارندروب وصحبه أرا كيل نوبار محافظ مصوع كما أرسلت أورطة عسكرية بقيادة ماكيلوب باشا رئيس الفنارات للاقامة في سواكن لحماية السواحل المصرية وتقديم المعونة اللازمة للحملة .

وقد حرص اسماعيل على أن يوضح لمتزنجر أنه لا يريد الدخول في حرب مع إثيوبيا لأن الوقت غير مناسب (إذ كان يستعد لفتح هرر) بل لا يقصد إلا إرغام يوحنا على اتخاذ الخطوات لعدم تكرار اعتداء قبائلها على الحدود المصرية .

ونزلت الحملة في مصوع وأرسلت فرقة منها إلى اسمرة في أكتوبر فكان أن وضح ليوحنا هدف الحملة المصرية واستعد لها وعبأ جنوده بقيادة الدجز ماتش هايلو وهناك شيء لا يصح أن يغيب عن نظرنا وهو أن المصريين كانوا يحاربون في بلد غريب،طبيعته التضاريسية مختلفة تماما عما تعوده الجنود المصريون بينما الإتيوبيون يحاربون في أرضهم . ومن السهل إثارتهم بأنهم يدافعون عن بلدهم بينما الجندي المصري لم يكن يفهم مطلقا هدف الحملة ولا ماذا يكمن وراءها . ورفض الملك يوحنا ما عرضه عليه ارندروب من صلح بين الدولتين فكان هذا الرفض وعدم التقاء المصريين بأي مقاومة قد زاد من غرور ارندروب فتقدم نحو عدوه وهو يحاول أن يضم إليه القبائل الإتيوبية بتوزيع السلاح والمال فوجدوا قوة الملك يوحنا وقد بلغت سبعين ألفا قد عبرت النهر وماهى إلا لحظة حتى وجدت طليعة القوات المصرية المتقدمة نفسها وقد

اصطدمت بالقوة الإثيوبية فلا غرابة أن سحقت طلائع القوة المصرية وقد بلغت ألفا وقتل قائدها ارندروب وكذلك أرا كيل نوبار محافظ مصوع وسقطت كل ذخيرتها في يد العدو وتقدم الإثيوبيون لملاقاة القوة المصرية المتأخرة ولكن هذه الأخيرة كانت قد عرفت أخبار من تقدموهم فلم تجد خيراً من التقهقر نحو مصوع في سرعة وعدم نظام .

ولم تكن غزوه مصر من ناحية مصوع إلا أحد فكي كماشة أراد بها اسماعيل أن يطوق إثيوبيا ، أما الفك الآخر فكان غزوة الجنوب من ناحية تاجورة وأوسا واتخذ لها أعذاراً هي تنشيط التجارة المارة بإقليم شوا وتدريب سكان تاجورة على ممارسة التجارة المشروعة من أجل الامتناع عن تجارة الرقيق . ثم الوصول إلى منليك ملك شوا (خليفة الملك سهلا سلاسي) وهو العدو اللدود ليوحنا .

ومن أجل تعبيد طريق النجاح أرسل مسبقا إلى زعماء تاجورة يطلب التعاون مع الحملة الواصلة .

وكانت هذه الحملة صغيرة لا تزيد عن ٣٦٠ رجلا تقدموا نحو سلطنة أوسا في اكتوبر سنة ١٨٧٥ منتظرة أن تجد السلطان وقد مهد لها سبيل السير، ولكنه لم يفعل ووصلت أخبار نكبة حملة الشمال في ذلك الوقت فعرف اسماعيل أن وقت الاتصال بمنليك مع أخبار هذه الهزيمة غير ملائم لمصر، ومع ذلك تقدمت الحملة ثم عسكرت على شكل مربع . وماهى إلا بضع ساعات حتى انقض الإثيوبيون ومعظمهم من الجالا على القوات المصرية وهى نائمة وقتل منزنجر وأسرته وكذلك النساء والأطفال وكل ضباط المشاة وقومندان المدفعية واستولى الإثيوبيون على كل الهدايا التي كانت الحملة تحملها إلى منليك .

ولم تر بقية الحملة إلا الانسحاب نحو تاجورة والقوات المعادية تطاردها حتى وصلت تاجورة فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٧٥ ولم يبق منها سوى ١٤٦ رجلا . فكانت هذه الحملة فشلا ثانياً لسياسة مصر مع إثيوبيا .

وخاف اسماعيل أن ينتشر خبر النكبتين بين المصريين ولكنه فى نفس الوقت أخذ يعد حملة ثالثة لتنتقم لها . وكانت نظرة تدل على الغباء أكثر مما تدل على بعد النظر والسياسة السليمة ولكن شاءت الأقدار أن تكون أمور مصر فى يد جماعة هذا حظهم من المهارة العسكرية. وقصر النظر . وسوء تقدير عاقبة الأمور .

وإذا كانت الحملات السابقة قد أغضبت الانجليز فإن حملة التقرب من منليك قد أغضبت فرنسا وهى التى كانت تنظر إلى هذا التقرب وترى تقرب غيرها خطراً على مصالحها المرجوة.وإذا كانت إنجلترا قد نصحت اسماعيل بالتريث ولكن مصر بدأت تعد الحملة فى سرعة حتى لقد أبحرت من ثغر السويس فى ديسمبر من نفس السنة . وكانت تحت قيادة راتب باشا والحق بها الأمير حسن بن اسماعيل برتبة اميرالاى وقد بلغت ١٢٠٠٠ بين مقاتل ومهندس .

ونزلت الحملة بميناء مصوع، وواجهت منذ اللحظة الأولى مصاعب ليست باليسيرة كان أهمها نقص الماء وقلة مامعها من حيوانات الحمل حتى لقد بادرت بمصادرة حيوانات الأهالى بلا ثمن خصما على الضرائب المطلوبة ووجهت إلى الزعماء نداء بأنها لاتقصد غزوا ولا فتحا بل لتأديب الملك يوحنا الذى كثيراً ماتعرض للمسلمين فى معتقداتهم .

وكان تقدم الحملة بطيئا أتاح للملك يوحنا وقتاً للاستعداد وبدأت فى التقدم فى أخر يناير سنة ١٨٧٦ واختير سهل قوع لتكون ميدانا لها ووصل إليه الجيش المصرى فى مارس وسرعان ما شاهدت على المرتفعات المقابلة له

كتلا بشرية تبدو كالنمل لكثرة عددها وما أن رأت القوات المصرية حتى اندفعت كالسيل الجارف . فتوقفت المدفعية عن الضرب دون صدور أمر لها بذلك ، وأخذ الجيش يتقهقر تلقائياً فكان التحاما فنيت فيه فرق مصرية بأكملها وانتهت هذه الحملة بدورها على نحو ما انتهت الحملات السابقة من هزيمة كاملة ولاشك أن هزيمة السياسة المصرية هناك كانت فى حد ذاتها نصراً لفرنسا وإنجلترا معاً . بل كل القوى الأوروبية التى كانت تتطلع إلى هذا الركن من أفريقيا ومعهم إيطاليا .

أما فى الداخل فليس بمستغرب أن يغضب لهذه الهزيمة ضباط الجيش المصرى مثل عرابى الذى لابد أنه فكر فى الأمر مرة ومرات حتى رأيناه فى النهاية يتقدم إلى الخديوى توفيق يطالب بإصلاح الجيش المصرى بوضع المصريين موضع الثقة فى جيشه ، وقد تكون هذه الظروف نفسها قد أسهمت فى دفع السودان إلى الثورة على الحكم المصرى أيضا . لا سيما وقد قامت الحرب بين تركيا والصرب وطلبت تركيا من مصر المساهمة فيها فأرسلت إليها فرقة مصرية سحبت من الجيش المصرى فى السودان وكان ذلك فى سنة ١٨٧٧.

وبدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين المتحاربين بخطاب من الملك يوحنا إلى السردار راتب باشا يطلب اللجوء إلى الطرق السلمية لحل كل خلاف بين الدولتين ورحب القائد بهذا الطلب وأرسل به إلى مصر فاعربت هى الأخرى عن حسن نيتها لاسيما وقد بدأت فى سحب فى قواتها فى أعداد متتالية نشرت أوامرها فى الوقائع المصرية وتقابل المندوبون الإثيوبيون والمصريون وقد زود الاخيرون بالهدايا إلى الملك يوحنا وكان لتدخل فرنسا وإنجلترا فى شؤون مصر الداخلية فى ذلك الوقت وضغطهما على اسماعيل للمحافظة على مصالح رعاياهما ثم زيادة تدخلهما لدى الباب العالى لحمله على تغيير الوضع القائم فى مصر

أثره على اسماعيل وقبل أن يعقد الصلح عزل اسماعيل فى سنة ١٨٧٩ ووضع مكانه فى الخديوية ابنه الضعيف توفيق الذى شعر بجميل إنجلترا عليه ، وكان طبيعياً أن تتدخل انجلترا فى المفاوضات كطرف ثالث فيها ووقعت اتفاقية عدوة مع مندوبى كل من إتيوبيا ومصر وكان ذلك فى يونيو سنة ١٨٨٣ وكانت موادها كالآتى :

١ — السماح لإتيوبيا باستعمال ثغر مصوع كمدخل لتجارتها .

٢ — ترد إلى إتيوبيا بلاد بوجوص وكذلك ابيديت وسنهيت .

٣ — تقــدم إتيوبيا كل ما لديها من تسهيلات لإنسحاب المصريين إلى مصوع .

٤ — يقدم امبراطور إتيوبيا كل التسهيلات لتعيين رجال الدين المصريين .

٥ — يتبادل الطرفان المجرمين الفارين من العدالة .

٦ — فى حالة الخلاف بين الدولتين تتدخل حكومة إنجلترا للتوسط .

وبذلك انتهت سياسة اسماعيل الفاشلة مع إتيوبيا .

الثورة المهدية فى السودان وانقطاع العلاقات بين مصر والسودان :

لم يلبث السودان أن عج بالثورة المهدية ويجمع المؤرخون على أن أسبابها الحقيقية تعود إلى سلسلة المآسى التى تحملها السودانيون خلال الحكم المصرى والتى أدت بالشعب إلى الترحيب بالثورة بينما لم يشر زعيم هذه الثورة محمد أحمد بن عبد الله إلى هذه المآسى فى شىء ، بل كان هدفه الذى أعلنه العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى بالتخلص من هؤلاء الحكام (الكفرة) البعيدين

عن روح الإسلام وأن مهمته لاتنحصر فى حدود السودان بل تمتد إلى كل المسلمين فيجمعهم ويبثهم آراءه .

ولم تكن هذه الحركة المهدية السودانية بالأولى التى قامت فى الشرق الأدنى من أجل العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى والتخلص من مظاهر الكفر التى دخلت فى الدين الإسلامى، فقد سبقتها فى العصر الحديث الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية لنفس الغرض ولكنها كانت ترمى فى الواقع إلى الاستقلال السياسى والتخلص من الحكم الذى كان فى رأى قواد الثورتين ممثلا لهذا الكفر .

والتف الناس حول المهدى وأخذوا بمبادئه التى كانت تنحصر فى إنكار المذاهب الأربعة وتحريم الرقص والغناء وشرب الدخان والخمر وتخفيض المهور وإقامة الحد على من يأتى الزنا أو يشرب الخمر وكان طبيعياً أن تلجأ الحكومة المصرية إلى سحق هذه الثورة فأرسلت إليه الحملات الحربية حيث كان يقوم بدعوته فى جزيرة أبا، فتمكن هو من التغلب عليها وخرج المهدى بعد ذلك إلى كردفان وتقلى فآمن به ملك تقلى آدم دابلو وساعده على نشر دعوته ، وبينما كانت الأمور فى مصر تساعد من ناحية أخرى على اشتداد ساعد الثورة فقد كره الشعب حكم توفيق الذى كان يستند على البريطانيين أكثر مما يستند على الشعب المصرى ، ويفضل الأجانب على الوطنيين مما دعا إلى قيام الثورة العرابية وتطورت الحوادث تطوراً أدى إلى اهتمام الحكومة المصرية بأحوال مصر ذاتها أكثر من اهتمامها بالسودان . مما كان سبباً إلى انتشار الثورة المهدية فى كل أجزاء السودان بسبب ضياع هيبة الحكومة من جراء فشلها المتوالى ، لا سيما وقد ساء الحال فى مصر إلى حد ضرب الاسكندرية بمدافع الأسطول البريطانى ثم الاحتلال البريطانى لمصر . وعمل البريطانيون

على تحطيم الجيش المصرى ووضع مصر تحت سيطرتهم الكاملة رغم مركزها القانونى بوصفها جزءاً من الدولة العثمانية فكان من جراء ذلك أن هاجم المهدى كردفان وسقطت فى يده فى يناير سنة ١٨٨٣ .

وإزاء نقص قدرة مصر الحربية من جراء تحطيم الجيش المصرى الذى دبره البريطانيون ، رأت مصر الاستعانة بانجلترا ليرأس بريطانى حملة مصرية جديدة توجهها إلى السودان ولن ندخل فى تفاصيل النزاع بين مصر وبريطانيا فى هذا الأمر ولكنا ننتهى إلى القول بأن الحكومة البريطانية أعارت الجنرال هكس Hicks الذى تجمعت عوامل الفشل حـــوله ولكنه سار فى إجراءاتها واتجه بها نحو الغرب وسط ظروف غاية فى الاضطراب مما أدى إلى فشل الحملة والقضاء عليها قضاء تاماً فى نوفمبر سنة ١٨٨٣ واستيلاء المهدى على كميات هائلة من الذخيرة وسمع بنبأ هذه الكارثة سلاتين باشا حاكم دارفور فأرسل إلى المهدى مستسلماً بل واعتنق الإسلام ليحمى المديرية من الخراب .

ولم تلبث الحكومة البريطانية أن أبدت رغبتها ثم ضغطها على الحكومة المصرية لتخلى السودان وتتركه لأمره وقاومت الحكومة المصرية هذا الضغط جهدها ولكنها لم تلبث أن رضخت وأرسلت الجنرال جوردون حاكما على السودان ليتمم عملية الإخلاء .

ووصل جوردون منفرداً إلى السودان وليست لديه صورة واضحة عن الموقف ولذا اضطربت سياسته اضطراباً واضحاً لاسيما وهو لم يكن يملك القوة التى تساعده على هذا الإخلاء فقد قدم إلى السودان وحده والجيش المصرى والسودانى فى السودان قد قضى عليهما فى الحملات المختلفة التى وجهت إلى المهدى التى كان آخرها حملة الجنرال هكس نحو الغرب . ولذا بادر المهدى

بالهجوم على الخرطوم ليحاصرها ويقضى على كل أمل بمجىء قوة من الشمال .

هذا بينما كانت هذه الانتصارات التى كسبها المهدى قد زادت من انصاره ورفعت من روحهم المعنوية وانتهى الأمر بسقوط الخرطوم فى السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥ . وقتل جوردون بل سقطت البلاد تحت أقدام المهدى وبذلك انقطعت الصلة نهائياً بين مصر والسودان حيث بدأت المهدية فى إقامة حكم وطنى خالص فى هذا الجزء من أفريقيا .

(ب) ١٨٨٥ — ١٩٥٣

فى هذا الجزء يستطيع المؤرخ أن يصف الأحوال فى السودان بشىء من التفصيل تحت الحكم الوطنى ولكنى أرى أنه لا يدخل فى موضوع العلاقات بين مصر وأفريقيا مادامت الصلة بين القطرين قد أصبحت مقطوعة قطعاً يكاد يكون تاماً ولكنا فى نفس الوقت سوف نقترب من السودان فى بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر لنرى كيف أدت أحواله السيئة إلى تفكير الحكومة فى استعادة السودان لتصل ما انقطع من علاقتها به .

ولكنا سوف نستدير إلى علاقة مصر بإتيوبيا لنرى تطور العلاقة بينها وبين مصر خلال فترة انقطاع الصلة بين السودان ومصر .

أسلمت الحملة الانجليزية على إتيوبيا فى سنة ١٨٦٨ البلاد إلى يوحنا بعد أن انتحر تيودوروس وقام يناوئه كاساراس تجرى ومنليك ابن بنت سهلاسلاسى ملك شوا . وكان الأخير أسرعهم وأقواهم حين أعلن نفسه نجوس نجست (ملك الملوك) وأمضى يوحنا أيامه وهو يضرب يميناً وشمالا لأجل أن يستخلص الحكم لنفسه واستطاع فعلا أن يتغلب على منافسيه وأخذ منليك أسيراً ولكنه استطاع أن يهرب ويعود إلى بلاده وأخيرا تهادن الرجلان على أن تتزوج زاوديتو ابنة منليك من منجاشا بن يوحنا ونص فى عقد الزواج على أن يحتفظ منليك بعرش شوا وعلى أن يخلف يوحنا على العرش الإمبراطورى .

وشهدت أيام يوحنا استمرار العلاقة الديقية مع مصر حين أرسلت له الأنبا

بطرس مطرانا ومعه أربعة أساقفة من المصريين بينهم انبا متاوس أسقف شوا الذى أخذ يوطد علاقته بمنليك .

وشهدت أيام يوحنا كثيرا من الحروب الداخلية والخارجية حين اضطرب الأمن على الحدود الشمالية وكثرت غارات القبائل السودانية عند منطقة كسلا وشهد هجوم المصريين عليه ونجح فى صدهم كما ذكرنا ولكنه شهد أيضاً إنهاء الحكم المصرى فى السودان فى سنة ١٨٨٥ وقيام الحكم الوطنى فيه كما شهد قدوم الأوروبيين إلى بلاده واحتلال الإيطاليين لعصب بعد شرائها إياها من زعمائها الوطنيين الذين لم يكونوا يشعرون بسلطة فوقهم كما شهد احتلالهم لمصوع بالاتفاق مع انجلترا ثم بدء توغلهم فى بلاده — مهددين حدوده الشمالية وعرف يوحنا عجزه عن أن يقاومهم . فتقدم يعرض على عبدالله التعايشى أن تتحد القوى الأفريقية للوقوف فى وجه الأطماع الأجنبية ولكن التعايشى لم يكن يتصور مطلقا قيام تعاون مابين قوة إسلامية وأخرى مسيحية مهما كان مظهر هذا التعاون وهدفه ولذا استمرت الحرب بين الجارتين رغم عدم وجود مشاكل جدية بينهما إذا كان عثمان دقنه عامل التعايشى فى الشرق مهتما أكثر مايكون بصد المصريين الذين بقيت لهم قوة فى سواكن أكثر من اهتمامه بأى شىء .. وكان التعايشى قد أرسل إلى يوحنا كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام والدخول فى طاعته حتى إذا لم يتلق رداً أرسل أمره إلى يونس الدكيم عامله على القلابات بالإغارة على الحدود الإتيوبية فأغار عليها مرتين حيث ضرب وقتل وغنم وسبى . وفى مارس سنة ١٨٨٩ دارت الموقعة بين الجيشين وانتصر الإتيوبيون على التعايشى لولا رصاصة أصابت الإمبراطور يوحنا فانقلب الانتصار هزيمة وقتل من الإتيوبيين عدد هائل وغنم السودانيون

جثة اعتقدوا أنها جثة الإمبراطور بينما يقول الإتيوبيون أنها جثة هيلا مريم أحد قوادهم .

وعلى أثر وفاة يوحنا نادى منليك بنفسه نجوس نجست وأسرع إلى الأنبا متاوس الأسقف المصرى فى شوا يسأله أن يتوجه إمبراطورا. ولم يكن هذا الأسقف يمتلك هذا الحق فتتويج الإمبراطور من حق المطران الذى يعيش فى جندار فاعتذر انبا متاوس عن هذا العمل . فكتب الإمبراطور منليك إلى البابا كيرلس الخامس فى القاهرة يسأله أن يأذن للانبا متاوس بتتويجه فرفع البطريرك درجة الأسقف إلى مطران ويبدو من هذا أن الأنبا بطرس الذى كان يقيم فى جندار كان قد مات إذ لا يجوز تعيين مطران ما إلا إذا مات سلفه . وقد قام أنبا متاوس فعلا بهذا التتويج فى سنة ١٨٩٠ فقطع بذلك الطريق أمام منجاشا بن يوحنا فاعتصم هذا الأخير فى إقليم تجرى يقاوم منليك حتى إذا تبين خطر الإيطاليين على بلاده أنضم إليه ووقفا معاً أمام الخطر الإيطالى تحت تأثير نصائح متاوس فكان هذا العمل من أنبا متاوس أساس علاقة طيبة بين مصر وإتيوبيا استمرت طوال عصر الإمبراطور منليك أى حتى سنة ١٩١٣ بل إلى وقت وفاة انبا متاوس فى سنة ١٩٢٦ لحين نشبت الحرب بين الإمبراطور منليك والإيطاليين فى موقعة عدوة لم يتردد المطران فى الخروج مع الجيش الإتيوبى ليظهر مساندة الكنيسة للامبراطور فى حروبه مما كان سبباً فى انتصار منليك وتوطيد استقلال إتيوبيا ورفع مكانتها بين الدول .

وسار الإمبراطور منليك على سياسة الصداقة مع أكبر عدد من الدول الأوربية وغير الأوربية فلم يجد خيراً من أنبا متاوس ليرسله فى رحلة فى سنة ١٩٠٢ إلى مصر وتركيا واليونان والروسيا وهو يحمل الهدايا والنياشين إلى

الخديوى عباس الثانى والسلطان عبد الحميد وملك اليونان وقيصر روسيا ومجموعات كبيرة من رجال هذه الدول جميعاً فاستقبل فيها . كما يستقبل الملوك وأحيط بكل أنواع التكريم .

وبدأ منليك فى فتح المدارس على النظام الحديث فانشأ مدرسة منليك الثانى واستعان بمدرسين من المصريين وأرسل إلى البطريركية فى سنة ١٩٠٧ لتساعده فى اختيار هــؤلاء المدرسين فارسلت له ستة من الأساتذة برئاسة الأستاذ حنا صليب الذى أصبح بمثابة مستشار له فى كل الأمور التعليمية حتى لقد لقبه بعضهم بوزير المعارف ، واختير واحد من الأساتذة ليكون ناظراً ومدرساً لمدرسة هرر وآخر لمدرسة جورى فى الغرب ، بينما استقر الأربعة الآخرون فى أديس أبابا وعاشوا هناك حتى سنة ١٩٣٦ تقريباً وكان آخرهم الأستاذ يعقوب الذى ظل يعمل فى وزارة المعارف حتى سنة ١٩٤٦ . ومنهم من استقال من عمله الحكومى وفضل أن يعمل فى ميدان التجارة ، كما فعل الأستاذ نصر عوض . وظلت إثيوبيا تستعين بالبطريركية القبطية فى اختيار المدرسين لتلك المدرسة حتى سنة ١٩٢٦ حين لجأت إلى وزارة المعارف وكانت العلاقات السياسية قد بدأت بين الدولتين وانشئت القنصلية المصرية الأولى فى أديس أبابا سنة ١٩٢٧ ، فأرسلت إليها بعثة حكومية مكونة من أربعة من الأساتذة برئاسة الأستاذ مسيحة عبد السيد فى سنة ١٩٢٩. وكان ذلك أيام الإمبراطورة زاوديتو .

وكان تنصيب الإمبراطورة زاوديتو فى سنة ١٩١٦ وعزل الإمبراطور لدج ياسو حفيد منليك قد تم بمساعد الأنبا متلوس أيضاً. وذلك نتيجة للمكانة العالية التى تمتع بها هذا الرجل بين رجال إثيوبيا جميعاً وثقتهم به ، وقصة ذلك أن الإمبراطور منليك قد أصيب بالفالج فى سنة ١٩٠٨، ولم يكن له ولد، وكان

ابن عمه الرأس مكونن - الذى كان ينظر إليه كوريث للعرش - قد مات فى سنة ١٩٠٦ وأخذت الأحوال تضطرب . وخاف منليك أن يتهدم البناء الذى تعب فى إقامته، فعين حفيده لدج ياسو وارثاله وعقد لهذا الغرض اجتماعا لرءوس الدولة والمطران المصرى والاتشجى وقدم له هذا الحفيد وكان صبياً لا يتجاوز الحادية عشر من عمره، متزوجا من رمانة حفيدة الملك يوحنا، وقال لهم (ليكن محروما ذلك الذى يرفض طاعته ملعونا ذلك الذى لا يخضع له وليكن هو أيضاً اميناً لكم أما إذا خانكم فلتحل عليه لعنة الله) .

وعين له الراس تساما معلما ووصياً ولكن هذا الأخير مات فى سنة ١٩١١، فعين منليك للوصاية مجلساً ترأسه الملكة تايتو زوجته ثم مات الملك فى سنة ١٩١٣ فاعلن لدج ياسو إمبراطورا . ولم تلبث أن انطلقت غرائزه وانصرف إلى ملاهيه يرتشفها اينما كانت بل تحول عن المسيحية وأعلن أنه ليس سليلا لسليمان ولا ملكة سبأ بل اخترع له نسبا يصل به إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فكان من أثر ذلك أن قامت الفتنة لا سيما وقد كتب الشهادتين على العلم الإثيوبى وأرسله هدية إلى سلطان تركيا التى اعتبرت هذا العمل بمثابة اعتراف بتبعيته لأمير المؤمنين وكانت الأحوال فى أوروبا قد بدأت تضطرب منذرة بالحرب العالمية الأولى .

فنظرت انجلترا وفرنسا إلى هذا العمل كرغبة منه فى التحالف مع دول الوسط، الأمر الذى يعرض البحر الأحمر وقناة السويس إلى خطر الوقوع فى يد أعدائهم، فاجتمع هذا مع مخاوف رجال الدين وعلى رأسهم المطران، وإلى مزيد من خوف رجال الدولة فاتحدت هـذه كلها لتطلب من المطران المصرى الأنبا متاوس التدخل لإنقاذ كل من البلاد والكنيسة، بأن يحلهم من يمين الولاء للامبراطور الذى يقود بلادهم نحو الخراب ، ويصدر قراراً بحرمان لدج ياسو وتعيين الأميرة

زاوديتو ابنة منليك إمبراطورة عليهم على أن يكون الراس تفرى بن الراس مكونن وصياً ووريثاً للعرش، فلم يملك متاوس إلا أن يصدر هذين القرارين فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١٦ وشفعهما بخطاب إلى الأمراء والرؤساء وشعب إتيوبيا يحلهم جميعاً من يمين الولاء والطاعة للدج ياسو ويدعـــوهم إلى الإخلاص والولاء للامبراطورة الجديدة ولعقيدتهم الأرثوذكسية الصحيحة ، وهدد من لا يخضع لهذا القرار بأن تنزل عليه لعنة الأب والأبن والروح القدس ، ومر الأمر بسلام دون أن تحدث اضطرابات ما ، وإذا كان لدج ياسو قد فر إلى إقليم والو ذى الأغلبية الإسلامية إلا أن جيوش الدولة لم تترك له وقتا ، ومو فى نفس الوقت لم يحاول أن يطعن فى قرار الحرمان الذى صدر من جهة تملك حق إصداره ، فـكأن المطران متاوس باستجابته لرغبة الأكليروس والشعب والـكنيسة إنما صان وحدة البلاد الإتيوبية ومستقبلها .

وأخذ الراس تفرى يحاول فى حدود سلطته أن يدخل بلاده إلى ميدان الحضارة الحديثة ، فبدأ بزيارة بعض الدول الأجنبية ومنها مصر فى سنة ١٩٢٤ حيث استقبله رجال الـكنيسة ورجال الأقباط بالتجلة والاحترام ، لاسيما وقد نزل ضيفا عليهم لا على الحـكومة وإذا ما انشئت القنصلية وسمت إلى ارسال بعثة التعليم الحـكومية ازدادت الصلات الرسمية والشعبية توثقا .

ومات الأنبا متاوس فى ديسمبر سنة ١٩٢٦ فلم تمض على وفاته ستة أشهر حتى قدم إلى مصر وفد حكومى إتيوبى يرأسه وزير المالية ومعه وزير المعارف يطلبان إقامة مطران جديد وربما كان هذا أول وفد إتيوبى يطلب مطرانا دون أن يرأسه مسلم كما جرت العادة قبل ذلك لاسيما منذ أيام المماليك وصحب الوفد أربعة الرهبان كى يساموا أساقفة فاختير الراهب سيداروس الانطونى الذى سيم مطرانا باسم كيرلس ورسم معه الرهبان الأربعة أساقفة ، وكانت هذه

هى المرة الأولى التى يعين فيها مساعدو المطران من بين الإتيوبيين ، فـكان هذا كله توثيقا للعـــلاقات بين الـكنيستين ، فاذا ما انشئت القنصلية وتوثقت الصلات بين الحـكومتين فلا غرابة بعد ذلك أن تلجأ الحـكومة الإتيوبية إلى الحـكومة المصرية لطلب أساتذة مصريين لمدرسة منايك الثانى التى أصبحت تعرف (بمدرسة المصريين) .

وفى ديسمبر سنة ١٩٢٩ سافر البابا يؤنس التاسع عشر إلى إتيوبيا لرعاية شعبها . فـكانت أول زيارة رعوية لبطريرك مصرى إلى هذه البلاد ، فاستقبلته البلاد حكومة و كنيسة وشعبا استقبالا منقطع النظير ، وهنـــاك تبادل مع الإمبراطورة والراس تفرى والأمراء الهدايا وانعمت عليه الامبراطورة وعلى من كان معه من الحاشية بالنياشين ووضع أساس كنيستين يعتبران حتى اليوم من أفخم كنائس إتيوبيا .

وطلب البابا أن ترسل إتيوبيا إلى مصر بعثة من الطلاب ليتعلموا على نفقة البطريركية ووضع بيده أساس مدرسة جديدة تحمل اسم يؤنس التاسع عشر . وقدمت البعثة الإتيوبية فعلا وكانت مكونة من أربعين طالبا إلا أنهم رفضوا أن يتعلموا اللغة العربية فأعيدوا إلى إتيوبيا وفشلت هذه المحاولة ، ورغم ذلك نظرت كل من الحـكومة الإتيوبيـــة والحكومة المصرية ومعهما الـكنيستان الإتيوبية والمصرية إلى هذا العصر بمثابة العصر الذهبى للعلاقات المصرية الاتيوبية .

وماتت الامبراطورة فى أبريل سنة ١٩٣٠ وجلس على العرش الراس تفرى باسم الامبراطور هيلاسلاسى الأول ودعيت الدول للمشاركة فى احتفال التتويج فأرسلت الحـكومة المصرية وفداً برئاسة الأمير محمد على وعضوية توفيق نسيم باشا وصليب سامى بك الذى كان وزيراً للخارجية وحملوا إلى

الامبراطور الهدايا الكنسية بجانب الهدايا المعتادة مع تمنيات كل من الشعب والكنيسة المصرية والحكومة المصرية بالتوفيق والهناء .

وكان من أثر ذلك أن ازدادت العلاقات توثقا كما ازدادت العلاقات التجارية بين البلدين وتصدرها البن من الجانب الإتيوبى والأقمشة والأحذية من الجانب المصرى . ولكن قلة من عاش فى إتيوبيا من التجار المصريين جعل التجارة مع مصر فى مؤخرة التجارة مع الدول الأخرى كاليونان والهند واليابان إذ كانت الثانية ثم الثالثة تكتسحان السوق الإتيوبية لرخص منتجاتهما .

ولكن مما يؤسف له أن اختيار الأساتذة المصريين لمدرسة منليك لم يلبث أن خرج عن النطاق الحكومى وبدأ يسير من وراء ظهر الحكومة المصرية بعقود شخصية كما أخذت جنسيات أخرى تدخلها كالهنود واللبنانيين . ولم تعد مدرسة منليك (مدرسة المصريين) كما كانت من قبل .

وفى سنة ١٩٣٥ اعتدت إيطاليا على إتيوبيا ، وحاولت الدولة الجديدة أن تجعل الكنيسة أداة طيعة فى يدها ، فطلبت من المطران المصرى إعلان إنفصال كنيسة إتيوبيا عن كنيسة مصر وحاولت معه وسائل بعضها أقرب إلى التهديد، فرفض الرجل أن يقدم على هذه الخطوة . فأرسلته إلى مصر .

وأعلنت الحكومة الإيطالية من جانبها فصل الكنيستين كعمل وطنى تمالىء به الشعور القومى الإتيوبى، فكان أن تدهورت العلاقات لاسيما وقد صدر قرار من كنيسة الأسكندرية بتوقيع الحرمان على المطران الإتيوبى الذى عينته الحكومة الإيطالية . وكانت الجهات الشعبية المصرية قد أرسلت بعثة (طبية مصرية) للاهتمام بالجرحى الإتيوبيين فى الحرب الإتيوبية فكان هذان العملان إلى جانب موقف انجلترا - صاحبة الكلمة فى مصر آنذاك - من معارضة الموقف الإيطالى فى

عصبة الأمم هما اللذان أديا بالعلاقات المصرية الإتيوبية إلى الحضيض .

ولكن هذه العلاقات لم تلبث أن انتعشت مرة أخرى بعودة الحكومة الإتيوبية الوطنية فى سنة ١٩٤١ أثر اندحار إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية . وعودة الإمبراطور هيلاسلاسى إلى العرش ، فأرسل يطلب عودة المطران المصرى . فسافر إلى إتيوبيا فى سنة ١٩٤٢ كما أرسل يطلب بعثة تعليمية تساعد على بناء الصرح التعليمى الذى هدمه الاحتلال الإيطالى، فسافرت إليها فى أبريل سنة ١٩٤٣ بعثة حكومية مصرية مكونة من عشرة من الأساتذة ومع بعضهم زوجاتهم . وطلبت وزارة المعارف من بعض هؤلاء الزوجات أن يعملن فى مدرسة البنات فلم يترددن فى القبول .

وكما سمحت القنصلية المصرية فى سنة ١٩٢٨ فى إرسال بعثة تعليمية حكومية إلى مدرسة منليك سمحت أيضاً إلى تعيين اثنين من المدرسين المسلمين فى المدرسة الأهلية الإسلامية فى أديس أبابا على أن تكون مرتباتهما على حساب الجامع الأزهر، وأدى هذان الأستاذان مهمتهما على أحسن وجه أيضاً مما جعلهما موضع الاحترام والتقدير . وإذا ماسافرت البعثة الحكومية الثانية فى سنة ١٩٤٣ على نحو ما ذكرنا وجدت هناك أربعة من الأساتذة المسلمين يعملون فى المدارس الإسلامية على نفقة الجامع الأزهر أيضاً وهكذا وصلنا إلى سنة ١٩٥٢ التى جعلناها نهاية المرحلة الثانية من العصر المعاصر والعلاقات بين الدولتين حكومة وكنيسة وشعباً على أحسن ما تكون من الصفاء والود برغم وجود بعض السحاب الخفيف الذى سوف نتكلم عنه تفصيلا فى الحقبة القادمة .

ومما هو جدير بالذكر أن الاتصال بين الدولتين إلى ما قبل قيام الحرب العالمية الثانية كان يتم فى سهولة وسرعة عن طريق البحر الأحمر إذ كانت البواخر الفرنسية تسير أسبوعيا فى خط منتظم بين فرنسا والهند الصينية التى

كانت من أملاك فرنسا فى آسيا ، فتمر بجيبوتى التى كانت عاصمة لمستعمرة الصومال الفرنسى وهناك يبدأ الخط الحديدى الذى يسير إلى أديس أبابا ثلاثة مرات فى الأسبوع ليقطع المسافة فى يومين فكان الاتصال بين مصر وأديس أبابا يتم إذن فى نحو سبعة أيام . هذا إلى جانب البواخر الانجليزية التى كانت تداوم السفر بين الهند وبريطانيا مارة بعدن . كما كانت هناك بعض البواخر الأخرى ذات الجنسيات المختلفة مثل اليابانية والهولندية ولكنها لم تكن منتظمة كانتظام البواخر الفرنسية والانجليزية . أما خطوط الطيران فلم يكن السفر بها مألوفا فى ذلك الوقت .

* * *

ولنعد الآن إلى السودان بعد أن نجح المهدى فى الاستقلال بحكمه فأعلن أن الدين الإسلامى هو دين الحكومة ، ولم يسمح بديانات أخرى إلى جانبه فنجده قد أرغم الموظفين المصريين غير المسلمين الذين تركهم الحكم السابق وكذلك الأجانب الذين كانوا فى السودان على اعتناق الإسلام وسمام بالمسلمانية ومن الطبيعى أن يكون بينهم من تظاهر بالإسلام مع احتفاظه بدينه كما فعل سلاتين باشا فقد كان كما يقول يمسك بالمسبحة يحركها بين أصابعه ويتلو الصلاة المسيحية .

ولم يعش المهدى بعد استخلاص السودان سوى ستة أشهر ومرض ومات وتسلم الحكومة عبد الله التعايشى وكان قد عينه المهدى خليفة له قبل وفاته . وهو رجل أمى لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة . وكان كسيده يخاف أى علاقة خارجية وخاصة مع مصر ، ولذا نجده قد نهى عن الحج إلى مكة ، وجعل زيارة قبر المهدى فى أم درمان بديلا عن الحج مدعيا أن الكعبة فى يد الكفار ، ولكن الحقيقة أنه كان يخاف اختلاط السودانيين بغيرهم وخاصة المصريين .

وحين قسم السودان إلى عمالات (مديريات) اهتم بالعمالات ذات الاتصال بمصر وأعطاها لأقوى رجاله فقد جعل من السودان الشرقى والشمالى الشرقى عمالة واحدة جعل عليها أقوى رجاله وهو عثمان دقنة الذى كان أجهل من سيده ولكنه شديد الإخلاص له وقد كان واجبه الأول مراقبة حركات المصريين سواء فى ناحية وادى حلفا أو ناحية سواكن لاسيما وقد احتفظ بها المصريون وأبقوا بها حامية قوية .

وقد حاول بعض من بقى فى السودان الهرب إلى مصر وفشل أكثرهم كما فشل سلاتين باشا النمساوى الأصل وحاكم دارفور السابق ولكنه نجح فى بداية سنة ١٨٩٥ فوصل إلى القاهرة فى مارس وقدم إلى السلطات بها تقريراً بالألمانية بالحالة فى السودان نشر بعد ذلك فى كتاب حمل اسم (السيف والنار فى السودان) وقد ترجم فيما بعد إلى الانجليزية والعربية .

وظلت بعض القبائل السودانية على ولائها السابق لمصر وفى مقدمتها الكبابيش التى كانت تعيش فى كردفان وكان شيخها صالح فضل الله الذى أرسل إلى الجيش المصرى المرابط على الحدود الجنوبية لمصر يعلمه بنيته فى الثورة على الحكم السودانى ويطلب المدد فأرسلت إليه بعض المدافع والذخيرة كما أرسلت إليه جاسوسا هو كارل نيوفلد النمساوى متظاهراً بأنه تاجر يبغى شراء صمغ من كردفان ، وعرف التعايشى بذلك فأرسل إلى قائد جيشه عند الحدود المصرية أن يقطع عليه الطريق ، وهناك التقى بقافلة نيوفلد قادمة إلى الكبابيش فقبض عليه واستولى على مامعه وأرسله إلى السجن فى أم درمان وظل أسيراً حتى استعيد السودان . كما أرسل إلى عثمان أدم عامل كردفان أن يحاصر الكبابيش وزعيمها ويمنع عنه الحبوب ويحاربه فالتقت به القوة السودانية فى عين حامد وانتصرت عليه وقتلته وقطعت رأسه وأرسلتها إلى أم درمان حيث علقت فى سوقها بضعة أيام .

وأراد التعايشى أن يتشبه بالنبى عليه الصلاة والسلام فأرسل ببعض كتب إلى بعض الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكانت أربعة أولها إلى الخديوى توفيق والثانى إلى السلطان عبد الحميد والثالث إلى الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا والرابع إلى الإمبراطور يوحنا إمبراطور إثيوبيا وأغلب الظن أنه لم يكن يعلم أن فى العالم دولا أخرى غير هذه الدول بالاضافة إلى السودان والحجاز، فاكتفى بإرسال الثلاثة الأولى إلى مصر لتتولى حكومتها إرسال الخطابين الآخرين وكان تاريخ هذه الكتب مارس سنة ١٨٨٧ وطلب التعايشى فى كتابه إلى الخديوى الايمان بالمهدية (وترك التعامى عن الحق ثم اعلان ولائه للتعايشى فإن الحق جدير بالاتباع والباطل حرى بالتلافى والضياع وأنه اتخذ الكافرين أولياء له من دون المؤمنين (وركنت الى مؤامرتهم والانخراط فى سلكهم حتى كأنك تريد بهم اطفاء نور الله) .

فلم يتلق التعايشى رداً من أحد من هؤلاء فكانت النتيجة أن غضب على كل هؤلاء وحارب الامبراطور يوحنا كما مر بنا. كما قرر غزو مصر وكان أولى به قفل باب الشر، ولكنه ربما رأى أن غزو بلاد الكافرين جزء من رسالة المهدية . رغم ما كان عليه من قصور سواء فى المهمات والرجال وكانت القوة التى تحت يد النجومى قائد الجبهة الشمالية لاتزيد عن أربعة آلاف ينتمون الى قبائل مختلفة من الجعليين والدناقلة والفلاتة والبقارة أغلبهم من النساء والأطفال ولا يحملون أكثر من ٣٠٠ بندقية وعشرة مدافع .

وفى ٢ يوليو تقابل الأول مع قوات الحدود عند ارجين فصبت عليه القوة المصرية سيلا من الرصاص والقنابل لم يملك بعدها النجومى سوى التراجع وهو مصاب بجرح فى فخذه من شظية قنبلة .

واستعرض النجومى جيشه فوجـــده فى أسوأ حال فقد اشتد الجوع

بهم وأضناهم التعب حتى ارتمى أكثرهم على الأرض يحصدهم الجوع والإنهاك ودفعت هذه الحال ببعضهم إلى الاسراع فى السير لينضم إلى الأعداء وأغلبهم من أفراد المدفعية الذين كانوا من جيش مصر فكان الجيش المصرى تحت قيادة السردار البريطانى الجديد السير جرانفل قريبا من النهر يمنع الدراويش من الوصول إليه فكانوا يقطعون طريقهم وسط صحراء جافة .

وكان فى هذا الانتصار المصرى إغراء لهم على العودة إلى منازلة الدراويش وفى أغسطس التقى الفريقان عند توشكى وبعد أن تبادل الرسائل كل يطالب من الآخر التسليم له ورفضه التحمت قواتهم فحلت بالسودانيين الهزيمة مرة أخرى وقتل قائدهم عبد الرحمن ولد النجومى فحمل أنصاره جثته وعادوا متقهقرين تاركين أسلحتهم وذخيرتهم غنيمة للمصريين فلحق بهم المصريون وأسروا نساءهم وأولادهم كما استولوا على جثة ولد النجومى بينما لم يفقد المصريون سوى خمسة وعشرين رجلا .

وكانت جيوش الشرق بقيادة عثمان دقنه قد هاجمت كسلا فى مارس سنة ١٨٨٥ ولكنها هزمت أيضا وانسحبت للداخل وبسطت القوات المصرية حمايتها على بعض القبائل السودانية مما شجعها على مهاجمة قوات عثمان دقنه فى سنة ١٨٨٨ تساعدهم القوات المصرية تحت قيادة كتشنر وحطموا محاولة عثمان دقنه الهجوم على سواكن فى نهاية السنة .

وخاف التعايشى أن تفتح له التجارة الخارجية باب الشر ولا سيما وقد أهمل الزراعة والصناعة، فلم يفتحها إلا من باب ضيق مع سواكن ومصوع وإثيوبيا ووادى ولكنه سد طريق الأربعين الذى كان يسير بين الفاشر وأسيوط كما سد طريق الشمال أى طريق كورسكو كما خاف تصدير الرقيق إلى مصر لئلا تجندهم مصر وتضمهم الى جيشها .

ولم تكن انجلترا وقد احتلت مصر تريد أن تهتم بالسودان بدعوى تنظيم البيت بل اعتبرته قطراً خاليا No Man's Land فلم تمانع حين نزل الإيطاليون بمصوع بعد عصب . وضمتهما بحزام رفيع من الأرض كما نزلت فرنسا بميناء جيبوتى عند بوغاز باب المندب إلا أن أصرار انجلترا على البقاء فى مصر والاحتفاظ بها مخالفة عهودها السابقة عرض الصداقة البريطانية الفرنسية لخطر الانهيار وانتهز ليوبلد ملك البلجيك هذه الفرصة ليعرض على انجلترا سنة ١٨٨٥ اقتراحا مؤداه أن يؤجر له خديوى مصر وادى النيل ابتداء من الخرطوم حتى بحيرة البرت. ولكن انجلترا وصفت هذا الاقتراح بالجنون وأعاد ليوبلد فى ديسمبر الاقتراح مهدداً فى حالة الرفض بزيادة التقارب مع فرنسا . وعاد ليوبلد إلى لندن للمرة الثالثة فى يناير سنة ١٨٨٦ مصراً على طلبه فافهمته الحكومة البريطانية عن طريق الصحافة أنه لابد أصيب بالجنون.

هذا فى الوقت الذى زاد فيه تقرب فرنسا من منليك الثانى واقنعته برسم حزام أفريقى عرضى يقف فى وجه اطماع انجلترا فى القارة . يكون نصيب إثيوبيا من هذا المشروع امتداد حدودها الغربية حتى النيل الأبيض وبدءوا معا برسم خطة تقوم على التقاء جيش اتيوبى يسير غرباً مع جيش فرنسى يسير شرقا من أفريقيا الاستوائية الفرنسية عند فاشودة حيث تبنى قلعة اتيوبية . وقام منليك بإبلاغ الدول الأوروبية حدود بلاده الغربية كما يجب أن تكون وسعيه فى الوصول إلى هذا الهدف . وخرجت فعلا قوة اتيوبية يقودها الفرنسى بون شام فوصلت إلى مسافة مائة ميل من فاشوده فى ديسمبر سنة ١٨٩٧ بينما خرجت قوه فرنسية من أفريقيا الاستوائية بقيادة الجنرال مارشان ولكن الجوع أضر بالفرقة الأولى فعادت أدراجها بينما واصلت القوه

الفرنسية سيرها وتحملت مشاقات هائلة حتى وصلت فى يوليو سنة ١٨٩٨ ووجدت المكان خالياً ،ولكن ذلك لم يمنعها من أن تعسكر فى انتظار أوامر من حكومتها .

وكان نجاح ايطاليا فى احتلال عصب ثم مصوع ووصلهما ببعضهما واطلاق اسم ارتريا قد أثار أطماع الدول الاستعمارية ،فأثار ذلك قلق مصر وخافت على سواكن وكسلا ، بل خافت على السودان كله فهى تنظر إليه كجزء من الوطن المصرى اضطرت إلى إخلائه سواء بسبب اشتداد الثورة فيه أو امتثالا لنصائح الحكومة البريطانية وهى سوف تعود إليه يوما ، وكلمت فى ذلك المستر بارنج قنصل انجلترا فى مصر (اللورد كرومر فيما بعد) الذى كان يرى نفسه مسؤولاعن تقلص النفوذ المصرى هناك . وبالتالى أكثر مسؤولية عن ضياع السودان . أو أى جزء آخر من املاك مصر ، فبادر بالكتابة إلى وزارة الخارجية البريطانية يطلب الموافقة على احتلال مصر لطوكر لتكون نقطة أمامية تمكنها من التقدم نحو السودان الشرقى فى الوقت المناسب ، ووافقت الحكومة البريطانية على ذلك فخرجت قوة مصرية من سواكن واحتلت طوكر بعد معركة عنيفة مع الدراويش يقودهم عثمان دقنه فى فبراير سنة ١٨٩١ .

وأثارت أطماع ايطاليا أيضا مخاوف منليك إمبراطور اتيوبيا فى الوقت الذى كان الدراويش قد احاطوا بكسلا وقطعوا المواصلات بينها ومن مصوع ، وخيل لايطاليا أن هذا العمل كان مظهرا لتحالف قائم فعلا بين السودانيين ومنليك،فطلبت ايطاليا من انجلترا أن تقوم بعمل سريع حاسم من أجل تخفيف الضغط على الايطالين بفتح جبهة ثانية أمام السودانيين ، فقررت حكومة لندن

القيام بحملة سريعة لاسترداد دنقلة، لا سيما وقد انتقل الحكم فى بريطانيا إلى يد المحافظين الذين كانت سياستهم ترمى إلى بناء إمبراطورية بريطانية بعد أن أصبحت أرقام التجارة البريطانية مع الخارج قد أخذت تميل إلى الإنخفاض وأصبح الميزان التجارى يعانى انخفاض أرقام الصادرات وارتفاع الواردات مما أدى إلى ظهور مشكلة البطالة، ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر ما اكتنف هذه الحملة من مصاعب ثم التغلب عليها، ولكننا نقول أن الحملة قد بدأت تدخل دورها العملى فى مارس سنة ١٨٩٦ بأمر اصدرته الحكومة البريطانية إلى السردار بالتقدم . وكان الجيش المصرى متفوقا فى العدد والعدة فتقدم نحو عكاشة فى نفس الوقت الذى تقدمت منه قوة أخرى من سواكن نحو الغرب وحلت كتيبة هندية مكانها للدفاع عن المدينة .

وغنى عن الذكر أن هذا الجيش كان مصريا خالصا وأن كان ضباطه من البريطانيين ، فقد شاءت بريطانيا أن يسيطر البريطانيون على الجيش المصرى بهذا النوع من النظام . هذا إلى أن العلم الذى تقدم فى ظله الجيش كان مصريا وهو يفعل ذلك باسم الخديوى .

وكان نجاح الجيش فى التقدم نحو عكاشة دون مقاومة سببا فى أن يحصل السردار قبل نهاية السنة على أمر بالتقدم لاسترداد السودان وبدء تنفيذ خط سكة حديد يمتد من وادى حلفا إلى أبو أحمد .

وكانت خطة الغزو تتلخص فى التقدم على عدة مراحل مع تموين القوات المتقدمة بواسطة الجمال ثم مد السكة الحديدية خلف الخطوط الأولى المتقدمة .

وكان السودانيون قد انتهجوا خطة الدفاع بدلا من الهجوم وأخذوا يجمعون قوتهم فى المتمة شمال أم درمان، ومن شأن هذه الخطة أن تبعث الشجاعة

فى المهاجم فلم تأت نهاية شهر يونيو حتى استولى المصريون على فوكة التى تبعد ١٦ ميلا جنوب عكاشة .

وتقدم المصريون على طول النيل بينما كانت قوة أخرى تخرج من وادى حلفا تقصد الوصول إلى أبى أحمد فنجحت فى احتلالها فى أغسطس سنة ١٨٩٧ رغم حسن دفاع السودانيين عنها .

وفى سبتمبر بدأت المعركة الكبرى عند كررى بعد أن استعد لها الفريقان ولم يأت الظهر حتى كان انتصار المصريين كاملا وتوقف إطلاق النار بعد أن حصدت المدافع المصرية الآفا من السودانيين حصداً قاسيا فى السهل الذى يحيط بمدينة الخرطوم .

وفى الوقت الذى تقدم فيه جيش مصرى لإتمام فتح الجنوب حين سمع كتشنر عن وصول (الترك) إلى فاشودة . فأسرع اليها ووصل كتشنر إلى فاشودة فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٩٧ ليجد جيشاً فرنسيا بقيادة الجنرال مارشان وقد رفع العلم الفرنسى عليها فابلغه كتشنر أن هذا العمل انتهاك صريح لحقوق الخديوى صاحب هذه الأرض وطالب منه الانسحاب ولكن مارشان رفض ذلك رغم سوء موقفه وصغر ما معه من قوات . ولما كان كتشنر غير راغب فى مزيد من سوء التفاهم مع فرنسا، كما لا يحمل أوامر بالحرب اقترح على مارشان السفر إلى القاهرة حيث يستطيع الرجوع إلى حكومته فرضى مارشان بهذا الاقتراح وكانت الحكومة الفرنسية آنذاك فى موقف حرج كما أنها لم تكن مستعدة للتشدد مع انجلترا إلى حد إعلان الحرب بسبب فاشودة فرضيت فرنسا بالانسحاب بعد عقد اتفاق بينها وبين انجلترا بتحديد حدود بين نفوذ يهما هناك، وجعل خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو الذى يجعل الأملاك الفرنسية تقف غربى هذا الخط لتبدأ الأملاك المصرية شرقيه

وكان ذلك فى مارس سنة ١٨٩٩ وفى الوقت الذى تقدم فيه جيش مصرى لاتمام فتح الجنوب تقدمت قوة أخرى لفتح الشرق بطريق النيل الأزرق وأرسلت قوة ثالثة إلى الغرب فى يناير سنة ١٨٩٩ وفى الطريق التقى فى جزيرة أبا بعبد الله التعايشى وقد أخذ أنصاره ينفضون من حوله ويستسلمون للجيش القادم وتم الانتصار عليه فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٩٩ وسلم كل من بقى من الجيش السودانى فكان ذلك خاتمة انفصال السودان عن مصر وعودة العلاقات عنهما وان كانت قد أخذت شكلا جديدا هو الحكم الثنائى ويتلخص أساسه فى معاهدة ثنائية بين انجلترا ومصر ـ وقعت فى يناير سنة ١٨٩٩ وجاء فى شروطها .

أن يقوم بحكم السودان حاكم بريطانى يصدر بتعيينه قرار خديوى ولا يجوز عزله إلا بموافقة بريطانيا على أن يجمع فى يدة السلطات التشريعية التنفيذية وأن يرفع على اجزاء السودان العلمان المصرى والبريطانى . بالرغم من اعتراف بريطانيا أكثر من مرة أن مركز مصر بالنسبة للسودان لم يتغير مطلقا باعتباره املا كا مصرية . وإن كان الواقع يخالف ذلك بل أصبح استعماراً بريطانيا للسودان يلبس ثوبا شفافاً من تسمية لاتحمل بين طياتها شيئا من الحقيقة أذ حين رفع الاتفاق إلى الباب العالى اعترض على تجاهل حقوق تركيا كما طلب تعليل رفع العلم البريطانى إلى جانب المصرى لم يعن احد بالإجابة على هذا الطلب ، وجاء فى مقدمة هذا الاتفاق ان انجلترا لم ترضم السودان إليها كمستعمرة لأن ذلك سوف يضع على كاهلها مصاريف دون أن يكون هناك ما يقابلها من الدخل ، أى أن مصر هى التى كتب عليها أن تصرف المصاريف دون أن تجنى ما يقابلها وبذلك حقت كلمة المسيح (من ليس معه يؤخذ منه ومن معه يعطى له ويزاد) .

ورغم أن الاتفاق لم يتعرض مطلقاً لمسألة السيادة على السودان إلا أن

انجلترا اعترفت فى أكثر من موضع وأكثر من مرة أن مركز مصر بالنسبة السودان لم يتغير مطلقاً كما صرح لمستر بارنج أن هذا الاتفاق لم يبرم لغرض انتقاص حقوق مصر الشرعية .

وطبقا للنظام الجديد أصبح جميع كبار موظفيه من السلك العسكرى البريطانى الذين استعانوا بعدد من المصريين لا جل شغل المناصب الثانوية فاذا كان جميع مديرى المديريات الثمان بريطانيين فقد أصبح جميع مأمورى المراكز وهم المحتكون المباشرون بالأهالى من المصريين وعلى عاتقهم تقع جميع المسؤوليات ويتحملون جميع أخطاء الرؤساء القابعين فى عواصم المديريات لايراهم الأهالى الا حين يجأرون بالشكوى من تصرف المأمورين فيأتى هؤلاء ليرفعوا هذا الظلم ويرمون المأمورين المصريين بالرغبة فى استرقاق السودانين وظلمهم وأن البريطانيين هم الحكام العدول الذى يبادرون فيرفعون الظلم إذا سمعوا به :

ولم يكن هناك من ايرادات للحكومة فى أول عهدها إذ كان الدخل فى سنة ١٩٠٠ لا يزيد عن ٨٠٠٠ جنية بينما كانت المصاريف قد بلغت ربع مليون من الجنيهات، فكان على مصر أن تتحمل هذا العجز ولم تستطع الايرادات إن تغطى المصروفات إلا فى سنة ١٩١٣ فكأن مصر ظلت تغطى العجز لمدة ١٢ عاما علاوة على مصاريف الجيش المقيم فى السودان من أجل المحافظة على حدود ومصر الجنوبية أما مصاريف الأعمال العامة فكانت مصر تقدمها قروضاً .

وحين بدأت الميزانية تعطى بعض الوفر فضلت الحكومة البريطانية أن تحفظه احتياطيا دون أن تحاول تسديد هذه القروض المصرية، واستقرت الميزانية فى سنة ١٩١٣ كما ذكرنا ، هنا تقدمت الحكومة البريطانية لا لتعطى السودان قرضاً للقيام بمشروع من تنفيذ خزان سنار بل تقدمت لتضمن قرضاً طلبته

الحكومة السودانية من البنوك البريطانية .

وإذا كان البريطانيون هم الذين أنشأوا كلية جوردون فى سنة ١٩١٣ وكانت فى أول أمرها لا تزيد عن كونها مدرسة إبتدائية ثم أنشئ القسم الثانوى فى سنة ١٩١٣ وقد ضم أقساما مختلفة لتخريج موظفين يصلحون لشغل بعض الوظائف ذات الطابع الفنى فإنها لم تنشأ بأموال بريطانية بل عن طريق تبرعات بعض البريطانيين لتخليد ذكرى الرجل الذى مات من أجل الإمبراطورية . كما أن المصريين هم الذين قاموا بعبء التدريس فيها بينما احتفظ البريطانيون فقط بالوظائف الإدارية . كما أن إدارتهم لها كانت أسوأ ما تكون الإدارة التعليمية التربوية. إذ كان الجلد عقوبة ما يرتكبه الطلبة من هفوات فكان المصريون هم الذين عملوا على رفع الروح المعنوية للسودانيين بينما كان البريطانيون يعملون على تحقيرها والحط منها كى لا تقوم لهم قائمة .

والآن سنتحول إلى ما قام به المصريون فى السودان من أعمال كانت كلها لصالح السودانيين وإن كان المصريون المقيمون هناك قد جنوا منها بعض النفع فلأنهم كانوا جزءاً من المجتمع السودانى لا باعتبارهم مصريين وإن كان بعض هذا الخير أو كله قد أدعاه البريطانيون لأنفسهم باعتبارهم أصحاب السلطة. ومما يؤسف له أنهم وجدوا كثيرين من المصدقين له دعواهم . بل أن مصدقيهم من السودانيين كانوا من الكثرة إلى حدان أصبحت هذه عقيدتهم لا يرتضون عنها بديلا .

ففى خلال عملية الاستعادة وتقدم الجيش نحو الخرطوم كانت أيدى الجيش المصرية هى التى مدت الخطوط الحديديه من وادى حلفا إلى أبو حمد وعمل فيه أكثر من ٨٠٠ جندى فى ظروف قاسية من الحر والجفاف معرضين لهبوب الأعاصير الصحراوية ومن حسن حظهم أن السودانيين لم يكونوا على شيء من

الثقافة الحربية وكان فى إمكانهم عرقلة هذا العمل بالهجوم عليهم من الشرق والغرب وتعطيل هذا العمل وقتل عدد كبير من الجنود ولكنهم لم يعملوا . وامتد الخط من أبو حمد إلى الخرطوم واستفاد منه الجيش المتقدم أكبر الفائدة .

وعندما أنشأ البريطانيون ميناء بورسودان فى سنة ١٩٠٤ كان المصريون هم الذين مدوا أيضاً الخط الحديدى من العطبره إليها .

حقيقة أن إنشاء ميناء بورسودان كان عملا بريطانياً ولكن الهدف منه كان صرف التجارة السودانية عن المرور بمصر ، ولكن رسوم قناة السويس هى التى أرغمت التجارة السودانية القادمة من أوروبا على أن تأتى عن طريق الاسكندرية وتسير صوب السودان عن طريق السكك الحديدية لا سيما وان دخول البضائع إلى السودان عن طريق أسوان كان يتم بدون رسوم جمركية سودانيه بل كانت حكومة السودان تحصل على نسبة مئوية من الرسوم التى دفعت فى الاسكندرية عن البضائع التى تدخل برسم السودان وظل ثغر بورسودان مخرجا ومدخلا لتجارة الشرق . وكانت بريطانيا تريد أن تجعل تجارة الهند هى الغالبة فى السودان إلا أن البضاعة اليابانية سرعان ما صارت صاحبة المركز الأول لرخصها .

وكانت الأيدى المصرية ومعها السودانية هى التى مدت الخط الثانى من بورسودان إلى كوستى ثم إلى الأبيض لإخراج صمغ كردفان إلى الخارج عن طريق بورسودان . وكانت هذه الأيدى نفسها هى التى أقامت كوبرى النيل عند كوستى لمد الخط الحديدى .

وعندما مد الخط الحديدى جنوبى السودان بعد سنة ١٩١٠ كانت اذرع كتيبة السكة الحديد ـ وهى كتيبه مصرية تحت قيادة اللواء محمد فاضل ـ هى التى

قامت بها والأموال المصرية هى التى صرفت عليها وقد بلغت ٣٥٤ ألف جنيه بالرغم من الأزمة المالية الطاحنة التى كانت مصر تعانيها فى تلك السنة. هذا فى الوقت الذى رفضت فيه الحكومة البريطانية أن تضمن قرضا للسودان يساعده على القيام بهذه المشروعات .

وكانت القوات المصرية التى دخلت الخرطوم هى التى أعادت بناء قصر الحاكم وكذلك بناء ادارات الحكومة وكذلك إدارة تسجيل الأراضى الزراعية والإدارة الصحية العامة والمطبعة الأميرية .

وكان أفراد هذا الجيش هم الذين قاموا بتشييد الثكنات التى سكنها الجيش وكانت أربعا تحمل أسماء سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس غير ثكنة خامسة لأجل المشاة وثلاثا لأجل فرق المدافع. وقد كونت هذه المنشئات أكثر من ثلثى منشئات مدينة الخرطوم أنذاك .

وفى أم درمان شيد المصريون ثكناتها ومستشفاها المدنى وثلاث ثكنات المدفعية علاوة على ثكنة للفرسان . كما أنشأوا مبانى كلية جوردون وكان المصريون هم الذين قاموا بالتدريس فى المدارس الثلاث التى أنشأتها الحكومة عقب الفتح فى وادى حلفا وسواكن . وواد مدنى .

وادعى البريطانيون أنهم هم الذين نقلوا السودانيين من حضارتهم البدائية إلى مستوى الحضارة الأوروبية ولكن الواقع يكذبهم فهل كان فى وسع المجتمع البدائى أن ينتقل الى الحضارة الراقية بل البالغة الرقى دفعة واحدة. وهل كانت له الإمكانيات المالية التى تساعده إلى ذلك ؟ لاسيما وان البريطانيين عاشوا فى قصورهم فى عزلة تكاد تكون تامه عن السودانيين بينما المصريون هم الذين بنوا بيوتهم المتواضعة وسط بيوت السودانيين ولم تلبث العلاقات أن قامت

بينهم بحكم اللغة المشتركة والدين المشترك مما أدى إلى الاختلاط ثم المصاهرة ، ولم يكن هذا التأثير قاصراً على الموظفين المصريين بل شاركهم فيه التجار وأوساط الناس — بل حتى كبار الموظفين من المصريين فهم لم يرتفعوا فى معيشتهم الخاصة إلى مستوى معيشة البريطانيين الرفيعة والمتعالية .

ولا ننسى أن الذى نظم الأحوال الشخصية فى السودان هم المصريون ، فهم الذين حملوا على أكتافهم عبء هذا النظام فأصدروا القوانين المنظمه له وتولوا منصب قاضى قضاة السودان . وكان للشيخ مصطفى المراغى الذى تولى هذا المنصب من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ فضل تنفيذ تنظيمات وإصلاحات ما زال السودانيون يذكرونها حتى الآن وبعد أن أنشأت الحكومة المعهد العالى لتخريج رجال الدين الإسلامى الذين يتولون الفصل فى قضايا الأحوال الشخصية وكان يؤهل الطالب الحصول على الدرجه العالمية بعد ١٢ سنة فكان المصريون هم الذين قاموا بعبء التدريس فيه ولاشك أن البريطانيين ما كانوا ليستطيعوا أن يشاركوا فيه باى نصيب :

وفى خلال الخمس سنين الأولى من الحكم مد من خطوط التلغراف ٣١٢٥ ميلا فوصلت إلى واو وجعلت الدوريات لحراسة الخطوط وأصلاحها بصفة مستمرة ، وفى الأجزاء المنعزلة ألقى عبء إصلاح هذه الخطوط على عاتق رجال الإدارة وقد مات خلال هذا العمل الشاق إثنان وخمسون موظفاً لم يكن بينهم غير أربعة عشر بريطانيين .

وبذلت الجهود لأجل إجتياز منطقة السدود التى امتدت اميالا . وكان العمل يجرى وسط ظروف غير ملائمة سواء فى الليل أو النهار والحرارة الشديدة والرطوبة المرتفعة علاوة على البعوض والضفادع التى فتت فى عضد العمال ولم يشرف على هذا العمل سوى أربعة عشر بريطانيا

وحمل المصريون وحدهم عبء التدريس فى السودان فحتى سنة ١٩٣٦ لم تكن الحكومة قد انشأت سوى ثلاث مدارس ثانوية و٤٠ مدرسة ابتدائية وثلاثمائة مدرسة أولية علاوة على ثلاثمائة كتاب . بينما افتتحت الكنيسة القبطية كلية الأقباط فى الخرطوم فى سنة ١٩١٦ وكانت مختلطة جمعت بين البنين واحتلت مكانا رفيعا فى الحياة السودانية وانشىء قسمها الثانوى فى سنة ١٩٢٥ ووصل عدد طلبتها فى ١٩٣٦ إلى ٦١٠ طالبا موزعين على ١٣ فصلا وافتتحت مدرسة مستقلة للبنات فكانت الأولى فى السودان كما انشئت مدرسة أخرى فى عطبره فى سنة ١٩٣٢ ثم ثالثة فى واد مدنى ورابعة فى بور سودان . وأخذ عدد المدارس القبطية فى الزيادة حتى وصل إلى أربع عشرة مدرسة فى مدن السودان المختلفة منها ثلاث مدارس للبنات .

وإذا كان السودانيون قد شعروا بجميل الأقباط فى تعليمهم إذ تعلم فى هذا العدد من المدارس القبطية كثير من السودانيين الذين شاء الله أن يتولوا قيادتها فيما بعد . إذ كانت نسبة السودانيين إلى المصريين كنسبة ٤:١ فإنهم لم يشعروا بمجهود ما من ناحية حكومة مصر يبذل من أجلهم . إذ لم تشأ هذه الحكومة أن تنشىء لهم مدرسة واحدة تشعر السودانيين بأنها شريكة فى حكم بلادهم . ولم يحدث هذا إلا فى سنة ١٩٣٦ بعد عقد معاهدة الزعفران حين انشأت الحكومة (منطقة تعليمية) على غرار مناطق القاهرة والاسكندرية وغيرها . فأنشأت آنذاك مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية فى الخرطوم ندبت لها مدرسة من خيرة الأساتذة المصريين كما أنشأت بعض المدارس الإبتدائية فى بعض مدن أخرى . وسارت هذه المدارس وفق المنهج المصرى . وبعثت النشاط الثقافى المصرى بعض البعث . وحين استقل السودان ظل بعض هذا النشاط ولكن الغيت (المنطقة التعليمية) وافتتح فرع لجامعة القاهرة يعمل

ليلا . ومازال هذا النوع من النشاط يعمل جنباً إلى جنب مع النشاط السودانى فى تثقيف السودانيين وقد بلغ عدد تلاميذ المدرسة الثانوية فى الخرطوم فى سنة ١٩٥٣ ألف طالب ارتفع إلى ١٥٠٠ فى سنة ١٩٥٥ بين سودانيين ومصريين وبلغ عدد فصولها تسعة وعشرين فصلا فى سنة ١٩٥٣ ارتفع إلى أربعة وثلاثين فصلا فى سنة ١٩٥٥ يعمل بها ثلاثة وستون مدرساً وإدارياً .

وعمل الأقباط المنتشرون فى جميع أجزاء السودان على انشاء الكنائس لخدمة المهاجرين من الأقباط الذين انبثوا فى معظم بلاد السودان حتى وصلوا الأبيض ونيالا . وكانت أولى كنائسهم تلك التى انشئت فى الخرطوم سنة ١٩٠٠ وافتتحها البطريرك كيرلس الخامس الذى أحسنت حكومة السودان استقباله آنذاك . وأقامت إلى جانب كل كنيسة جمعية تباشر نشاطا ثقافياً كبيراً . وللاقباط فى السودان أكبر مكتبة فى أرجاء السودان قاطبة غير ثلاث مكتبات فى الخرطوم وأم درمان وواحدة فى العطبرة وواحدة فى واد مدنى — وواحدة فى الأبيض .

وإذا ما قطعت العلاقات المصرية السودانية فى سنة ١٩٢٤ أثر مقتل السردار كما سنفصل فيما بعد شعرت كل مدن السودان بهذه الصدمة حتى أضطر كثير من الشركات التجارية فى الخرطوم إلى غلق أبوابها وأخليت دور الأعمال والعمارات وظلت خالية أكثر من عشر سنوات ولعل أشد الضربات كانت من نصيب مدينة سوا كن التى كانت تعسكر بها فرقة مصرية فكان رحيل هذه الفرقة إلى جانب إنشاء مدينة بور سودان الضربتين اللتين قضتا على هذه المدينة لا كميناء سودانى بل كمدينه عامرة .

وكان من نتيجة ذلك أن هبطت أرقام الميزانية السودانيةهبوطا ملحوظا

فبعد أن كانت ١١ مليوناً من الجنيهات فى سنة ١٩٢٦ هبطت إلى تسعة مليون فى سنة ١٩٣٠ وإلى سبعة سنة ١٩٣٢ مما أدى بالحكومة إلى وقف جميع الإنشاءات بل إلى الإستغناء عدد كبير من موظفيها وأنقاص مرتبات الباقين بنسب تراوحت بين ٥ ، ١٠ ٪ .

وإذا ما قررت الجمعية الزراعية (الملكية) المصرية أرسال بعثة من أعضائها إلى السودان لأجل عودة العلاقات التجارية بين البلدين تلقف أهالى السودان وتجاره وحكومته هذا القرار كما يتلقف الغريق عود القش وسافرت البعثة فعلا فى يناير سنة ١٩٣٥ ومكثت هناك أسبوعين طافت فيهما أنحاء السودان حتى إذا عادت أسرع رئيس الفرقة التجـــارية السودانية إلى مصر ودارت محادثات طويلة أخرى أدت إلى تبادل المعلومات وعقد بعض الصفقات التى بعثت بعض الحياة إلى إقتصاديات السودان ولم يكن هذا المجهود من ناحية المصريين إلا أستمرار لمجهودات سابقة بذلوها . فعلى أكتاف التجار المصريين قامت أكثر نواحى الإقتصاد السودانى إذ بمجرد أستعادته فى سنة ١٨٩٩ هاجر إلى السودان عدد كبير من المصريين وكان معظمهم من مدينة نقادة بمحافظة قنا وعرفوا هناك باسم النجادة وأحتلوا من تجارة السودان مكاناً مرموقا وأستعانت الحكومة السودانية ببعضهم لتنقيح القوانين التجارية السودانية كما أقبل الأجانب على أستثمار أموالهم فى شركات جديدة أخذت فى طريقها إلى الظهور فكان من أثر ذلك أن أقبلت شركات أجنبية جديدة وعديدة على أفتتاح فروع لهـا فى المدن السودانية ساهمت بقدر كبير فى الإقتصاد السودانى .

وكان من نتيجة هذا التعاون المصرى السودانى بعد سنة ١٩٣٦ أن أرتفعت أرقام الميزانيه ارتفاعاً فاق حد القصور إذ وصلت فى سنة ١٩٤٨ إلى

٧٨ر٨٣١ر٦٤١ جنيهاً كان نصيب الإيرادات منها ٤٦ر٢٩٩ر٦٥٨ جنيهاً بينما لم تزد المصروفات عن ٣١ر٥٣١ر٩٩١ جنيهاً أى بوفر قدره ٢٤ر٨٦٨ر٦٦٧ جنيهاً .

وكان من أثر هذا الإنتعاش أن أقبل الأهالى والأجانب متعاونين على إنشاء الشركات الصناعيه كى تسد حاجة البلاد من المصنوعات التى تعذر أستيرادها فأنشئت صناعات دبغ الجلود والأسمنت ومعاصر الزيت وحفظ اللحوم علاوة على نسيج القطن الذى بلغ إنتاجه أكثر من ثلاثة ملايين باردة فى السنة ومعمل للصابون ينتج أكثر من ٤٠٠ طن سنوياً وكذلك مصنع للسكر .

وظهر أثر هذا الإنتعاش الإقتصادى فى التعليم فوصل عدد التلاميذ فى سنة ١٩٥٠ إلى ٩٩ر٤٥٢ طالباً عدا ١٥ر٤٨٧ طالباً فى المدارس الأهلية ثم مدرستان للمعلمين ومثلهما لتخريج المعلمات وانشأت الحكومة المصريه إدارة للرى فى الملكال عند أعالى النيل الأبيض كان هدفها مراقبة تصرف النيل وتطورت المنابع قامت بعملها خير قيام وكان موظفوها جميعاً من رجال الرى المصرى الذين اشتركوا مع رجال الرى البريطانيين فى التفكير فى تنفيذ مشروعات لتدارك الفقد فى مياه النيل فى منطقة السدود وهو يبلغ ٧٠ ٪ من المياه القادمة من المنابع الاستوائية . وانتهى التفكير إلى وجوب تجنب هذه المنطقة أثناء سير المياه إلى النيل الأبيض بحفر قناة جونجلى وقد نشرت الجرائد أخيرا تفكير الحكومتين المصرية والسودانية فى التعـاون لإنشاء هذه القناة .

وحين انشأت حكومة أوغندا خزان أوين عند مخرج بحيرة فيكتوريا

رأت أن يكون ارتفاعه مترين فقط مما يحقق خزن مياه كافية لرى أراضيها . فرأت مصر أن تساهم فى مصاريف هذا الخزان بثلاثة ملايين من الجنيهات لقاء ارتفاع هذا الخزان مترا ثالثاً يكون ما يحجز خلفه من ماء لصالح مصر . ومن المعلوم أن مصر لن تستطيع الاستفادة من هذا القدر من الماء الا بعد حفر قناة جونجلى .

وقد رأت ادارة الرى أن ٩٠ ٪ من مياه الفيضان السنوى تأتى من النيل الأزرق وهى أثناء اندفاعها الشديد توقف تماماً — لشدة تيارها — مياه النيل الأبيض جنوبى الخرطوم . فرأت أن تنشىء هناك خزانا ليكون تصريف المياه بعد انقضاء الفيضان قيد نظام خاص من أجل الاستفادة بهذه المياه على نحو منظم فأنشأت خزان جبل الأولياء وجعلته تحت ادارة مصرية خالصة كما جعلت تصرف المياه منه اثر انتهاء الفيضان وفقاً لمصلحة مصر . ومقدار ما يزرع من أراضيها وماتحتاج هذه الأراضى من مياه .

وبدء بزراعة القطن فى السودان فى سنة ١٩٠٤ ولكن على نطاق ضيق بمنطقة كسلا والجزيرة وطوكر وكردفان . وكان ذلك تحت اشراف السير وليم هاريس . ورؤى أولا امكان زراعة الحبوب بعد عمل مشروع قناطر على النيل الأزرق . ثم بدء بزراعة القطن فى منطقة كسلا وطوكر . ثم منطقة زيداب التى تقع شمالى الخرطوم بمسافة ١٥٠ ميلا فى جيوب متفرقة بواسطة أمريكى يدعى المستر لى هانت . ثم بدء بإنشاء مشروع قناة الجزيرة فى سنة ١٩٠٨ حين بدء مسح الأرض حين اتضح أن هذا المشروع هو الأمل الوحيد لجعل السودان يكفى نفسه بنفسه فتألفت شركة انجليزية بحتة باسم نقابة زراع القطن وبدأت التجربة فى أربعين ألف فدان انشئت لأجلها طلمبات للمياه فى الطيبة على النيل الأزرق . حتى اذا بشرت التجربة بنجاح شفعت بمشروع

طلمبات بركات جنوبى سنار وأخذت امتياز زراعة ألفى فدان وتعهدت بحفر الترع اللازمة لها .

وفى سنة ١٩١٣ حصلت النقابة على ضمان من الحكومة البريطانية لسلفة مقدارها ثلاثة ملايين جنيه تعقد فى الأسواق البريطانية بفوائد لا تزيد عن ٣,٥ ٪ لأجل زيادة العمل فى مشروع الجزيرة وكذا قناة الرى والسكك الحديدية . ثم بدأ التفكير فى إنشاء خزان مكوار لتزويد المنطقة بالمياه ثم سار المشروع بواسطة شركة إنجليزية حين تم إنشاء الخزان فى سنة ١٩٢٥ أخذت كل أرض الجزيرة إيجاراً اسمياً من الحكومة ثم قسمتها بين المستأجرين من الأهالى بنسبة ٤٠ فدانا لكل مستأجر بالسعر الرسمى الذى تحدده وتركت له أمر زراعتها على دورة ثلاثية لقاء فائدة وكانت الشركة وتقوم بخدمة المشروع من حيث مده بالمياه والنصح والبحث الفنى لقاء أن تحصل هى على كل إنتاجه من القطن ذى التيلة الطويلة بالثمن الذى تحدده وتقوم بحلج هذا القطن وبيعه إلى الشركات البريطانية، وكانت مصر تشترى ما يفيض من بذرته. وكان ربح المشروع يقسم بنسبة ٤٠ ٪ لمستأجرى الأرض ، ٤٠ ٪ للشركة ، ٢٠ ٪ للحكومة السودانية وكان مشروعا بريطانيا خالصا . ولسنا فى حاجة لأن نذكر أن فائدته نشر زراعة القطن على نطاق واسع فى السودان إلا أن فائدة الإقتصاد البريطانى بالحصول على القطن الخام لمصانع لانكشاير كانت الهدف الأول والأخير لاسيما وأنها كانت الجهة الوحيدة التى تعين ثمن قنطار القطن السودانى، ولوحظ أنه كان دائما أقل من أسعار القطن فى الأسواق العالمية .

وعملت الحكومة البريطانية منذ سنة ١٩٠٤ على فصل جنوبى السودان – حيث تقطن القبائل الأفريقية الخالصة (نيلوتك) Neoletic – عن شماله .

حين منعت الشماليين ومعهم المصريين من السفر إلى الجنوب إلا بإذن من الحاكم - كما منعت الشماليين الذين يعملون هناك من المصاهرة إلى الجنوبيين ومن فعل منهم ذلك حرم من اصطحاب أطفاله منها معه إلى الشمال عند انتهاء مدة خدمته .

واتخذ هذا الأمر شكلا قانونيا فى سنة ١٩٢٢ حين صدر (قانون المناطق المقفلة) وأنفرد المبشرون الأجانب بجنوب السودان يصورون لأبنائه أن الشماليين لا يودونهم إلا رقيقا كما كانوا يفعلون معهم فى الماضى ، كما يرغبون فى إرغامهم على اتخاذ العربية لهم لغة والإسلام دينا ، مصورين لهم أن دماءهم الزنجية تجعلهم أقرب إلى سكان أوغندا من سكان السودان الشمالى ذوى الدماء العربية . كما دأبت الحكومة السودانية بمعنى أصح الحكومة البريطانية فى السودان على نشر الدعاية بين السودانيين ضد المصريين بأنهم بمدنيتهم - ذات المستوى المنخفض - لا يمكنهم المساهمة الفعلية فى تقدم السودان وان البريطانيين بحضاراتهم الراقية وإمكانياتهم الواسعة الوحيدون القادرون على هذا العمل .

مركز السودان القانونى تحت الحكم المصرى :

لابد لنا أن نقف وقفة قصيرة لنسأل ماهو مركز السودان السياسى خلال الحكم المصرى . فالسودان قبل إمتداد الإدارة المصرية إليه لم يكن دولة ذات حدود موحدة وكانت سلطنة الفونج أقوى الحكومات التى قامت فى هذا القطر المتسع الذى ضمته فيما بعد كلمة السودان .

وحين فكر محمد على فى مد الإدارة المصرية إليه لم يكن مركزه أكثر من وال من ولاة الأجزاء المختلفة فى الدولة التركية وتخضع للسلطان العثمانى

وتملك حق عزلهم وتعيينهم ، ولذا رأينا محمد على يستأذن السلطان أولا فى هذا الفتح فيأذن له حتى إذا بدأ الفتح عين الأمير إسماعيل بن محمد على حكمداراً على السودان بفرمان سلطانى ، فإذا كان السودان قد خضع بعد ذلك لمحمد على فباعتبار هذا الأخير والياً عثمانيا . وعلى هذا الأساس قدم السلاطين والمشايخ ولاءهم ، وإذا ما تنازل السلطان بادى السادس سلطان الفونج بعد ذلك عن عرشه فإنه تنازل عنه للسلطان . هذا بينما كانت موانى الشاطىء كله تحت السيادة العثمانية بل تابعة لولاية جدة ، وكان إبراهيم بن محمد على قد حصل على هذه الولاية حين نجح فى القضاء على الحركة الوهابية وإعادها إلى حظيرة الدولة العثمانية كما حصل على لقب (حامى الحرمين الشريفين) فمن الواضح إذن أن محمد على لم يكن - قانونا يملك أى سيادة على مصر نفسها التى كانت محرومة من السيادة بحكم تبعيتها للدولة التركية ، فالقول إذن أن مصر قد أصبحت لها سيادة على السودان قول لا يبرره أى سند من القانون . فمصر المحرومة من السيادة على أراضيها لا تملك سيادة على أراضى أخرى . وإذا كانت مراسيم تعيين الحكمدارين قد صدرت بعد إسماعيل من محمد على لا من السلطان فإن هذا لا يغير من الواقع شيئاً مادام محمد على نفسه تابعاً للسلطان . ومما يؤيد ذلك صدور فرمانى سنة ١٨٤١ الذين حددا نهائياً علاقة محمد على بالسلطان ، إذ كان الفرمان الأول خاصاً بمصر والثانى خاصاً بالسودان . وإذا كان هذا الفرمان الأخير قد ضم إلى محمد على حكم مقاطعات النوبا ودارفور وكردفان وكانت كلها خارجة عن حدود السودان ، ولم تمتد إليها الإدارة المصرية ، فإن هذا يعد تفويضاً من السلطان إلى محمد على بفتح هذه الأجزاء وضمها .

وسار الأمر على هذا النحو طيلة حكم عباس وسعيد واسماعيل وخاصة هذا الأخير الذى كان يسعى لدى السلطان لضم مصوع ، ثم زيلع وبربرة وغيرها

معترفا بأن هذا الضم ماهو إلا ضم موقت يرضى السلطان الذى يملك ـ كما حدث فعلا ـ حق عزل إسماعيل وتعيين خليفة له، وإذا كان اسماعيل قد حصل من السلطان على حق الوراثة الصلبية فى سنة ١٨٧٣ فإن هـذا لم يغير من الأمر القانونى شيئاً، فانه كان رغم حق حصر العرش فى أبنائه تابعاً من توابع السلطان وأن تمتع بهذا الحق الأخير .

وعين توفيق خديويا على مصر برسوم سلطانى . وفى خلال حكم هذا الأخير قامت الثورة المهدية واضطرت مصر إلى الجلاء عن هذا الجزء من أملاك السلطان. وفى خلال هذه الثورة رأى شريف باشا كمحاولة منه لسحق الثورة، الاستعانة بجيش من الأتراك، ولـكن انجلترا التى كانت قد احتلت مصر دون أن تغير من موقفها القانونى شيئاً كولاية تابعة للسلطان العثمانى، هى التى منعت شريف باشا من ممارسة هذا الحق بحكم القوه التى كانت تملكها إنجلترا لا بحكم الوضع الفعلى الذى أصبحت فيه إنجلترا فى مصر .

وسمت مصر ومعها إنجلترا إلى استرداد السودان فى سنة ١٨٩٦ دون أن يتغير المركز القانونى لـكل من مصر والسودان تجاه السلطان . فمصر تابعة للخديوى المصرى الذى هو تابع بدوره للسلطان العثمانى . وإذا كانت انجلترا قد اشتركت فى هـــذا الفتح، فقد فعلت ذلك مساعدة لمصر فى هذه الاستعادة دون أن يكون لها مركز قانونى مافى هذا الفتح . تم هذا الاسترداد دون أن يكون لانجلترا حق ما فى السودان . وأتمت عقد معاهدة الحكم الثنائى فى السودان بينها وبين مصر دون أن تذكر كلمة واحدة عن السيادة على السودان . وعلى هذا الأساس لم تصرف أنجلترا فى السودان قرشاً واحداً ولم تستطع بعد ذلك أن تضع قرشاً واحداً من أجل الصرف على السودان.

وقامت الحرب العالمية الأولى ،وأعلنت انجلترا حمايتها على مصر من جانب واحد فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ولم تثر قط مسألة سيادة تركيا على مصر والسودان ، بل كان يعنيها الأمر الواقع دون الأمر القانونى ، وهذه الحماية لم يعترف بها المصريون قط بل ظلوا ينـكرونها وأصبحت مصر منذ سنة ١٩١٤ والبلاد التابعة لها (الملحقات) تحت السيادة العثمانية القانونية وتحت الحماية البريطانية الفعلية وإن لم تمتد هذه الحماية إلى السودان .

وسار الأمر على هذه الصورة حتى سنة ١٩١٧، حين خرجت تركيا من الحرب وعقدت مع إنجلترا معاهدة سيفر Sevre وتنازلت بمقتضى هذه المعاهدة عن أملاكها العربية ومنها مصر . فأصبح الوضع القانونى لمصر أنها دولة مستقلة تحت الحماية البريطانية غير الشرعية التى لم تعترف بها مصر مطلقاً، وأصبح السودان تابعاً لمصر المستقلة يشاركها مسؤولية الحكم فيه بريطانيا بحكم معاهدة سنة ١٨٩٩ . وعلى هذا النحو سارت الأمور حتى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ حين أعلنت إنجلترا من تلقاء نفسها تصريح ٢٨ فبراير الذى انهت به حمايتها على مصر واعترفت بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ولـكنها فى نفس الوقت أبقت مسألة السودان لا يمتد إليها هذا الإعتراف واقعياً . وإن كانت تعرف أن السودان بعيد عن سلطانها قانوناً . ومن ثم أضحت المسألة السودانية هى ذنب الضب فى العلاقات المصرية البريطانية .

(ب) التطور السياسى فى السودان :

قام المصريون فى سنة ١٩١٨ أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى يطالبون بإنهاء الحماية البريطانية على بلادهم للعودة بها إلى حالة الاستقلال الطبيعية بعد أن تنازلت تركيا عن الولايات العربية فى معاهدة سيفر ، ورفض البريطانيون هذا الطلب

ونفت أربعة من زعمائهم إلى جزيرة مالطة فانفجرت الثورة فى مصر فقابلتها إنجلترا بالقوة .

وخاف البريطانيون تسرب الثورة إلى السودان ، فأدعى الحاكم العام السير لى ستاك أن آلاف الرسائل قد وصلت إليه تطلب منه أن لا يسمح بتسرب (الفوضى) إلى السودان ولا شك أن هذه الرسائل - إذا كانت قد وصلت حقيقة - قد كتبت فى قصر الحاكم بإيحاء منه، وأغلب الظن أن من وقعها من السودانيين لم يكونوا يعلمون علام يوقعون إذ لم يكن الوعى فى السودان يصل إلى حق المطالبة بشىء ما . وكان المصريون يدركون الموقف الحقيقى كما أنهم يعلمون صعوبة الحصول على حقهم وحكم بلادهم من إنجلترا المنتصرة، فلم يكونوا يريدون زيادة التعقيد فى الأمور . فإذا ما دارت المفاوضة الأولى بين الوفد المصرى الأول برئاسة سعد زغلول ولجنة ملنر جاء فى المادة الثالثة عشر من مشروعه الذى قدمه لتدور المفاوضات على أساسه (أن تكون مسألة السودان موضع اتفاق خاص) وإذا ما قدمت لجنة ملنر مشروعها وجاء فيه (أنه لن يسمح لأى تغيير يحدث فى حالة مصر السياسية أن يوقع الاضطراب فى وقف تقدم السودان ورقيه) لم يعترض الوفد المصرى على هذا النص .

وإذا ما عرض مشروع الاتفاق بين الوفد ولجنة ملنر على الأمة لتبدى رأيها فيه انصبت الانتقادات على جميع مواده، ولكن لم يكن بينها انتقاد واحد للمادة الخاصة بالسودان .

ودارت المفاوضة الثانية بين عدلى باشا واللورد كرزون صرح عدلى باشا بأن الذى يعنى مصر فى السودان هو أن تقرر من جديد حقوقها فيه وأن يصبح لهذه الحقوق مظهر خارجى بأن يكون لمصر يد فى إدارة السودان . أما الصورة الفعلية لهذه اليد فهى محل بحث ، ولا يدفع مصر إلى ذلك إلا النظر فى مصالحها فى السودان . والحرص على توفيرها ، وأول هذه المصالح النيل والجيش السودانى ووجوب تبعيته للجيش المصرى وإخلاصه لولى الأمر فى مصر . وهجرة المصريين إلى السودان . ووجوب أن يجدوا كل التسهيلات الممكنة وأن يتمتعوا بكل الحقوق . وكذلك تموين السودان لمصر) .

وأعلن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ مصر دولة مستقلة ذات سيادة، ولم يأت ذكر للسودان، وعلى هذا الأساس قام المصريون بشئون دستورهم وهم يفهمون أن السودان جزء تابع لمصر التى أصبحت مستقلة . فحاولت أن تنص على أن يكون لقب الملك (ملك مصر والسودان) ولكن إنجلترا اعترضت على ذلك . ونجحت فى حذف هذا النص . وإن كانت تعرف فى نفس الوقت أن هذا الحذف كان عملا غير قانونى ولكنها استطاعت بحكم القوة التى تمارسها فى مصر .

وقام بعض السودانيين -- وكانوا قلة — يشعرون بوجوب مشاركة المصريين فى مصيرهم، والقيام ببعض الجهد لإشعار البريطانيين بحقهم فى الانضمام إلى مصر المستقلة فنشر على عبد اللطيف فى مايو سنة ١٩٢٢ نشرة بعنوان (مطالب الأمة السودانية) يطلب فيها استقلال السودان وانضمامه إلى مصر ، فقبض عليه وحوكم بتهمة إحداث الشغب وحكم عليه بالسجن عاماً ثم خرج من السجن فى أبريل سنة ١٩٢٣ وهو أشد ما يكون كراهية لبريطانيا .

فلم يكد يمضى على خروجه من السجن شهر واحد حتى أعلن فى اجتماع

…م لم يشترك فيه مصريون قيام (جمعية اللواء الأبيض) ، ولم يأت آخر مايو حتى كان لهذه الجمعية فروع فى مدن كثيرة فى السودان حتى الفاشر وتالودى. وجعلت هذه الجمعية لها علماً أبيض رسمت عليه خريطة للنيل وفى ركن منها العلم المصرى الأخضر وقد كتبت على الأرضية البيضاء عبارة (إلى الأمام) وكان رسم خريطة النيل مع العلم المصرى الأخضر إشارة واضحة إلى أنه يقصد وحدة النيل تحت الحكم المصرى . فقبض على زعماء الجمعية من جديد وحوكموا أمام محكمة الجنايات . فحكم على رئيس الجمعية بالسجن ثلاث سنوات وأودع سجن كوبر بالخرطوم .

وقامت المظاهرات فى السودان تؤيد على عبد اللطيف وقابلتها الحكومة السودانية بالعنف وأحتجت الحكومة الوطنية الأولى — برئاسة سعد زغلول — على هذا العنف .

وكانت هذه المظاهرات — ولا شك — دليلا على يقظة الرأى العام فى السودان هذا الوقت الذى تغير فيه الرأى العام فى مصر ، وأصبح يطالب بوحدة وادى النيل . ووزير مصر المفوض فى إنجلترا عزيز عزت باشا يخطب فى إحدى المآدب فى لندن ليدعو إلى أن يترك الإنجليز مصر حرة حتى تتقدم (ضمن حدودها الطبيعية والجغرافية التى هى حق لها).

وقتل السير لى ستاك حاكم السودان العام وسردار الجيش المصرى فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ وإذا بانجلترا تقدم لمصر إنذاراً تطلب فيه جملة مطالب من بينها ما هو خاص بالسودان .

١ — أن تصدر الحكومة المصرية خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى البحتة من السودان مع ماينشأ عن ذلك من التعديلات التى ستتبين فيما بعد .

٢ — أن تبلغ المصلحة المختصة أن حكومة السودان ستزيد مساحة الأطيان التى تزرع فى الجزيرة من ٣٠٠ ألف فدان إلى مقدار غير محدود تبعاً لما تقتضيه الحاجة .

وقد أرفق هذا الإنذار بمذكرة أخرى تبلغ فيها الحكومة البريطانية الحكومة المصرية أنها (بعد سحب الوحدات المصرية البحتة من السودان ستحول الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى إلى قوة مسلحة سودانية تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وحدها وتحت قيادة الحاكم العام وتصدر باسمه العرائض والبراءات للضباط) .

ورفضت الحكومة المصرية هذا الإنذار كما رفضت تحمل مسؤولية الحادث ولذا بادرت الحكومة البريطانية هناك بالعمل منفردة فحاصرت قوة بريطانية القوة المصرية فى الخرطوم ، بينما رفضت الكتيبة الثالثة المصرية السفر إلا بأمر من وزير الحربية المصرى، ورفضت قوة تالودى التسليم، هذا فى الوقت الذى استقالت فيه الوزارة المصرية وأتت وزارة جديدة يرأسها أحمد زيور باشا على أساس قبول الإنذار البريطانى (لإنقاذ ما يمكن إنقاذه) ، فإذا طلبت منها الحكومة البريطانية أمراً من وزير الحربية بسفر الجيش المصرى من السودان أرسل لها هذا الأمر بالطائرة وأركب الجنود المصريون القطار — بعد ثورة منهم — إلى بور سودان حيث حملتهم السفن إلى مصر ، وفى ديسمبر علم المسجونون السودانيون فى سجن كوبر بما كان من أمر مقتل السردار فثاروا فقدمتهم الحكومة للمحاكمة بتهمة محاولة قلب نظام الحكم وصدرت عليهم الأحكام المختلفة كان نصيب على عبد اللطيف منها سبع سنوات غير الثلاث الأولى .

وأرسل إلى الجنوب ليقضى مدة السجن الجديد حيث مات.

وبذلك انقطعت الصلة الرسمية بين مصر والسودان وأصبح الحكم فى السودان بريطانيا خالصا غير مقنع بالحكم الثنائى كما كان فى الفترة الماضية، وكتب الحاكم العام الجديد على أثر ذلك إلى كل من المندوب السامى البريطانى فى مصر ووزارة المستعمرات فى بريطانيا يطلب إلغاء إتفاقية سنة ١٨٩٩ وانفراد بريطانيا بحكم السودان باعتباره مستعمرة بريطانية، ولكن ترددت الحكومة البريطانية فى اتخاذ هذه الخطوة وظل الأمر فى السودان كما كان عليه عقب خروج المصريين، حكما بريطانيا خالصاً دون سند شرعى سوى معاهدة سنة ١٨٩٩ التى تنص على الحكم الثنائى .

وفى الوقت الذى جرت فيه هذه الحوادث السياسية كان هناك تيار اجتماعى قد نبت وسوف يتاح له أن يلعب دوراً فى العلاقة بين مصر والسودان، ولذا لا بد من الإشارة إليه بشىء من التفصيل وهو التيار الدينى . فالإسلام لم يدخل إلى السودان عن طريق الدعاة أو المدارس الإسلامية بل عن طريق هجرات القبـائل الإسلامية سواء من الشمال أو الشرق ولم يلبث الأهالى المسيحيون أن تصاهروا إليهم بعد أن رأوا حكومتهم أعجز من أن تحميهم من هجمات تجار الرقيق، فانتشر الإسلام بينهم وهاجر إلى السودان مع من هاجر إليه أصحاب الطرق الصوفية ولم يلبث هؤلاء أن اقتسموا الأهالى فيما بينهم وكانت أكثر الطرق الصوفية انتشاراً لاسيما بعد القرن الثامن عشر الميرغنية نسبة إلى رئيسها السيد عثمان الميرغنى الذى قدم من الحجاز وأسس مدينة الختمية عند كسلا لتكون مركزاً لنشاطه . وقد حرص السيد على

الميرغنى على حسن العلاقة مع الحكومة المصرية حين قدم إلى السودان الحكم المصرى . وإذا ما قامت الحركة المهدية (وهى إحدى الطرق الصوفية الأخرى) سافر السيد الميرغنى إلى مصر وأقام بها ثم عاد إلى السودان حين انتهت المهدية، ونشط فى كسب الأنصار فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة الثنائية تراقب المهدية وتمنع نشاطها . وفى سنة ١٩١٢ حين مر الملك جورج الخامس بالسودان فى طريقه إلى الهند رأس السيد الميرغنى وفداً سودانيا لتقديم التهنئات إليه باعتباره الشخصية الأولى فى السودان . وإذا ما انتهت الحرب العالمية رأس وفداً آخر فى سنة ١٩١٩ سافر إلى لندن لتقديم التهنئة إلى حكومة إنجلترا بهذا النصر .

ومن أجل عدم توحيد السودانيين تحت أمره فرقة دينية واحدة قوية عملت الحكومة السودانية على خلق شخصية دينية أخرى تستطيع أن تقتسم مع السيد حسين المرغنى نفوذه، فلجأت إلى عبد الرحمن المهدى وحين قامت الحرب العالمية الأولى أغرت عبد الرحمن المهدى على الخروج من عزلته وتركت له حرية العمل . فلم تأت سنة ١٩١٨ حتى كان المهدى قد بنى له قصراً فى الخرطوم، وأرسل فى سنة ١٩١٩ ضمن الوفد السودانى الذى رأسه الميرغنى لتهنئة الحكومة البريطانية، وبدأ الرجل يزاول نشاطاً دينياً واقتصاديا قوياً وسياسياً أقل قوة تحت سمع الحكومة البريطانية وبصرها بل تحت حمايتها، فلم يلبث السودان أن انقسم دينياً إلى معسكرين معسكر الختمية تحت زعامة السيد الميرغنى ويميل إلى مصر والمهدية أو الانصار تحت زعامة عبد الرحمن المهدى ويميل إلى إنجلترا ويحقد على مصر .

وهنا يجدر بنا أن نسأل . هل كان قتل السردار هو السبب الحقيقى لاتخاذ هذه الخطوة، وهل يستحق قتل موظف مصرى (سردار الجيش

المصرى) وإن كان بريطانى الجنسية ويشغل منصباً مصرياً كبيرا كل هذا الأجراء؟

لا شك أن السردار كان بريطانى الجنسية وله شأن كبير . هذا إلى أنه موظف مصرى كبير فى نفس الوقت . والاعتداء على هذا البريطانى الكبير وأن أستحق تعويضاً ماليا كبيراً بلغ نصف المليون من الجنيهات ، كما إستحق طلب سرعة التحقيق من أجل معرفة الجناة وسرعة محاكمتهم أو العمل على وضع حدللمظاهرات المضادة للبريطانيين ولكن مادخل السودان فى هذا كله؟ وما دخل الجيش المصرىفى السودان؟ وهل طرده من السودان ثم توسيع الرقعة الزراعية من أرض السودان يمكن أن ينظر إليه كعقوبة من أجل قتل هذا الموظف الكبير إذا فرضنا مسئولية الحكومة المصرية عنه ؟

ليس هناك من تعليل لهذا كله سوى أن المذكرة والإنذار قد أعداً من قبل نتيجة السياسة الخاصة التى رسمت خطوطها من أجل قطع الصلة بين السودان ومصر وانتهزت فرصة إغتيال السردار لتقدم وتنفذ .

فهل نبتعد عن الحقيقة إذا ذكرنا أن بريطانيا كانت فى سنة ١٩١٧ مطمئنة تمام الإطمئنان إلى مركزها فى مصر بعد أن حصلت على تنازل من تركيا عن إملاكها العربية فى مؤتمر سيفر وتأكد هذا التنازل فى مؤتمر لوزان فى سنة ١٩٢٠ كما حصلت على إعتراف صريح من الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بالحماية البريطانية على مصر وكذلك من الدول الأوروبيه الحليفة فى مؤتمر فرساى الذى رفض أعضاؤه الإنصات إلى الوفد المصرى الذى حاول هناك إثارة المسألة المصرية برئاسة سعد زغلول. فرسمت إنجلترا سياستها على فرض النفوذ البريطانى على شرق أفريقيا من الإسكندرية حتى كيب تاون

لاسيما بعد ان حصلت من عصبة الأمم على إنتداب بريطانى على أفريقيا الشرقية الألمانية وأطلقت عليها اسم تنجانيقا وكان هذا المشروع هو الذى فكر فيه السير سيسل رودس رئيس وزراء حكومة جنوب أفريقيا فى سنة ١٨٩٦ وعرضه آنذاك على المستر تشمبرلن وزير المستعمرات البريطانية .

ولكن قيام الثورة المصرية مطالبة بالغاء الحماية، ثم صدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ثم قيام الحكم الدستورى فى مصر سنة ١٩٢٤ ، ثم محاولة الوزارة المصرية برئاسة سعد زغلول إيجاد حل المسألة المصرية . أقنع الحكومة البريطانيه أن مصر ستخرج عن نفوذها أن لم يكن عاجلا فاجلا فأخذت تبحث عن بديل لها فوجدته فى السودان لاسيما بعد أن نجحت نقابة زراع القطن فى إستغلال منطقة زيداب وفى دلتا خورى الجاش وبركه ومدمن أجلهما خط حديدى من كوستى إلى بورسودان . مارا بطوكر وكسلا . إلى جانب الخط الذى سبق مده إلى بور سودان من العطبرة وها هى تحاول زراعة منطقة الجزيرة وتقيم من أجل هذه المنطقة الأخيرة خزان سنار .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عملت على فصل جنوبى السودان عن شماليه ومنعت المصريين ومعهم السودانيين الشماليين عن الدخول إليه إلا بأذن من حكومة الخرطوم . وكل هذه الخطوات إذا وضعت بجوار بعضها تدل على سياسة مرسومه هدفها الانفراد بالحكم فى السودان ودأبت الحكومة البريطانيه من أجله على نشر الدعاية بين السودانيين بأن المصريين لايمكنهم بحظهم اليسير من المدينة الأوروبيه مساعدة السودانيين على السير بهم فى طريق الحضارة الأوروبيه الحديثة .

من أجل هذا عقد إجتماع فى أغسطس سنة ١٩٢٤ - وقبل أن تقع حادثه

قتل السردار بعدة أشهر- جمع كلا من السردار ووزير الخارجيه والمندوب السامى فى مصر إقترح فيه الحاكم العام — السير لى ستاك — إخراج الجيش المصرى من السودان وكان مجلس الحاكم العام قد عرضه ووافق عليه سراً — فتحرج الوزير من الموافقه على الإقتراح وأيده فى هذا الحرج اللورد اللنبى المندوب السامى فى مصر وأن كانا قد وافقا على إنتهاز فرصة قادمة للاقدام على هذه الخطوة، وهاهى هذه الفرصة قد قدمت نفسها عند قتل السردار فقدم الاقتراح فلم يتحرج الوزير ولا اللورد اللنبى من انتهازها .

وقطعت العلاقة بين مصر والسودان قطعا يكاد يكون تاما وأن لم تنقطع الصلة بين الحكومتين المصرية والبريطانية، فمازال السودان تحت الحكم الثنائى ومازالت معاهدة سنة ١٨٩٩ بشأن طريقة حكمه سارية من الوجهة القانونية . إذ لم تلبث أن اجتمعت فى يونيو سنة ١٩٢٥ لجنة مصرية بريطانية لأجل فحص الاقتراحات بشأن مشروعات الرى التى تنفذها الحكومتان وأخيراً توصلت اللجنة إلى عقد اتفاق احتفظت فيه الحكومة المصرية بمكتبها التابع لوزارة الأشغال فى السودان (إدارة الرى بالملا كال)، وتعهدت الحكومة البريطانية بعدم القيام بأى مشروع رى فى السودان قبل الحصول على موافقة الحكومة المصرية، وفى ٧ مايو سنة ١٩٢٩ تبادل رئيس مجلس الوزراء المصرى والمندوب السامى البريطانى خطابين بشأن الاتفاق على مياه النيل اتفق فيهما على قبول الطرفين للنتائج التى وصلت إليها لجنة مياه النيل التى تالفت فى سنه ١٩٢٥ وهى الأسس التى تبيح لمصر الحصول على ١/٢ مياه النيل لأجل مشاريع الرى فيها وأن لا تقوم الحكومة السودانية بحجز المياه أمام خزان سنار قبل أن تنتهى الحكومة المصرية من ملأ خزان أسوان، وقد حرص الاتفاق فى جوهره على أن تنظيم الرى على أساس تقرير لجنة مياه النيـــل لا تأثير له على الحالة الراهنة فى السودان ،

وظل هذان الخطابان المتبادلان المعبر عنهما (باتفاقية مياه النيل) أساس العلاقة بين مصر والسودان فيما يتصل بمسائل الرى .

كما بدأت الوزارة فى نفس السنة (١٩٢٩) محاولة جديدة لحل المسألة المصرية بين الحكومتين فاقتصر المشروع المصرى على العودة إلى العمل بأحكام اتفاق سنة ١٨٩٩ وما يترتب عليه من عودة الجيش المصرى إلى السودان وأن يظل الحاكم العام متوليا للسلطات التى فرضتها له الدولتان .

وحاول النحاس باشا فى سنة ١٩٢٩ إكمال ما بدأه سلفه محمد محمود باشا فى سنة ١٩٢٩ فجاء فى المادة ١٣ من مشروع المعاهدة المقدم من الوفد المصرى (إلى أن تحل مسألة السودان بمفاوضات مقبله مع الاحتفاظ بجميع الحقوق يباشر الطرفان المتعاقدان إدارة السودان بالاشتراك بينهما اشتراكا فعليا).

وإذا ما دارت المحادثات بين الوفدين واستفهم الوفد البريطانى عن مدى هذا الاشتراك الفعلى ذكر النحاس أنه (يقصد رفع القيود الموضوعة أمام حرية المصريين بالنسبة للسودان أى حرية الهجرة والإقامة والتملك ثم جعل الإدارة السودانية فى أيدى المصريين والإنجليز على الســـواء) لم تقبل الحكومة البريطانية هذا التفسير لأنها كانت لا تزال مصرة على الأنفراد بالحكم فى السودان رغم سوء الحالة الاقتصادية التى حلت بهذا الجزء من جراء ترك المصريين له . ولذا رأت الحكومة المصرية قطع المفاوضات بالرغم من اتفاقهما على جميع المواد الأخرى الخاصة بمصر، وفى سنة ١٩٣٥ تحرجت الحالة الدولية حين أعتدت ايطاليا على اتيوبيا وخافت انجلترا من قيام حرب عالمية فارادت أن تؤمن ظهرها فى مصر فعرضت على مصر البدء فى مفاوضة جديدة لتسوية المسألة المصرية، وفعلا تم هذا الأمر بعقد معاهدة الزعفران فى سنة ١٩٣٦ وجاء

بها بشأن السودان (إن إدارة السودان تستمر مستمدة من اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ويواصل الحاكم العام مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين) على أن يختار الحاكم العام المرشحين الصالحين للوظائف من بين البريطانيين والمصريين، وأن يكون الجنود البريطانيون والمصريون (بعد عودتهم) تحت تصرف الحاكم العام، وأن تكون هجرة المصريين إلى السودان خالية من كل قيد (إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام) وبذلك عادت الحالة بالمصريين فى السودان فى سنة ١٩٣٧ إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٢٤ .

وكان نتيجة هذه المعاهدة أن العناصر المتعلمة السودانية التى حلت محل المصريين فى بعض الوظائف التهب فيهم شعورهم الوطنى وأحسوا أن دولتى الحكم الثنائى يبتون فى أمرهم دون أخذ رأيهم ، فأخذوا فى التفكير فى القيام بدور إيجابى يلفتون به نظر دولتى الحكم الثنائى إلى ضرورة الاستعانة بهم عند البت فى أمر مستقبل بلادهم .

وفى سنة ١٩٣٨ دعا بعض أفراد هؤلاء المتعلمين إلى عقد مؤتمر الخريجين لانتخاب هيئة دائمة تمثلهم فعقد المؤتمر فى الخرطوم حضره ١١٨٠ متخرجا .

وفى ٢٣ مايو وجهوا إلى السكرتير العام للحكومة خطابا يخبرونه بتأسيس نادى الخريجين واختيار ستين منهم لمجلس الإدارة لينتخبوا خمسة عشر ليكونوا الهيئه التنفيذية كما أبلغوه أن مجال اهتمامهم سيكون .

١ — الشؤون الاجتماعية مثل الإحسانات وافتقاد اليتامى والفقراء .

٢ — الأمور التى تهم الصالح العام فيما لا يدخل فى اختصاص الحكومة .

وستعمل الهيئة فى الأمور الأولى مستقلة ولكن بروح الصداقة والتعاون مع الحكومة فى حدود القانون .

أما فى غير ذلك من الأمور فهم يؤملون أن تعمل الحكومة حسابهم فيما يختص باقتراحاتهم التى سوف يتقدمون بها من حين إلى حين ، وذكروا أنهم فى سياستهم لن يكونوا معـــارضين للحكومة فأغلبهم موظفون يشعرون بمسئوليتهم، كما أن الحكومة سوف تقدرهم باعتبارهم الطبقة المتعلمة فى البلاد وهم فى نفس الوقت لايدعون مركزاً قانونياً كعنصر من عناصر الحكومة القائمة ، ولكنهم يشعرون بواجبهم فى أن يشتركوا فى الجهود التى تبذل من أجل تقدم البلاد ، فالحكومه كانت دائما تبحث عن نصيحة المتعلمين الفردية فهم يشعرون أن الزمن قد جاء ليكونوا أكثر نفعاً لحكومتهم، إذا شعرت الحكومة بحاجة إلى نصيحتهم كجماعة عن طريق لجنة المؤتمر التى وثق بهـا جميع أفراد هيئة الخريجين .

وقد وقع هذا الخطاب اسماعيل الأزهرى بصفته سكرتيراً عاماً لهيئة المؤتمر فرد عليهم السكرتير العام أنه يشعر ويقدر رغبتهم فى تعاونهم لخدمة الدولة مادام المؤتمر لا يبغى اعترافا رسميا كحزب سياسى كما أنه لا يدعى أنه يمثل أكثر من رأى أعضائه ولا يبغى أكثر من الاعتراف به كهيئة شعبية مهتمة بالشئون العامة لها حق التعبير عن رأيها فى هذه الشئون .

وقامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ورأت حكومة مصر أن تعلن ما يشبه الهدنة بينها وبين الحكومة البريطانية فيما يختص بمطالبها فى حل القضية المصرية رغبة فى عدم إثارة ما يمنع من مداومة الحكومة البريطانية بذل الجهود الحربية فى سبيل نصرة قضية الحلفاء .

وحدث مثل هذا فى السودان إذ أرسلت هيئة الخريجين إلى الحكومة خطابا بولاء أعضائها .

وكانت مصر تنتظر إنتهاء الحرب كى تفاتح بريطانيا فى أمر مستقبلها ومستقبل السودان بينما رأت هيئة الخريجين أن تطلق ادعاءها السابق فى أنهم ليسوا حزبا سياسيا ، وإذا مازار السودان على ماهر باشا رئيس الوزارة المصرية فى سنة ١٩٤٠ حرص السودانيون على تكريمه فى حفلة شاى حضرها أكثر من ٨٠٠ مدعو ألقى فيها رئيس الهيئة خطابا أوضح فيه أنهم ليسوا بمصريين بل سودانيون راغبون فى التقدم عن طريق الصداقة مع مصر .

وبدأ الصدام بينهم وبين السكرتير العام سنة ١٩٤٢ حين بدأ بعضهم يعبر عن وجهة نظرهم فى مستقبل بلادهم ويرى بعضهم وجوب استقلالها بعيدة عن النفوذين المصرى والبريطانى بينما تظاهر الآخرون أن لا سبيل لهم إلى الاستقلال والتقدم إلا فى ظل الاتحاد مع مصر وإن لم يكونوا فكرة واضحة عن مدى هذا الاتحاد وصورته . وكان طبيعيا أن يؤيد المصريون الاتجاه الأخير .

وبذلك أصبح واضحاً أن هناك ست وحدات سوف تعمل على حل الخلاف المصرى البريطانى حول المسألة المصرية وأن هذه الوحدات الست قد جمعتهم جبهتان .

١ — جبهة الحكومة المصرية يؤيدها جماعة الراغبين فى الاتحاد مع مصر مع بعض العطف من الطريقة الختمية أو الميرغنية .

٢ — جبهة الحكومة البريطانية يؤيدها جماعة الراغبين عن الاتحاد مع مصر . مع بعض العطف من الطريقة المهدية . أو الانصار .

هذا فى الوقت الذى فسدت فيه الأحزاب المصرية فساداً ظاهراً بل مكشوفا منذ الإنتهاء من عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية

حين اتجه أعضاء هذه الأحزاب جميعاً وأقرباؤهم وانصارهم إلى انتهاز فرصة قيام الحرب للاثراء السريع وتبين الملك فاروق هذه الظاهرة فلم يعمل على محقها بل عمل على إنمائها ليتخذ من تطاحن الأحزاب وأخطائها وسيلة لسحقها جميعاً ، ووسيلة للحصول على حقوق للقصر تبيح له التدخل فى أدق دقائق السياسة المصرية وهى الحقوق التى خيل للعرش أنه فقدها حين صدر الدستور فى سنة ١٩٢٣ ، وكان من نتيجة هذه السياسة أن أخذت الأحزاب المصرية كلما ولى أحدها الحكم سواء مستنداً على أغلبية برلمانية أو نفوذ القصر أن يحتضن الفريق السودانى الذى ينادى (بالوحدة تحت التاج المصرى) ويسبغ عليه من عطفه شيئا كثيراً ظهر أثره فى إصدار الجرائد السودانية التى تؤيد هذا الرأى .

وفى سنة ١٩٤٥ جرت الانتخابات فى مؤتمر الخريجين من أجل انتخاب لجنته التنفيذية ففاز فيها فريق الداعين إلى الوحدة مع مصر فتألف (حزب الأشقاء) برئاسة اسماعيل الأزهرى متظاهراً بالوحدة مع مصر طريقا إلى الاستقلال . فلم يجد المعارضون بدا من تنظيم أمورهم فظهر (حزب الأمة) برئاسة عبد الله خليل ينادى بفكرة (السودان للسودانيين) مع الصداقة مع مصر وإنجلترا وجمع هذا الحزب رؤساء القبائل .

وكان الفساد الذى ظهر فى الحكومة المصرية قد زاد من تمسك أعضاء حزب الأمة بمبدأ الاستقلال وأصبح محور سياستهم — وأيدهم البريطانيون — بدعوى أن فساد الحكومة المصرية لابد أن يمتد إلى السودان إذا ما أنضم إليه . هذا إلى أن ما يريده المصريون جعل مصر والسودان دولة واحدة تحت التاج المصرى أن يكون السودان مهجراً للمصريين الذين يزداد عددهم زيادة هائلة كل عام والأرض المصرية تضيق بهم ومما يؤدى إلى اخضاع الاقتصاد

السودانى للاقتصاد المصرى المتقدم عنه بطبيعة الحال . أى عدم تقدم السودان مستقلا فى حد ذاته وهذه كلها دعاوى لم يقصر المصريون بسوء دعايتهم وقصر نظرهم فى ترديدها عن المساعدة فى إيمـــان السودانيين بها حتى بين أعضاء الأحزاب الداعية إلى الإنضمام إلى مصر .

وانتهت الحرب فى سنة ١٩٤٥ وبدأ المصريون يلحون على بريطانيا فى وجوب فتح باب المفاوضات من أجل تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ تعديلا يكفل لهم جلاء البريطانيين التام عن مصر تقديرا منها للموقف الذى وقفته مصر من بريطانيا خلال سنى الحرب من الصداقة والمعاونة التامة فى المجهودات الحربية وتعرضها للغزو أكثر من مرة إلى حد وصول الجيوش الألمانية إلى قرابة ٤٠ كيلو مترا غربى الإسكندرية عند العلمين

وفى نفس الوقت ربطت الحكومة الموقف فى السودان بالموقف فى مصر ، وأيدها فى ذلك جماعة حزب الأشقاء لأنه وجد فى ذلك فرصة لا تعوض . وأرادت الحكومة البريطانية أن تنسف هذا التعاون وتعطى الفكرة أنها الوحيدة القادرة على المنح والمنع ، فاذاعت أنها كانت ترقب هذا اليوم الذى يعبر فيه السودانيون عن مستقبلهم السياسى ووعدت فى نفس الوقت أنه لا يجوز أى تغيير فى حالة السودان نتيجة لتعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ إلا بعد استشارة السودانيين استشارة قانونية كاملة .

وبدأت المفاوضات بأن قدم الوفد المصرى برئاسة اسماعيل صدقى باشا مذكرة بأن (اتحاد السودان مع مصر تحت التاج المصرى) مسألة بديهية مسلم بها ولذا لن يكون هـذا الأمر موضع مفاوضات . وسلمت الحكومة البريطانية بهذا فعلا وفجأة عم الاضطراب أنحاء السودان . وقامت المظاهرات فى أم درمان والخرطوم وصمم الموظفون البريطانيون هناك على الاستقلال

وطار عبد الرحمن المهدى إلى لندن كما طار إليها السير هربرت هدلستون يشكو أن نصيحته لم يؤخذ بها وأعلن الاستقلاليون (حزب الأمة) عدم التعاون مع الحكومة السودانية. فكان أن تراجعت الحكومة البريطانية عن موقفها معتمدة على حق السودانيين فى تقرير مصيرهم . فعاد السير هربرت هدلستون إلى السودان كى يطمئن حزب الأمة،فعاد الهدوء إلى السودان ودارت المفاوضات من جـــديد بعد أن استبدل بوزارة صدقى باشا وزارة جديدة برئاسة النقراشى باشا . فى الوقت الذى انتهى فيه عقد قاضى قضاة السودان - وكان مصريا - فعينت الحكومة السودانية سودانيا مكانه فلم تملك مصر الاعتراض على ذلك ولذا بدا موقفها ضعيفا ، حين اقترحت الإبقاء على منصب قاضى القضاة فى يد مصر على أن تدفع هى مرتب شاغله ، وأن تنشىء الحكومة السودانية منصباً شرعيا كبيرا لمن تريد تعيينه من السودانيين (لتيسير زيادة نصيب السودانيين فى الوظائف الكبرى) .

وتقدمت الحكومة البريطانية خطوة جديدة نحو نسف المفاوضات وإظهار نفسها بمظهر الوحيد القادر على الإعطاء . فدعت الشماليين فى سنة ١٩٤٩ إلى (مؤتمر السودان الإدارى) من أجل اقتراح نوع الحكم الجديد فلبى الدعوة حزب الأمة ورفضها حزب الأشقاء. ولكن ذلك لم يحل دون عقد المؤتمر الذى اقترح توسيع اختصاص الحكومة المحلية بخلق مجلس تشريعى تنتخب الأمة أربعة أخماس أعضائه وتعين الحكومة الباقين على أن يقوم بجانبه مجلس تنفيذى سودانى يكون أعضاؤه من أعضاء المجلس التشريعى ويملك المجلس التشريعى حق اقتراح القوانين ثم الموافقة عليها أو رفضها. وحق الموافقة على الميزانية ولكنه لا يملك المناقشة فى القانون الذى أنشىء بمقتضاه ولا العلاقة بين دولتى الحكم الثنائى ولا العلاقات الخارجية ولا موضوع الجنسية السودانية . ورفع هذا

الاقتراح إلى دولتى الحكم الثنائى للموافقة عليه ، وأوصى بنفس التوصيات مؤتمر آخر عقد للجنوبيين فى جوبا،وكان ظاهرا من هذه العملية أن الحكومة البريطانية لاتسلم بوجهة نظر مصر فى (اتحاد مصر مع السودان تحت التاج المصرى) ، ولذا لم يعد مستغربا ولا مستبعدا أن تتعقد المفاوضات وتنقطع. وقررت مصر رفع الخلاف بينها وبين بريطانيا إلى مجلس الأمن تطبيقا للمادتين ٣٥ ، ٣٧ من ميثاق المجلس ، ومما يؤسف له أن الحكومة المصرية لم تستعد لهذه الخطوة باستطلاع رأى الدول أعضاء المجلس مقدما . أو لمحاولة جذب أحد أعضاء المجلس الدائمين أو غير الدائمين إلى صفها بشىء من الإغراء وظنت أن الأمر لايعدو خطبة تقال مليئة بالحجج الدامغة حتى يصوت الأعضاء فى صفها بعيدين عن رأى حكوماتهم .

فكان أن قرر المجلس فى أغسطس ١٩٤٧ الإبقاء على الموضوع فى جدول الأعمال ، مع نصح طرفى الخلاف باللجوء إلى المفاوضات ، فكان ذلك يعنى خسارة مصر لهذه الجولة أيضا بالإضافة إلى الجولات السابقة . وأخذ السودانيون يتبينون أن مصر هى الجانب الأضعف بين دولتى الحكم الثنائى.

وقبل نهاية العام ، أبلغت الحكومة البريطانية موافقتها على المشروع السودانى للمجلس التشريعى بينما عارضته مصر مستندة إلى أن هذه التوصيات لا تحقق الغرض الذى قصدت إليه ، إذ لا يشرك السودانيين فى المسؤولية بل يحفظ للحاكم العام سلطات واسعة كما أنه يجعل مصر لا تساهم فى المسؤلية بأدنى نصيب. وأخيرا أن المؤتمر الذى قدم هذه المقترحات قد خلا من عناصر ضرورية وليس فيه من عضو مصرى واحد ، وطلبت إدخال تعديلات على المشروع تكفل لمصر أن تضطلع بإشرافها على تدريب السودانيين على الحكم.

فكان أن شكلت لجنة مصرية بريطانية لتعيد النظر فى المشروع وترفع مقترحاتها إلى الحكومتين ، وكان من بين المقترحات التى تداولها البحث إنشاء لجنة خماسية (سودانى ومصريان وبريطانيان) مهمتها الإشراف على تقدم السودانيين نحو الحكم الذاتى ، ثم تقديم توصيات عن برنامج على الوصول إلى الحكم الكامل ومراقبة سير هذا البرنامج ، ثم تقديم توصيات بالخطوات التالية وتؤدى نتيجة هذه الخطوات إلى احلال السودانيين تدريجيا فى الوظائف وإيفاد بعثات منهم إلى الخارج ونشر التعليم وتنمية نظام المجالس البلدية وأخيرا إنشاء مجلس تنفيذى وجمعية تشريعية وتخويلهما سلطات واسعة. على أن يضم المجلس التنفيذى الوزراء وزعيم السلطة التشريعية وأربعة أعضاء بحكم مناصبهم وثلاثة يعينهم الحاكم العام ، ونصف هذا المجلس من السودانيين والنصف الآخر من المصريين والبريطانيين على قدم المساواة ، ولم توافق بريطانيا على هذا المجلس بتكوينه المقترح ، وتوقفت اللجنة عن العمل . فكان أن بدأت الحكومة فى تنفيذ التوصيات الأولى التى لم توافق عليها الحكومة المصرية وصدر بذلك قانون ١٩ يونيو سنة ١٩٤٨ وجرت الانتخابات فقاطعها حزب الأشقاء وانصرف إلى تنظيم نفسه كحزب سياسى خرج إلى عالم الوجود باسم (الحزب الوطنى الاتحادى) ، هدفه اتحاد السودان مع مصر اتحادا فيدراليا ، يحتفظ فيه السودان بحكومته الذاتية التى تدير أموره الداخلية فيما عدا الدفاع الوطنى والتمثيل الخارجى ، وبقيت أقلية صغيرة على مبدأ الإندماج الكلى مع مصر وظلت تحمل الاسم القديم هذا بينما تألف فى السودان المجلس التشريعى الجديد والمجلس التنفيذى وزاولا عملهما تحت حماية الحكومة البريطانية والحاكم العام .

وكانت هذه جولة جديدة أظهرت عجز مصر عن أن تعمل شيئا للسودان وقدرة بريطانيا على العمل .

ومن ناحية أخرى — دارت مفاوضات جديدة بين مصر وبريطانيا بناء على توصية مجلس الأمن وتمسكت بريطانيا بنظرية فصل المسألتين وعدم البت فى مصير السودان إلا بعد أخذ رأى السودانيين الذى ربما يتجه إلى الاستقلال بنفسه بعيدا عن مصر . وعززت بريطانيا رأيها مستندة إلى قرار جديد صدر من الجمعية التشريعية السودانية فى الخامس من ديسمبر سنة ١٩٥٠ (بأن لا يبت فى أمر السودان إلا بإرادة أهله ولذا تطلب الجمعية التشريعية من دولتى الحكم الثنائى قراراً مشتركا بمنح السودان حكومة ذاتية قبل انتهاء هذه الدورة) .

واستمرت المفاوضات بين الحكومتين المصرية والبريطانية حتى يوليو سنة ١٩٥١ دون الوصول إلى نتيجة . رغم قبول مصر حق السودانيين فى تقرير مصيرهم بأنفسهم فى استفتاء حر بعد جلاء البريطانيين وحدهم عن السودان إذ لم تقبل الحكومة البريطانية هذا الشرط الأخير لأنه سوف (يؤدى إلى انهيار صرح الإدارة فى السودان) .

وتوقفت المفاوضات ، وأرادت مصر أن تجرب العمل وحدها كما تعمل بريطانيا وتكسب ، فأعلنت التخلى عن مبدأ المفاوضة . ثم انهاء العمل بأحكام معاهدة سنة ١٩٣٦ . وإنهاء العمل بأحكام اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ وصدر بذلك أمر ملكى رقم ٤٧ لسنة ١٩٥١ . ثم صدر قانون آخر بتعديل المادتين ١٥٩ ، ١٦٠ من الدستور المصرى بتقرير الوضع الدستورى للسودان . فجعل الملك بمقتضى هذا التعديل ملك مصر والسودان وأصدرت دستوراً ونظاما للحكم خاصاً بالسودان تؤلف بمقتضاه جمعية تأسيسية تمثل

أهل السودان لإعداد دستور وقانون انتخاب يعمل بهما فى السودان بعد التصديق عليهما وإقرارهما .

ورفضت الحكومة السودانية تنفيذ هذا القانون (لأنه صدر من جانب واحد) وعززت الحكومة البريطانية هذا الرفض بأن أصدرت تصريحا وعدت فيه السودانيين أن لا يجرى أى تعديل فى نظام الحكم إلا بعد استشارة السودانيين .

هذا فى الوقت الذى أغضب فيه قرار الحكومة المصرية أصدقائها السودانيين إذ أنها أصدرته دون أخذ رأيهم بل دارت مشاورات بين الجبهة الوطنية والوزارة السودانية وأرسلا معاً برقية إلى رئيس وزراء مصر برفض تشريع حكومته وأخرى إلى هيئة الأمم بتأليف لجنة دولية تزور السودان لتقترح نوعا من الحكم الذاتى قبل ديسمبر سنة ١٩٥٣ .

ولم تنته هذه السنة حتى ظهر على مسرح الحوادث حزب جديد هو الحزب الجمهورى ولا بد أنه كان من أفراد بعيدين كل البعد عن أن يتأثروا بأى من الميرغنى أو المهدى وكذلك بعيدين عن تأثير مصر وربما يكونون بعيدين أو قريبين من بريطانيا .

وبذلك أصبح الذين يبحثون عن مستقبل السودان من السودانيين :

١ — حزب الأمة ويعضده السيد المهدى ويرمى إلى استقلال السودان وينحصر نفوذه فى الغرب وجنوبى الخرطوم وهو قريب من الانجليز ويتأثر بهم .

٢ — الحزب الوطنى الاتحادى ويبحث عن مستقبل السودان متحداً مع مصر اتحاداً فيدراليا ولكنه غضب من مصر حين أعلنت الدستور الجديد

السودان دون أخذ رأيه ويعضده السيد الميرغنى وينحصر نفوذه فى شرق السودان والمديرية الشمالية وله بعض أنصار فى مديرية الخرطوم .

٣ — الحزب الجمهورى ويهدف إلى إقامة جمهورية سودانية ويعارضه كل من المهدى والميرغنى وتعضده الطبقات المثقفة وبعيد عن مصر .

٤ — جبهة تحرير السودان وتتكون من أعضاء انفصلوا عن الحزب الوطنى الاتحادى ومازالت تهدف إلى الاتحاد مع مصر .

٥ — السودان الجنوبى وهو يتكون من أبناء هذا الجزء من السودان ويسعى إلى البت فى أمر هذا الجزء مستقلا استقلالا فيدراليا عن الجزء الشمالى وهو بعيد كل البعد عن النفوذ المصرى . وربما يحظى بتأييد من الإنجليز .

وفى يناير سنة ١٩٥٢ انتهت لجنة الإصلاح الدستورى من عملها ، ورفعت تقريرها إلى الجمعية التشريعية التى أنهت مناقشته ورفعته إلى الحاكم العام لأجل صياغته دستوريا ، وانتهى الأمر بطرح هذا الدستور أمام المجلس التشريعى . ويتلخص فى خلق حكومة سودانيـــة تتكون من مجلس وزارى سودانى مسؤول أمام مجلس تشريعى يتكون من مجلسين أحدهما للنواب والآخر للشيوخ ، مع تحديد سلطات الحاكم العام وقصرها على الشؤون الخارجية وبعض الإجراءات الصحية للجنوب ووفق على هذا المشروع فى ٢٣ أبريل سنة ١٩٥٢ وأرسل إلى دولتى الحكم الثنائى للموافقة عليه، ووجد حزب الاتحاد الوطنى وكذلك جبهة تحرير السودان نفسهما فى مركز حرج لأن الدستور الجديد وكان قد اقترح من هيئة وطنية وأقرته جمعية تشريعية وطنية كما أنه مرض من جميع الوجوه ومحقق للأمانى السودانية وقد سبب هذا الموقف

الجديد قلقا مصريا دعا رئيس الوزراء الجديد (نجيب الهلالى باشا) إلى دعوة المهدى إلى مصر . فأرسل خمسة من الممثلين دارت بينهم وبين الحكومة المصرية محادثات اتسمت بالسرية وإذا ما تولى سرى باشا الحكم خلفا للهلالى دعا المهدى نفسه للحضور إلى مصر . وما كاد يعلن قبول الدعوة حتى قامت الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

* * *

وفى سنة ١٩١١ اعتدت إيطاليا على ليبيا وكانت داخلة ضمن الأملاك العثمانية فى شمال أفريقيا، وقام الوطنيون يقاومون هذا الاعتداء مع الجيوش التركية . فكان وقع هذا الإعتداء كبيراً على المصريين . وقام الشعب المصرى غاضباً لهذا الأعتداء . وظهرت الجرائد المصرية ـ وعلى رأسها جرائد الحزب الوطنى ـ تندد بهذا الأعتداء الإستعمارى على بلد يرتبط معهم برباط العضوية فى الإمبراطورية العثمانية (٥) وقام الشعراء المصريون وعلى رأسهم أحمد شوقى وحافظ ابراهيم يندددون بهذا الأعتداء ويستنهضون الشعب المصرى للأخذ بيد أخوانهم المجاهدين . هذا فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة المصرية تقف موقف التردد بل العطف على الإيطاليين استجابة للضغط البريطانى عليها إذ كانت بريطانيا تقف موقف التأييد لايطاليا من هذا الأعتداء .

هذا فى الوقت الذى كان فيه الخديوى عباس الثانى يقف موقفاً بين الإتجاهين إذ هو يريد أن يرضى الوطنيين ليستميلهم إلى ناحيته،وهو فى نفس الوقت خاضع للضغط البريطانى تنفيذاً لسياسة الوفاق التى عقدها مع البريطانيين، ولذا كان الشعور المصرى العام ينحصر فى ضرورة مساعدة الوطنيين الليبيين

(٥) من المعروف أن سياسة الحزب الوطنى فى مصر كانت قائمة على محاولة التخلص من الاحتلال البريطانى لمصر مع بقاء السيادة العثمانية عليها إذ لم يكن ينظر إلى هذه السيادة العثمانية على أنها احتلال أو استعمار أجنبى لمصر .

فى موقفهم البطولى: هذا فى الوقت الذى كانت فيه تركيا اضعف من أن تقاوم الإيطاليين كما أن حكومتها التى كانت تنسب آنذاك إلى حزب الإتحاد والترقى تميل إلى تصفية الأجزاء العربية من امبراطوريتها لا سيما الفقيرة منها. لا سيما وإن الروح العربية بدأت تظهر فى الأجزاء العربية من الإمبراطورية العثمانية لإثبات الشخصية العربية من ناحية ومقاومة لمحاولة تتريك هذه الأجزاء من ناحية أخرى.

وكانت نتيجة هذا أن أخذت جموع المتطوعين المصريين تتدفق على الحدود المصرية الليبية من أجل الأنضمام إلى اخوانهم المجاهدين، وكان على رأسهم عبد الرحمن عزام الذى عمل بمثابة مستشار للزعيم السنوسى قائد المجاهدين الليبيين ومعه عزيز المصرى وكان ذا رتبة كبيرة فى الجيش المصرى.

وقام الشيخ على يوسف يدعو فى جريدته (المؤيد) إلى وجوب تأليف فرق الهلال الأحمر المصرى لمساعدة الجرحى بتأسيس مستشفيات ميدان تقدم الخدمات الضرورية، فكان أن تألفت لجنة أهلية برئاسة الأمير عمر طوسون لجمع التبرعات من المصريين لهذا الهدف، هذا فى الوقت الذى كان الجيش التركى بقيادة أنور باشا يحاول أن يثبت وجوده، ولكن ضعف هذا الجيش وهزيمته دفع بالحكومه التركية إلى طلب المساعدة من الدول الأجنبية فلم تجد استجابة من أحد(*) الأمر الذى اضطرها إلى التسليم والأنسحاب بعد أن عقدت مع ايطاليا صلح لوزان فى أكتوبر سنة ١٩١٢ اعترفت فيه تركيا

---

* كان هناك إتفاق بين إيطاليا وفرنسا على تسليم فرنسا على تونس وأحتلالها ليبيا لقاء تسليم ايطاليا باعتداء فرنسا على تونس وأحتلالها لها فى سنة ١٨٨١.

باستقلال اقليمى برقه وطرابلس استقلالا داخليا على أن يقيم بهما نائب للسلطان لمباشرة المصالح العثمانية، له حق تعيين قاض مسلم يولى عنه قاضيين للفصل فى قضايا الأحوال الشخصية للمسلمين وفقاً للشريعة الإسلامية، وصدر بعد ذلك منشور سلطانى يسمح بجعل الولايتين خاضعتين خضوعاً تاماً للسيادة الإيطالية. فلم يملك المتطوعون المصريون سوى التخلى عن واجبهم، وترك أخوانهم الليبيين فريسة للاحتلال الإيطالى. واستمرت مقاومتهم تحت قيادة السيد السنوسى شيخ الطريقة السنوسية ولكنها كانت مقاومة ضعيفة لاسيما بعد أن اغلقت انجلترا الحدود بين الجارتين لعدم تسرب السلاح إلى الوطنيين عن طريق مصر.

ودخلت تركيا الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر سنة ١٩١٤ وكانت ايطاليا تقف ضد انجلترا فعادت الأخيرة إلى فتح الحدود وتسرب السلاح إلى المجاهدين هناك. ولذا استمرت مقاومة الوطنيين ناجحة.

ولما كانت تركيا تقف فى هذه الحرب مع ايطاليا ضد انجلترا، فإنها اتخذت من ليبيا قاعدة لحملة تركية تزحف إلى مصر من الغرب فى الوقت الذى تتقدم فيه حملة تركية أخرى للزحف على مصر من ناحية سوريا. وهلل المصريون لأخبار الحملتين. ووصلت الحملة الأولى فعلا إلى سيدى برانى، ولكن فشل حملة الشرق أدى إلى توقف حملة ليبيا. ولم تلبث ايطاليا أن تركت الحلف الصغير (تركيا. المانيا النمسا) وانضمت إلى الحلفاء (انجلترا وفرنسا) فى مارس سنة ١٩١٥ فعادت إنجلترا إلى سياسة اقفال الحدود مرة أخرى، ولقى الوطنيون العنت من جديد فاضطروا إلى التهادن مع ايطاليا واقيمت هناك حكومة ليبية تحت اشراف ايطاليا وكان ذلك فى ابريل سنة ١٩١٧.

وفى سنة ١٩٢٢ قام الحكم الفاشى فى ايطاليا ونقض الأتفاق الإيطالى الليبى فترك السيد السنوسى رئيس الحكومة الليبية البلاد ولجأ إلى مصر، بينما استمرت مقاومة الوطنيين تحت قيادة عمر المختار حتى سنة ١٩٣٠، والمصريون يعطفون عليهم ويمدونهم بالسلاح ما أمكنهم ويعلنون فى كل مناسبة سخطهم على المذابح الإيطالية لاخوانهم الليبيين. واخيراً استسلم عمر المختار لايطاليا وحوكم أمام المحاكم الإيطالية وأعدم بين أسى المصريين وعطفهم وكان ذلك فى سنة ١٩٣٢.

وكان الوطنيون الليبيون خلال جهادهم قد اتخذوا من واحة جغبوب مركزا لعملياتهم الحربية، فرأت الحكومة الإيطالية ضرورة القضاء على هذا المركز الحربى، الذى يقع على الحدود بين ليبيا ومصر وتسيطر عليه حكومة مصر، فسرعان ماطالبت الحكومة الإيطالية بهذه الواحة فى سنة ١٩٢٥ بدعوى أنها تدخل ضمن الأراضى الليبية، وكانت انجلترا تميل إلى إجابة ايطاليا عملا بسياسة الصداقة بينهما. فأوعزت انجلترا إلى الحكومة المصرية بضرورة التسليم بالمطالب الإيطالية. فى الوقت الذى كان فيه الشعب المصرى يعطف على إخوانه المجاهدين ويرى مقاومة هذا الضغط البريطانى من أجل استمرار تدفق السلاح اليهم.

وكان يتولى الوزارة المصرية آنذاك أحمد زيور باشا وسياستها قائمة على على ارضاء بريطانيا عملا بسياسة (انقاذ ما يمكن انقاذه) وذلك عقب استقالة الوزارة الوفدية على اثر مقتل السير لى ستاك حاكم السودان وسردار الجيش المصرى (البريطانى الجنسية) وتقدم انجلترا اليها بالإنذار البريطانى ورفض الوزارة المصرية لهذا الإنذار. فتألفت على أثر ذلك لجنتان مصرية وإيطالية لبحث الأمر. وانتهى قرارها إلى التسليم بوجهة النظر الإيطالية وسلمت

حكومة مصر الواحة إلى إيطاليا مقابل ضم هضبة السلوم إلى الأراضى المصرية.

وكان هذا العمل من جانب حكومة مصر طعنة فى ظهر المقاومة الليبية، ولاشك أن هذا العمل كان من العوامل التى ساعدت على ضعف المقاومة الليبية ونجاح إيطاليا فى سحقها، وتسليم عمر المختار وتحت قسوة الحياة فى ليبيا تحت الحكم الإيطالى الذى اتسم بالعنف ومصادرة الأراضى الزراعية وتسليمها لمهاجرين إيطاليين، فهاجر كثير عن الليبيين إلى مصر واتخذوها موطناً لهم وعاش أغلبهم فى المنطقة بين الأسكندرية والسلوم حيث اشتغلوا بالرعى والزراعة المطرية وأفسحت لهم مصر مكاناً طيباً عن طيب خاطر.

* * *

وتأثرت الجزائر بالحركة الوطنية التى قامت فى مصر فى نوفمبر سنة ١٩١٨، فحين سافر وفد مصرى برئاسة سعد زغلول باشا إلى باريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر فرساى (*) سافر وفد جزائرى مماثل لعرض قضية الجزائر على نفس المؤتمر برئاسة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر (الذى قاد حركة المقاومة الوطنية للاحتلال الفرنسى بين سنتى ١٨٣٠ و ١٨٤٧)، ولكنه لم يجد هناك إلا الإعراض كما لقى الوفد المصرى، فعاد إلى الجزائر حيث قاد (كتلة النخبة) من الجزائريين المسلمين ولكن العنت الذى لقيته هذه الحركة من الفرنسيين - لاسيما وقد صدر قرار بإبعاد الأمير خالد عن الجزائر - ألهب الشعور الوطنى كما ألهب العنت البريطانى شعور المصريين، فالتجأ الأمير خالد إلى الاسكندرية

(*) عقد هذا المؤتمر فى باريس فى سنة ١٩١٩ عقب هزيمة ألمانيا والنمسا فى الحرب العالمية الأولى، وكانت تركيا قد خرجت من الحرب فى سنة ١٩١٧ وعقدت مع الحلفاء معاهدة سيفر التى أعترفت فيها بهزيمتها وتخليها عن أملاكها العربية ومنها مصر التى أصبحت منذ هذا التاريخ مستقلة أستقلالا تاما شرعيا رغم وجودها تحت الحماية البريطانية التى فرضت عليها قسراً فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤.

ومكث بها حتى سنة ١٩٢٤ ، وعندما قام مصالى الحاج ينادى بوحدة الشمال الأفريقى وجدت دعوته عطفاً من المصريين واستقبله الشعب المصرى استقبالا حماسياً حين قدم إليها فى نفس السنة ولكن لم يتعد العطف هذا الحد .

* * *

وفعل التونسيون كما فعل أخوانهم المصريون والجزائريون ، إذ رأس الثعالبى وزميله أحمد السقا وفداً تونسياً ذهب أيضاً إلى باريس يطلبان استقلال تونس ولكنهما لم يجدا سوى الاغضاء والاهمال ، وقدم الثعالبى إلى مصر أكثر من مرة فراراً من الإضطهاد الفرنسى فاستقبله الشعب المصرى أكرم استقبال ، كما رحبت مصر أيضاً بالحبيب بورقيبة حين رأس حزب الدستور التونسى ولقى من الفرنسيين نفس العنت الذى لقيه كل من الثعالبى والسقا وهكذا وقفت مصر حكومة وشعباً موقف التعضيد من الحركات الاستقلالية فى الشمال الأفريقى .

* * *

وفى سنة ١٩٢٠ قام السيد عبد الكريم زعيم قبائل ورياغل إحدى قبائل البربر الكبيرة فى الريف الأسبانى وترأس قبيلته فى وجه الأسبان ، فقبضت الحكومة على ابنه وسجنته فى قلعة ماليلا أربعة أشهر حاول فى خلالها الهرب ففشل ، ثم اطلقت الحكومة سراحه بعد ذلك دون أن توجه إليه تهمة ما .

وإذا ما مات السيد عبد الكريم ترأس ابنه قبيلته وقام فى منطقة أجادير الغربية يطالب الأسبان بإدارة البلاد إدارة حسنة ، ولم يكن من حوله يتجاوزون الألف فزحفوا عليها بجيش بلغ خمسا وعشرين ألفاً مجهزاً بالعتاد والذخيرة ، وفى معركة هائلة استمرت من ١٦ يونيو حتى ٢١ يوليو سنة ١٩٢١

استطاعت القوة المغربية الصغيرة أن توقع بالأسبان وتقضى عليها فى معركة الأنوال . وكان من أثر ذلك أن انضمت إليه بعض القبائل المراكشية الأخرى وكان لهذه المعركة صدى قوى فى كل الريف وفى أسبانيا وفى فرنسا وفى كل الشمال الأفريقى .

أما فرنسا فقد ايقنت أن مصيرها فى شمال أفريقيا معلق بالحرب الأسبانية . وفى أسبانيا سقطت الحكومة واستبدلت بها حكومة عسكرية هى حكومة الجنرال بريمو دى ريفيرا فعقدت مع فرنسا حلفا من أجل توحيد جهودهما لسحق هذه الحركة ، وفى مصر قامت الهيئات الوطنية تظهر عطفها على هذا الزعيم الوطنى فظهرت صورته فى كل الجرائد المصرية التى أبدت العطف عليه والتأييد له . وفى وقت كانت فيه الثورة المصرية ضد الحماية البريطانية تلقى العنت والاضطهاد . ويلقى زعماؤها النفى والتشريد .

ولكن الجيش الفرنسى الأسبانى الموحد بقيادة الماريشال بيتان استطاع بوسائله الوحشية أن يوقع بأغلبية الجيش المغربى الذى رأى زعيمه عدم جدوى السير فى الحرب فألقى السلاح واستسلم لفرنسا فقبضت عليه ونفته هو وانصاره إلى جزئر يونيون .

* * *

وفى المنطقة الفرنسية من مراكش بدأت (كتلة العمل الوطنى) تعمل من أجل تحرير الوطن وأظهرت مطالبها فى سنة ١٩٣٤ ، وهى لا تعدو بعض الإصلاح فى نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والتعليمية والصحية فكان مما طلبته مساواة الوطنيين بالفرنسيين فكان أن قرر المقيم الفرنسى حل حزب الكتلة واقفال مراكزه . فقدم زعيمه علال الفاسى إلى مصر وألقى بضع

محاضرات عن أدوار الحركة المغربية وأهدافها ووجد من الشعب المصرى والحكومة المصرية كل استجابة . وعطف لاسيما وأن البلاد كانت تجتاز عصراً كان متسما بالحرية نتيجة لعقد معاهدة الزعفران فى سنة ١٩٣٦ .

وقامت الحرب العالمية الثانية ولقى زعماء الحركات الوطنية فى البلاد الخاضعة لفرنسا عنتاً اضطرهم إلى الهدوء بل رأى أغلبهم أن الإنضمام إلى صفوف الجيش الفرنسى يؤدى إلى اعتراف فرنسا بحقوق بلادهم بعد انتهاء الحرب وكان ذلك على عكس الحال فى ليبيا إذ اجتمع الليبيون المقيمون فى مصر زعيمهم السيد محمد إدريس السنوسى وقر قرارهم على أن يكون الزعيم السنوسى هو المتكلم باسمهم فقرر من جانبه الانضمام إلى جانب الحلفاء بعد أن وعدوه باعادة استقلال ليبيا .

واجتمع السنوسيون بزعيمهم مرة ومرات وفى أغسطس سنة ١٩٤٠ أطلقوا على انفسهم اسم (الجمعية الوطنية الليبية) وأصدروا بيانا يبين الهدف الذى يسعون إليه والوسيلة التى يلجأون اليها .

وأسرع الطرابلسيون المقيمون فى مصر سنة ١٩٤٣ وأعلنوا قيامهم بحركة كفاح مستقلة عن السنوسيين ولكن ذلك لم يقعد السنوسيين عن السير قدما فى التعاون الكامل مع البريطانيين واشتركوا فى المجهودات الحربية التى أدت إلى معركة العلمين ثم إلى تقهقر قوات المحور وكانت أرض مصر هى التى شهدت خطواتهم الأولى .

وسمحت الإدارة البريطانية التى احتلت البلاد بجيشها منذ سنة ١٩٤٤ بقيام الأحزاب السياسيه فى برقة تمهيداً للبت فى مستقبلها السياسى فقامت بها الأحزاب المختلفة ترمى إلى أهداف مختلفة . وكان من بينها حزب الاتحاد

المصرى الطرابلسى الذى كان يرى وجوب الاتحاد بين مصر وليبيا على أساس ما بين القطرين من روابط .

وفى مؤتمر باريس فى سنة ١٩٤٧ تنازلت إيطاليا نهائياً عن جميع ما كان لها من حقوق فى الممتلكات الأفريقية وقررت الدول الأربع الكبرى (انجلترا وفرنسا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة) أن تضع حلا نهائياً لقضية المستعمرات الإيطالية فى مدة لا تتجاوز السنة من تاريخ التصديق على معاهدة الصلح مع إيطاليا . وحدث أن فشل وزراء خارجية الدول العظمى فى ايجاد هذا الحل . وعرضت المسألة على الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة . هذا فى الوقت الذى كانت جامعة الدول العربية قد قامت تضم الدول العربية المستقلة — ولم يكن من بين أعضائها أحد من الشمال الأفريقى بحكم خضوعها جميعاً للاستعمار الأوروبى — وقررت هذه الجامعة أن تقوم بدورها فى مساعدة ليبيا فى الحصول على الاستقلال ولا حاجة بنا إلى القول أن مصر كانت أقوى هذه الدول العربية صوتا وأكثرها نفوذاً لا سيما والأمين العـام لجامعة الدول العربية كان مصريا إلى مدة طويلة فتمكنت بحكم عضويتها فى هيئة الأمم المتحدة أن تقوم بدور فعال فى تسوية أمور هذه الدولة ومساعدتها على وصولها الى الاستقلال . وكان الوفد الليبى الذى سافر الى نيويورك للسعى فى مستقبل بلاده قد اتخذ من الدكتور محمد فؤاد شكرى مستشاراً له . وكان هذا الوفد يسعى بطبيعة الحال إلى استقلال هذا البلد ولكنه وضع ضمن مخططاته أنه إذا رأى الرأى الدولى العام يميل الى وضعها تحت الوصاية الدولية — إذا وجدت الهيئة انها لا تستطيع الوقوف على أقدامها فى المجال الدولى — أن تكون هذه الدولة مصر ذات الروابط التاريخية الوثيقة بليبيا أو جامعة الدول العربية

التى كانت قد وجهت مذكرة فى هذا الشأن إلى هيئة الأمم المتحدة فى دورتها الثالثة فى سنة ١٩٤٦ .

وعندما عرض أمر هذه الدولة على الهيئة فى دورة نوفمبر سنة ١٩٤٩ لم تستطع أن تجمع على رأى لآسيا وقد رأت الاتحاد السوفيتى يطل برأسه ويطالب أن يكون ضمن الدول ذات النصيب فى الوصاية الدولية قررت أن تصبح برقة وطرابلس وفزان دولة واحدة باسم ليبيا وأن تكون مستقلة ذات سيادة فى ميعاد لا يتأخر عن أول يناير سنة ١٩٥٢ فكان دور مصر وجامعة الدول العربية فى هذا الشأن ذا أثر فى الوصول الى هذه النتيجة .

وفى سنة ١٩٤٧ اشتد القحط فى الشمال الأفريقى وشمل ليبيا وتونس فقامت مصر بدورها وأمدت ليبيا بالقمح ولكن حين ارادت ان تقدم نفس المساعدة الى تونس منعت فرنسا وصول القمح اليها عملا بسياستها التى كانت ترمى الى قطع كل صلة بين مستعمراتها فى الشمال الأفريقى وبين بقية العالم العربى فقامت المظاهرات فى القاهرة يقودها الشباب تهتف بسقوط فرنسا وتذكرها بهزيمتها امام الجيوش الألمانية فى سنة ١٩٤٠ ولكن فرنسا لم تتراجع عن موقفها .

* * *

وجزء آخر من أفريقيا مدت مصر إليه يدها فى هذه الفترة وهو جنوب أفريقيا وكان ذلك فى سنة ١٩٤٨ حين انشأت الحكومة هناك قنصلية مصرية لما بين هذا الجزء ومصر من روابط اقتصادية . كما أن هناك جالية مصرية صغيرة تعيش هناك وقد بدأ المصريون يهاجرون إليه فى وقت مبكر قبل وبعد الحرب العالمية الأولى .

ومن المعروف أن الحكومة البيضاء هناك كانت ولا تزال تتبع سياسة قاسية نحو العناصر الوطنية والملونة بل وصلت المعاملة إلى حد سلب الأجناس الملونة ما كان لها من حقوق سياسية واجتماعيه فى مستعمرة الرأس وناتال .

وقد دافعت حكومة الهند عن حقوق الهنود الذين يعيشون هناك ولكنها لم تصب حظا من نجاح رغم معاضدة الحكومة البريطانية لها ودفاعها عنهم باعتبارهم من رعاياها ، فإذا كان الفشل قد قدر أن يكون من نصيب الهنود ومعهم حكومتهم تحاول نصرتها فما بال الوطنين الذين لا يجدون أحدا يأخذ بيدهم فما كان من بعضهم إلا ان كتبوا إلى كنيسة مصر فى سنة ١٩٥٠ باعتبارها كنيسة أفريقية لا تحمل أية مطامع استعمارية يطلبون الانتساب إليها فاسرعت هذه وعينت مطرانا من أجل رعاية الشعوب الوطنية المسيحية فى جنوب أفريقيا ونيجيريا وسافر المطران ومعه احد الرهبان المصريين فعلا إلى هناك. الا أن المطران لم يلبث أن توفى وظل الراهب وحده فى جوهانسبرج حتى تناسته القاهرة. ولم تلبث القنصلية المصرية ان اكتشفت أمره (الأب إسحق) بعد أن أصبح فى حالة سيئة من العوز ، ولم يدرك رجال القنصلية أهمية الرسالة التى يقوم بها فارسلت إلى القاهرة تلح فى سحبه (بعد أن أصبح لا يختلط الا بالافريقيين الأمر الذى جلب عليه سخط الحكومة البيضاء هناك) فارسلت الكنيسة القبطية القس مكاريوس المرياني (الانبا اتناسيوس مطران بنى سويف فيما بعد) وكلفته دراسة حال هؤلاء الأفريقيين الذين يلحون فى رعاية كنيسة الأسكندرية لهم فكتب عنهم إلى البطريركية يقول ان جماعات كثيرة من الأفريقيين المسيحيين تنشق عن الكنائس الغربية وتكون لنفسها كنائس أفريقية مستقلة والجماعة التى تتبع الكنيسة القبطية منذ عام ١٩٥٠ هى إحدى هذه المجموعات والكنيسة القبطية وراعيها هناك تعمل على حسن توجيه تلك الجماعة المنشقة توجيها مسيحيا سليما ويبلغ عدد العائلات التى

تتبع الكنيسة القبطية بالفعل هناك ٤٠٠ عائلة موزعة فى مناطق مختلفة فى الاتحاد ويقوم على رعايتها سبعة وعاظ وطنيين وراع قبطى واحد وهو الأب اسحق انبا بشوى المعروف هناك بالأب جورج ولم يسجل دستور هذه الكنيسة كما أنها لم تسجل ككنيسة رسمية حيث أن قانون البلاد لا يسمح بتسجيل أية كنيسة إلا اذا كانت لها ممتلكات كأبنية الكنائس أو مدارس أو مستشفيات والكنيسة القبطية هناك لم تملك شيئاً بعد ، وتوجد فى ادارة الكنيسة سجلات لأعضائها تبين المعلومات اللازمة عنهم جميعا .

ويخدم الوعاظ هناك باللغات الوطنية وأهمها البانتو والزولو . ويطوف الأب اسحق بالبلاد لاقامة القداس باللغة القبطية ومناولتهم الأسرار المقدسة فى بيت أحد أفراد الشعب أو فى قاعة يستأجرونها فترة الخدمة وينقلون إلى مكان القداس ما يلزم من اوانى المذبح وملابس الخدمة وكتب ، ويرتدى عدد من الرجال ملابس الشمامسة ويلبس النساء زيا خاصا من اللونين الأصفر والأحمر واللون الأبيض وهى ملابس مخصصة للكنيسة ويفد إلى مكان القداس أعضاء الكنيسة من المناطق المجاورة ويقضون ليلة الأحد فى ترانيم ووعظ وعمل القربان وفى الصباح الباكر تقام خدمة القداس وبسبب ذلك ينفق جانب كبير من المبالغ التى يجمعونها وما يفيض عن ذلك يعطى للشماس والكاهن .

وللكنيسة هناك مجلس إدارة برأسه الأب اسحق وسكرتيره الشماس سيمون كوب ولهم حساب ضئيل فى أحد المصارف لا يتجاوز العشرة جنيهات وتمتلك الكنيسة منزلا فى أحد ضواحى جوهانسبرج الخاصة بالملونين منذ سنة ١٩٥٠ ولكن حين اعتبر المصريون من البيض فى سنة ١٩٥١ اضطر الأب اسحق إلى استئجار منزل فى حى خاص بالبيض .

ومن أجل رعاية كنيسة الأسكندرية لشعب جنوب أفريقيا يقترح الأب مكاريوس استمرار المراسلة المنتظمة مع إدارة هذه الكنيسة وتدبير ما يكفى من المال لسداد ديون الأب اسحق وشراء ما يلزمه من ملابس كهنوتية وتشجيع الجماعة على تشييد مبانى الكنيسة بعد التغلب على الموانع القانونية .

. . .

وتعود أول علاقة بين مصر وليبريا إلى يناير سنة ١٩٥١ عندما اوفدت مصر سفيراً ومندوبا فوق العادة إلى منروفيا قدم أوراق اعتماده فى الاحتفالات الرسمية بتنصيب رئيس الجمهورية . الذى أكد للسفير المصرى أنه (بوصفه رئيس الجمهورية الوحيدة ، فى القارة الأفريقية يعلن تأييده للقضية المصرية (محاولة تخلص مصر من الاحتلال البريطانى) كما أنه يضمر لمصر كل حب وللشعب المصرى كل اخلاص وتقدير ، ولهذا فإنه كبير الرجاء فى أن تحقق الحكومة المصرية طلب حكومته بانشاء علاقات دبلوماسية بين البلدين) وأضاف قائلا (أنتم فى الشمال ونحو فى الجنوب فلنمد أيدينا بعضا إلى بعض لإنقاذ أفريقيا) .

ومن ذلك نرى أن علاقات مصر بالدول الأفريقية المستقلة وغير المستقلة حتى هذا الوقت حكمتها عدة اعتبارات فى التفكير المصرى .

اولا : ان تصور مصر لكيان افريقيا لم يتخذ صورة قارية فقد اقتصرت صورة افريقيا فى المنظور المصرى على وحدة وادى النيل فى صورة جزئية (مصر والسودان) او فى صورة كلية (مصر والسودان واوغندا واتيوبيا وارتريا والصومال) .

ثانياً : ان تبنى مصر لقضايا استقلال ليبيا وتونس والجزائر ومراكش (فى العصر المعاصر) جاء ضمن اطار اهتمامات مصر بدول العالم العربى خاصة بعد انشاء جامعة الدول العربية واتخاذ القاهرة مقراً دائماً للأمانة العامة للجامعة ولجوء زعماء حركات التحرير الى القاهرة لمواصلة الدعاية لقضايا استقلال بلادهم .

ثالثاً : ان اهتمام شعب مصر بالمحافظة على استقلال اتيوبيا سنة ١٩٣٥ جاء ضمن اهتمامها بالعلاقة القديمة التى تمتد الى عصر سحيق عبر التاريخ بين الشعبين ثم علاقة الكنيسة الأثيوبية والمصرية .

(ح) ١٩٥٢ وما بعدها

يعتبر هذا العصر مرحلة الانفتاح المصرى على أفريقيا مما أدى إلى ثورة فى التصور المصرى لكيان القارة إذ كان الهدف الأول لثورة سنة ١٩٥٢ بعد التخلص من الفساد الضارب فى القصر الملكى ثم القضاء على الملكية التى كانت — كما رأى كل من يسكن مصر — أكبر نصير للاحتلال البريطانى، هو الانتهاء من حل المسألة المصرية بغية أنهاء الاحتلال البريطانى ولكن رجال السياسة المصرية قبل ١٩٥٢ كانوا قد ربطوا المسألة المصرية بالمسألة السودانية وجعلوهما مسألة واحدة وكثيرا ما كان هذا الربط سببا فى فشل حل المسألة المصرية منذ مفاوضات النحاس هندرسون فى سنة ١٩٢٩. وظهر هذا الارتباط المصحوب بالفشل فى كل المفاوضات التى جرت عقب الحرب العالمية الثانية ، وكانت وجهة النظر البريطانية تنحصر فى الفصل بين المسألتين المصرية والسودانية ، وجعل المسألة السودانية فى يد السودانيين الذين يقررون مصيرهم بأيديهم ، فيؤخذ رأيهم فيما يودون من الارتباط بمصر أو الاستقلال عنها ، وقد رأينا أنهم كانوا يعطون تأييدهم الكامل للحزب الراغب فى الاستقلال بالسودان عن مصر .

ورأى رجال الثورة أن الحل الأمثل للمسألة المصرية هو قبول التحدى البريطانى ، واعتبار مستقبل السودان أمراً يقرره السودانيون انفسهم كما رأت أن الوصول فى حل المسألة المصرية مع بريطانيا قبل البت فى مستقبل السودان ربما يعتبره السودانيون خيانة من مصر لقضيتهم .

ورأت أن تبدأ بحل المسألة السودانية . وهى تثق أنها تستطيع أن تصل

مع السودان — بعيدا عن انجلترا — إلى حل يرضاه كل من الشعبين المصرى والسودانى — فأرسلت فى نوفمبر سنة ١٩٥٢ مذكرة إلى الحكومة البريطانية تقترح نظاماً معينا لأجل .

١ — تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل وهو الأمر الذى طالبته الجمعية التشريعية السودانية بمذكرتها التى قدمتها الى دولتى الحكم الثنائى فى الخامس من ديسمبر سنة ١٩٥٠ .

٢ — تهيئة الجو الحر المحايد الذى لابد من توافره لتقرير المصير .

فلم تملك الحكومة البريطانية سوى الموافقة على هذه المذكرة ، وأن بدأت تراوغ فى (ضرورة حماية الجنوبيين من الشماليين) وأصرت على أن يكون للحاكم العام حق حمايتهم بدعوى أن لهم ذكريات من الماضى أليمة، وهى توصى بأن الجنوبيين سوف يخامرهم الشعور بتحسين أحوالهم لو أسندت إلى الحاكم العام مسؤوليتهم .

فلم تجد الحكومة المصرية بدا من أن تجابه البريطانيين بالسودانيين ، كما فعلت انجلترا من قبل حين كانت تجابه الحكومة المصرية بالمطالب السودانية. وهدف مصر من ذلك هو أن لا تترك للحكومة البريطانية تكأة تتخذها فى المستقبل ، فجمعت ممثلى الأحزاب السودانية جميعاً (وهى حزب الأمة والحزب الجمهورى الاشتراكى . والحزب الوطنى الاتحادى ، والحزب الوطنى) . وعرضت عليهم وجهتى النظر البريطانية والمصرية وجعلتهم يجمعون جميعاً على رأى واحد كحل نهائى لا رجوع عنه ، وهذا الحل هو تقرير مصير السودان بواسطة السودانيين أنفسهم ، وهو لا يعدو أحد نتيجتين ، إما الاستقلال التام عن مصر او الارتباط بمصر على صورة من الصور ، فلم تملك انجلترا

سوى قبول هذا الرأى واتفقت فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ على:

١ - خلق فترة انتقال مدتها ٣ سنوات .

٢ - تعاون الحاكم العام فى الحكم خلال هذه الفترة لجنة خماسية دولية .

٣ - تقوم خلال هذه الفترة جمعية تأسيسية سودانية مكونة من مجلسين وظيفتها :

(ا) تقرير مصير السودان كوحدة لا تتجزأ .

(ب) إعداد دستور للسودان لأجل انتخاب برلمان سودانى دائم .

وفى نهاية الثلاث سنوات يجرى استفتاء على احد امرين وهما الاستقلال التام للسودان او الارتباط بمصر على صورة ما ، ويتم هذا الاستفتاء بعد انسحاب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من اجل تهيئة الجو المحايد للاستفتاء ، وفى خلال هذه السنوات الثلاث يجرى سودنة الإدارة بإحلال السودانيين محل البريطانيين والمصريين فى الوظائف التى يرى إحلالهم بها واهمها البوليس وقوة الدفاع السودانية على ان تجرى هذه السودنة تحت اشراف لجنة مختلطة مكونة من خمسة اعضاء غير اللجنة الأولى .

اما عملية الانتخاب لأجل الجمعية التأسيسية فتجرى تحت إشراف لجنة سياسية مختلطه ايضاً .

وفى مارس سنه ١٩٥٣ اصدر الحاكم العام قانون الحكم الذاتى ، وبدات عملية الانتخاب لأجل الجمعية التأسيسية ، وصارحت الأحزاب المختلفة الشعب بآرائها لا سيما حزب الاتحاد الوطنى برئاسة السيد اسماعيل الأزهرى الذى كان ينادى بالاتحاد مع مصر اتحاداً فيدرالياً . وحزب الأمة الذى نادى

بمبدأ الاستقلال التام بالسودان عن كل من مصر وبريطانيا مع الصداقة لهما . وجاءت النتيجة بأغلبية ساحقة للحزب الأول .

وسافر إلى جنوبى السودان أحد وزراء حكومة مصر واتصل بزعمائه وقبائله ورقص معهم رقصاتهم الوطنية ، ونشرت صحف العالم كله هذه الأخبار مصحوبة بالصور ، وظن الناس أن وحدة مصر والسودان قد قامت بالفعل وليست المسألة أكثر من وقت تقتضيها طبيعة الإجراءات التى تؤدى إلى هذه الوحدة ، فى الوقت الذى تولى فيه حزب الاتحاد الوطنى الوزارة السودانية وسارت اللجان المختلفة فى عملها لاسيما سودنة الإدارة ، وفى خلال ذلك زار جميع زعماء السودان مصر أكثر من مرة فلم يجدوا من حكومتها إلا كل تكريم ، وكانوا يعودون وقد عبوا من خزانتها عبا دون ما حساب .

وفجأة تغير كل شىء لاسيما لهجة السيد اسماعيل الأزهرى رئيس وزراء السودان تجاه الحكومة المصرية . وأخذ يطوف بأرجاء السودان يدعو إلى وجهة نظر جديدة ، ظهر أنها لا تختلف عن وجهة نظر حزب الأمة وهى الاستقلال بالسودان عن مصر .

وفى أوائل سنة ١٩٥٤ عرضت حكومة مصر على حكومة السودان هدية من الأسلحة الحديثة فرفضتها ، كما رفضت إرسال الضباط السودانيين إلى مصر للتدريب ، وأصرت على تدريبهم فى بريطانيا ، فعرضت مصر قرضاً بمبلغ ٥٧٠ ألف جنيه مصرى لأجل تنفيذ مشروعات ثقافية وصحية واجتماعية فى جميع أرجاء السودان ، فكان نصيبه الرفض أيضا .

وفى نهاية سنة ١٩٥٤ ولم يعد باقيا على انتهاء فترة الثلاث سنوات التى

نص عليها الاتفاق سوى فترة بسيطة ـ ألف حزب الاتحاد الوطنى لجنة من عشرة من أعضائه لدراسة مسألة شكل الحكم القادم إذا جاءت نتيجة الاستفتاء الاتحاد مع مصر ، فأشارت اللجنة بوجوب التخلى عن هدف الاتحاد مع مصر والموافقة على اقتراح باستقلال السودان .

وانتهت فترة السنوات الثلاث ، فأبلغت حكومة السودان حكومتى الحكم الثنائى برغبتها فى السير فى إجراءات حق تقرير المصير وطالبت بسحب جيشى الاحتلال المصرى والبريطانى تمهيدا لإجراء الاستفتاء فى جو محايد ، كما نص الاتفاق المصرى البريطانى .

فبادرت الحكومتان بقبول هـــذا البلاغ وأمرتا بسحب جيوشهما وزادت الحكومة المصرية بأن تركت للسودان جميع الأسلحة الثقيلة التى كانت تخص جيشها فى السودان وتم الجلاء فعلا فى نوفمبر سنة ١٩٥٥ .

وإذا ما انتهى انسحاب الجيشين — أعلنت الحكومة السودانية — مستندة إلى قرار لجنة العشرة دون أن يستكمل صفته القانونية ودون أن يستوفى شرائطه الحزبية بالعرض على اللجنة التنفيذية للحزب ـ أن الأمر لم يعد يدعو إلى استفتاء آخر ، لشكل نظام الحكم القادم فى السودان ، وأنها تعتبر جلاء الجيوش الاجنبية عن أرض السودان استقلالا له . وأعلنت قيام الجمهورية السودانية منذ ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ وهو تاريخ قرار الجمعية التأسيسية بالاستقلال . وأبلغت ذلك إلى دولتى الحكم الثنائى ، ورغم معارضة هذا القرار معارضة صريحة لإتفاقية السودان بين حكومتى انجلترا ومصر وعدم قانونيته أيضا ، لم يسع الحكومتين المصرية والبريطانية سوى الاعتراف بالجمهورية السودانية .

وبذلك تم استقلال السودان استقلالا تاما دون معاهدة أو استفتاء أو تقرير للمصير وكتبت صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات بين مصر والسودان .

* * *

وظلت العلاقات بين الجارتين على هذا النحو من التجمد والبرود حتى أتت حكومة عبود العسكرية فصرحت أن أولى أهدافها إعادة العلاقات الطبيعية مع مصر ، وتبادل رئيسا الجمهوريتين الزيارة . ثم بدأت المفاوضات بينهما للاتفاق على منطقة النوبة بعد أن قررت مصر إنشاء السد العالى وتم الاتفاق بينهما فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ على أن :

(ا) تغمر بحيرة ناصر كل المنطقة بين أسوان وجنوبى وادى حلفا .

(ب) دفع تعويضات لسكان المنطقة السودانية تمهيداً لترحيلهم إلى منطقة خشم القربة وقد قدرت هذه التعويضات بخمسة عشر مليونا من الجنيهات دفعت بكاملها لحكومة السودان .

(حـ) الاتفاق على أن يكون نصيب السودان من المياه التى يحتجزها السد ٧½ مليار متر مكعب ولمصر ١٤½ مليار متر مكعب بعد أن قدر صافى المياه بعد البخر ٢٢ مليار متر مكعب فى السنة .

(د) مساهمة الطرفين مناصفة فى مشروعات النيل المقبلة

(هـ) إنشاء هيئـــة فنية للاشراف على استغلال ماء النهر مكونة من السودان ومصر وأوغندا .

* * *

وفى خلال حكومة عبود ابلغت بعض الجمعيات القبطية فى السودان البطريركية فى القاهرة فى سنة ١٩٦٠ أن بعض السودانيين قد لجأوا إليها

طالبين المأوى والملبس فآوتهم . ولكن مواردها ومعها مطرانية الأقباط فى الخرطوم لا تكفى لهذا العمل . فرأت البطريركية أن ترحب بهم فى القاهرة فكتبت إلى السودان بذلك . فلم يمض يوم وليلة إلا وقد وصل الى القاهرة قرابة ثمانية عشر شابا فأرسلت بهم البطريركية إلى بيت الشمامسة فى الجيزة ريثما تدبر أمرهم على مهل .

وسرعان ما اختفى منهم ثلاثة ، ولم يعرف أين ذهبوا ، ودعيت إلى مقابلتهم والاشتراك فى عمل منهج دراسى لهم . فقابلتهم مرة وقمت بعمل استجواب لكل منهم فعرفنا أن أغلبهم من قبائل الجنوب ، ويجهلون جميعا اللغة العربية ومعرفتهم للانجليزية محدودة . ولا يجيد أيهم عملا من الأعمال ، وبعد نحو أسبوع دبرت البطريركية لهم مكانا فى مبنى ملحق بكنيسة المصرة ورسمت لهم منهجا دراسيا ووجدت نفسى ضمن مجموعة من المدرسين نعطيهم بعض الدروس وكان نصيبى تاريخ وجغرافية أفريقيا وتاريخ مصر واشترك فى التدريس نيافتنا أسقف الخدمات الاجتماعية ومطران بنى سويف والدكتور أمين حكيم وآخرون وأشرف عليهم روحيا ودرس لهم العقيدة المسيحية راهب من دير السريان قدر له بعد ذلك أن يكون الأنبا باخوميوس أسقف البحيرة والخمس مدن الغربية . واستمر الأمر معهم قرابة العام . ثم ارسلوا إلى اقليم النوبا فى السودان حيث انشىء لهم مركز تدريبى تحت اشراف الراهب الذى صحبهم ثم جعلوا بعد ذلك نواة لمركز تبشيرى قبطى بين قبائل النوبا الوثنية . هذا فى الوقت الذى قامت فيه حكومة عبود ـ بعد ثورة قبائل الجنوب عليها طالبين الانفصال عن السودان ـ بإبعاد جميع المبشرين الأجانب من جنوب السودان، حتى إذا قامت قيامة العالم الغربى عليها أدعت انها تريد كنيسة أفريقية لهم ولا نعلم إذا كان هذا التصريح قد قيل عفوا

لتبرير عملها أم كان المقصود به ترحيب السودان بكنيسة مصر . فكان هذا أول مركز تبشيرى قبطى فى افريقيا فى العصر الحديث (١) .

* * *

وعندما هزمت مصر أمام إسرائيل فى يونيو سنة ١٩٦٧ كانت حكومة السودان ـ وهى حكومة أخرى غير حكومة عبود ـ أول من تقدم لنجدتها حين اقترح وزير خارجيتها عقد مؤتمر قمة عربى للنظر فى موقف العرب تجاه هذه الهزيمة . وأخذ يطوف بالبلاد العربية واحدة واحدة يحاول إقناع رؤسائها وملوكها نسيان الخلافات التى بينهما ثم الاجتماع فى مؤتمر قمة عربى فى الخرطوم ثم يدفعهم إلى تدعيم مصر ماليا مما يعوض عليها الخسارة التى انتابتها بتحطيم جيشها تحطيما كاملا وغلق قناة السويس انتظاراً لوقت الثأر لهذه الهزيمة وتم هذا الأمر فعلا واستمر حتى سنة ١٩٧٤ .

ولكن حكومة الثورة التى قامت فى مايو سنة ١٩٧١ برئاسة العقيد النميرى كانت أكثر قربا وتفهما لمصر ، وحاولت أن تكون ضمن دولة الوحدة الإندماجية وظلت العلاقات بين الحكومتين تنمو حتى كان الحادى عشر من فبراير سنة ١٩٧٤ حين وصل القاهرة الرئيس السودانى لإجراء محادثات من أجل دعم علاقات مصر بالسودان .

وفى اليوم التالى وقع رئيسا الجمهوريتين (منهاج العمــل السياسى والتكامل الاقتصادى) وقد نص على تشكيل لجنتين على مستوى عال للتنسيق السياسى ولتحقيق التكامل الاقتصادى بين البلدين . كما صدر بيان مشترك أعلن فيه أنه قد تم الاتفاق على تكوين لجنة فنية مشتركة تجتمع فى ظرف أسبوعين فى الخرطوم لتتولى التخطيط لتنفيذ مشروعات محددة فى مجالات الإنتاج الزراعى والثروة الحيوانية ولم تمض على ذلك أيام حتى تقرر إنشاء

(١) علمت فى ديسمبر سنة ١٩٧٥ أنهم قد هربوا ولم يبق منهم إلا واحد سيم قساً .

شركة مشتركة لإستغلال بحيرة ناصر لمصلحة الطرفين ثم زراعة ثلاثة آلاف فدان جنوبى البحيرة لزراعة المحاصيل التى تعنى الجمهوريتان بإنتاجها ، ثم الاهتمام بزراعة الحبوب لاسيما الأرز فى جنوب السودان لسد حاجة القطرين من هذا المحصول بدلا من الاعتماد على الدول الأجنبية وتدعيما لهذا الاتفاق أنشأت كل من مصر والسودان منصب وزير مقيم للاهتمام بإنماء العلاقات بين الجمهوريتين .

• • •

أما علاقة مصر بإثيوبيا فإنها كانت قد تجمدت بعض الشيء منذ سنة ١٩٤٨ حين قامت دولة إسرائيل وسارعت إتيوبيــا إلى الاعتراف بها وأسرعت إسرائيل من جانبها إلى إقامة علاقات سياسية واقتصادية معها فانشأت فى أديس أبابا سفارة وقنصلية . كما اسرعت هيئاتها الاقتصادية وساهمت فى النشاط الإقتصادى فى إثيوبيا وأقامت لها منشئات إما إسرائيلية بحتة أو إسرائيلية اتيوبية .

وأضيفت أسماء هذه المنشئات إلى الشركات الواجب مقاطعتها بواسطة الدول العربية ولكن الكنيسة من جانبها كانت حريصة على استمرار العلاقات فما كانت العلاقة بين الكنيستين لتدخل فى مجال المقاطعة الاقتصادية أو الجمود السياسى ففى سنة ١٩٥٤ التحق بكلية اللاهوت أربعة من الطلبة الإثيوبيين استمروا فى دراستهم حتى حصلوا جميعا على درجة البكالوريوس وعاد بعضهم إلى إثيوبيا حيث شغلوا مراكز هامة بينما سافر البعض الآخر إلى الولايات المتحدة حيث حصلوا على درجة الدكتوراه وعين أحدهم فى كلية اللاهوت بجامعة الإمبراطور هيلاسلاسى الأول .

هذا فى الوقت الذى ساءت فيه العلاقة بين البطريرك يوساب الثانى (١٩٤٦ - ١٩٥٦) وبين الشعب القبطى ممثلا فى المجلس الملى بسبب سيطرة غير المسؤولين على البطريرك يسيرونه كيف يشاءون، وكان من نتيجة ذلك أن بيعت مناصب المطارنة على القهاوى نظير كمبيالات مفتوحة وباع المطارنة بدورهم مناصب الكهنوت لمن يدفع الأكثر، فرأينا طبقة من المطارنة والكهنة لا يتورعون عن إرتكاب الإثم جهارا، هذا فى الوقت الذى وقف فيه البطريرك أمام المجلس الملى معارضا كل تدخل فى الإشراف على الأوقاف، ودار صراع رهيب انتهى بإصدار قرار من المجمع المقدس بتنحية البطريرك عن منصبه ونفيه إلى دير المحرق، وإقامة مجلس يتولى اختصاصاته. وكان طبيعيا أن تعرف الكنيسة الإثيوبية بكل ذلك وكانت تعارض اتخاذ أية قرارات تمس رأس الكنيسة، ولذا لم تعترف بقرار تنحيته وقدم وفد منهم إلى مصر وتجاهل المجلس البطريركى، وسافر إلى البطريرك فى الدير المحرق مقدما فروض طاعته باعتباره رئيس الكنيسة الإثيوبية واحتج الوفد رسميا لدى كنيسة مصر، من أجل اتخاذها هذا القرار الخطير دون استشارة كنيسة إثيوبيا وهدد الموقف بين الكنيستين بالتصدع حتى مات البطريرك فى سنة ١٩٥٦ بعد مرض قصير.

هذا فى الوقت الذى انشأت فيه الكنيسة فى القاهرة فى سنة ١٩٥٤ معهدا للدراسات القبطية يحوى عشرة أقسام كان بينها قسم للدراسات الإثيوبية وأخر للدراسات الإفريقية.

واشترط لطالبى الالتحاق به أن يكونوا حاصلين على درجة جامعية على الأقل. وظاهر أن الهدف من القسم الأول تعريف المصريين بإثيوبيا وكنيستها وخلق وعى إثيوبى بين الأقباط عن طريق دراسة تاريخ إثيوبيا واقتصادها وجغرافيتها وكنيستها ومدى العلاقة الوطيدة بين الشعبين من الناحية القبطية كما كان الهدف من القسم الثانى خلق وعى إفريقى بين المصريين يهتم بقارة افريقيا لاسيما من الناحية المسيحيه تمهيدا لخلق علاقة بين الكنيسة المصرية وهذه القارة التى تقف على بداية الطريق نحو العالم باعتبار الكنيسة المصرية كنيسة إفريقية ليست لها اهداف استعمارية وانها الوسيلة الوحيدة لخدمة الأفريقيين بدلا من الكنائس الأوروبية التى استغلتها الدول الاستعمارية لصالحها دون صالح الأفريقيين، والحق ان القسم الأول لقى بعض المصاعب ومازال يلقاها وهو لا يستطيع السير قدما إلا إذا وجد بعض التعضيد من الحكومة الإثيوبية عن طريق بعض المساعدة المالية ثم الهبات العلمية لطلبته لتمكينهم وتشجيعهم فى دراستهم وهو أمر لم يتحقق حتى الآن وقد تخرج فى القسم الثانى اثنان من الإثيوبيين مازال احدهما مستمرا فى دراسته من أجل الحصول على الدكتوراه فى الدراسات الإفريقية.

وفى سنة ١٩٥٩ انتخب البابا كيرلس السادس وزار جلالة الإمبراطور مصر واشترك فى حفل رسامته وأنعم على غبطة البطريرك بنجمة سليمان وهو أكبر أوسمة إثيوبيا كما أهداه ملابس كهنوتية كاملة واستقبلت حكومة مصر جلالته استقبالا وديا.

واهتم البطريرك الجديد بتقويم الصدع الذى أصاب العلاقة بين الكنيستين — والحكومة من جانبها — رغم برود العلاقة بينها وبين الحكومة الإثيوبية أيدت — هذا الإتجاه وشجعته. فجاء إلى مصر وفد إثيوبى بناء على دعوة البطريرك — ودارت بينه وبين لجنة ألفتها كنيسة مصر برئاسة نيافة مطران منفلوط الأنبا لوكاس مفاوضات انتهت إلى اتفاق يرفع درجة المطران الإثيوبى إلى درجة بطريرك على أن يختار مستقبلا من بين

الرهبان الإثيوبيين وفقا لقوانين الكنيسة وتقليد كرسى القديس مرقس على ان تجرى سيامته وتنصيبه على يد البطريرك المصرى الجالس على الكرسى السكندرى وذلك بعد أن يتم اختياره ويصدق عليه صاحب الجلالة إمبراطور إتيوبيا ويملك هذا البطريرك حق رسامة أساقفة ومطارنة لإتيوبيا على أن يقطعوا على أنفسهم عهدا أن يظلوا أمناء لعقيدتهم الأرثوذكسية محترمين لقوانين الكنيسة .

وأن لا يشترك أحدهم فى سيامة بطريرك لإتيوبيا أو أى بطريرك آخر دون موافقة واعتماد قداسة بابا الإسكندرية ، وفى حفلة تنصيب البطريرك الأتيوبى زار مصر جلالة الإمبراطور للمرة الثانية واستقبلته الحكومة استقبالا وديا وأن كان مشوبا ببعض الجفاف واشتركت الحكومه المصرية فى حفلة التنصيب .

ولكن الخلاف لم يلبث أن ظهر مره آخرى من أجل ملكية دير السلطان بالقدس. إذ طالب الاتيوبيون بملكيته ومفاتيحه خالصالهم . بل نجح الاسقف الأتيوبى فى القدس فى رفع قضية أمام السلطات القضائية الأردنية وحصل على حكم بتسليمه الدير فى سنة ١٩٦١ . ولكن وفداً مصريا استطاع أن يحصل على قرار بإعادة النظر فى قرار المحكمة الأردنية وحتى يصدر هذا القرار تعود الأمور إلى حالتها الأولى من تسلم الأسقف المصرى مفاتيح الدير . فى خلال هذا الخلاف أرسل كل من الإمبراطور والبطريرك الأتيوبى خطابين إلى البابا فى الإسكندرية يلحان فى وجوب الموافقة على تسلم الأتيوبيين لأملاكهم (دير السلطان) من أجل القضاء على كل خلاف بين الكنيستين ولكن نجاح المصريين فى استعادة الدير أعاد العلاقات إلى ما كانت عليه من السوء ، ووقفت المسألة عند هذا الحد .

وزار البطريرك كيرلس السادس أتيوبيا مرتين كانت الأولى زيارة رعوية استمرت أسبوعا مع وفد من المصريين ، أسىء إختيار أكثر أعضائه والثانية فى مجمع الكنائس الأرثوذكسية ، وهى كنائس مصر وأتيوبيا والسريانية الأرثوذكسية والأرمنية الأرثوذكسية والسريانية الهندية وكلها تشترك فى رفض قرارات مجمع خلقدونية .

وإذا ما انتخب البطريرك شنودة الثالث سنة ١٩٦٩ اشترك فى الرسامة وفد أتيوبى كما زار البطريرك الجديد أتيوبيا فى سنة ١٩٧٣ وقيل أن نتائج هذه الزيارة كانت طيبة رغم عدم صدور بيان مشترك عنها .

أما بين الحكومتين فكانت العلاقة مقسمة بالبرود . فقد زرت أتيوبيا فى يناير سنة ١٩٦٤ فوجدت هناك صديقين لى أحدهما فى السفارة المصرية والآخر كان رئيسا للمكتب الثقافى المصرى الملحق بالسفارة فشكى لى كلاهما من برود العلاقات بين الحكومتين وذكر لى الدكتور رئيس المكتب الثقافى أنه يحمل أوامر صريحة من وزير التربية والتعليم بتلبية كل طلبات الحكومة الأتيوبية مهما كانت ولكنه ذكر لى أنه لم يتلق من الحكومة الأتيوبية رغبة ما حتى بات يعتقد أنه من الأفيد إغلاق هذا المكتب وفعلا أغلق هذا المكتب عقب انتهاء مدة ندب الدكتور لإدارته .

* * *

هذا هو تطور العلاقات بين مصر والجارتين التقليديتين لها بعد قيام ثورة سنة ١٩٥٤ . أما عن بقية أفريقيا فقد حددتها السياسة الواضحه التى كتبها الرئيس عبد الناصر فى (فلسفة الثورة) ونستطيع أن نلخص جزءاً منها فى أن سياسة مصر يجب أن تدور فى ثلاث دوائر أولها عربية باعتبار مصر جزءاً

من العالم العربى ، وثانيتهما إسلامية باعتبار مصر دولة إسلامية ، وثالثتهما دائرة أفريقية باعتبار مصر دولة أفريقية إذ كتب عليها أن تحرس دائما الباب الشمالى لهذه القارة ، ويحسن بنا أن ننقل هنا عن هذا الكتاب ما جاء به خاصا بأفريقيا .

« إننا لا نستطيع بحال من الأحوال — حتى لو أردنا — أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الأفريقيين .

لا نستطيع لسبب هام وبدهى — وهو أننا فى أفريقيا »

« ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة والذين نعتبر صلتها الوحيدة بالعالم الخارجى كله

« ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

« ويبقى بعد ذلك سبب هام وهو أن النيل شريان الحياة لوطننا ، يستمد ماءه من قلب القارة . »

« ويبقى أيضا أن السودان — الشقيق الحبيب — تمتد حدوده إلى أعماق أفريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها .

ولكن كيف السبيل أن نقوم بواجبنا تجاه أفريقيا . تلك القارة التى شاء الله أن يربطنا بها . ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أرى فيه فى القاهرة معهداً ضخما لأفريقيا يسعى للكشف عن نواحى القارة أمام عيوننا ويخلق فى عقولنا وعيا أفريقيا مستنيراً ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها . »

(١) فى سنة ١٩٥٤ تحول معهد الدراسات السودانية الذى كان تابعا لكلية الآداب بجامعة القاهرة إلى معهد الدراسات الأفريقية دون تطور كبير .

وكانت الدول الأوروبية — وهى فرنسا وبلجيكا وإيطاليا والمانيا والبرتغال واسبانيا وانجلترا[١] . قد استعمرت القارة الأفريقية منذ سنة ١٨٨٤ وهى السنة التى عقد فيها مؤتمر برلين وقرر إطلاق الحرية لهذه الدول فى استعمار القارة بشرط اقتران الاستعمار بقوة عسكرية . مع احترام مبدأ حرية التجارة وكان هذا القرار دون أن تحفل هذه الدول بحقوق الأهالى الوطنيين أو مدى سيادة بعض دولها الأفريقية على بعض اراضيها .

وإذا ما جاءت الحرب العالمية الأولى وهزمت المانيا اقتسمت املاكها الإفريقية دولتا انجلترا وفرنسا ، فأخذت الأولى جانبا من الكمرون ومن توجو وافريقية الشرقية الألمانية وأطلقت على الأخيرة إسم تنجانيقا واخذت فرنسا الجانب الآخر من الكمرون وتوجو . أما افريقيا الجنوبية الغربية فأخذها اتحاد جنوب افريقيا . وكل ذلك على سبيل الانتداب عن عصبة الأمم على أن تعمل كل دولة على تقدم الإقليم الذى اخذته نحو الاستقلال دون ان تكون عصبة الأمم جهازاً أو لجنة لسؤال الدولة المنتدبة عن جهودها فى المنطقة التى حصلت عليها .

وأخذت الشركات الاستعمارية فى استغلال هذه المستعمرات ، استغلالا روعيت فيه المصلحة الاقتصادية للدولة صاحبة السيادة دون ان تعبأ بالمصلحة الاقتصادية للمستعمرات .

وإذا كانت بعض الحركات التحريرية قد قامت فى بعض هذه المستعمرات

(١) استعمرت فرنسا الجزائر واعتبرتها جزءا من فرنسا منذ عام ١٣٨٠ كما عرضت حمايتها على تونس فى سنة ١٨٨١ واحتلت انجلترا مصر احتلالا غير شرعى رغم خضوعها للسيادة العثمانية فى سنة ١٨٨٢ وفرضت عليها الحماية البريطانية فى ١٩١٤/١١/٥ .

خلال المدة بين الحربين إلا أنها كانت ضعيفة هينة كما رأينا فى تونس والجزائر وسهل القضاء عليها .

وفى خلال المدة بين الحربين العالميتين زاد هذا الاستغلال الإقتصادى زيادة هائلة وأصبحت هذه المستعمرات مصدراً للمواد الخام تنهب فيها بأسعار رخيصة وفى نفس الوقت سوقاً للمصنوعات الاجنبية تامة الصنع والرسوم الجمركية امام هذه المصنوعات تافهة غاية التفاهة .

ويمكننا ان نعطى صورة لإفريقيا المنهوبة حين نقول فى غاية الاختصار ان مهاجرى فرنسا الفقراء استولوا على اراضى الاهالى فى الشمال الافريقى واستغلوها بعد أن ساعدتهم الدولة على التمليك بالقروض ، فكان متوسط الملكية لكل فرنسى مائتين وخمسين فدانا زرعوا أغلبها كروما ، حولوها إلى نبيذ صدر إلى فرنسا ، كما استخرجوا من أرضها الحديد والفوسفات والفحم والرصاص والزنك وصدر أغلبه الى فرنسا المساهمة فى إنتاج المصنوعات كاملة الصنع التى أعيد تصديرها إلى الشمال الأفريقى لتباع بالأسعار التى يمليها أصحاب المصانع من الفرنسيين .

وفى الكونغو البلجيكى قسمت أرضه بين خمس شركات كبرى ، وكل شركة كانت تتكون من اتحاد من عدة شركات غالت كلها فى غبن العمال فى أمورهم لاسيما الأفريقيين ، ورفع أثمان المنتجات وأصبح ايراد المستعمرة هو ما تأخذه حكومتها من نسب مختلفة من أرباح هذه الشركات فكان من الطبيعى أن تترك لها حبل الأمر على الغارب حيث ان مصلحتها أضحت فى زيادة أرباح هذه الشركات التى بلغت أرقاما فاقت حد التصور ويمكننا أن نقدر مقدار ما نزل بهذه المستعمرة من نزف

إذا عرفنا أنها كانت تنتج ٧٥٪ من الماس الصناعى فى العالم و ٦٩ ٪ من الكوبالت و٦٩٪ من الماس الطبيعى و٩٪ من النحاس عدا اليورانيوم الذى بلغ انتاجه ٩٥٪ .

وفى المستعمرات البريطانية وخاصة كينيا سكنها ٦٦ ألف مهاجر بريطانى استولوا على الأرض الزراعية فبلغ ما أجره الفرد الواحد مائتى ألف فدان وكانت مدة الإيجار ٩٩ سنة ارتفعت فيما بعد الى ٩٩٩ سنة بإيجار قدره عشرون سنتا للفدان . وحاولوا نفس المحاولة فى تنجانيقا بعد أن استولوا عليها عقب الحرب العالمية الأولى ، وفتحت لهم البنوك حساباتها من أجل الاقتراض ولم يحاول المقترضون رد ما اقترضوا ، وفى جنوب أفريقيا بلغ عدد المستوطنين البيض أربع ملايين نسمة استولوا على ٩٢٪ من مساحة الأرض الزراعية و١٠٠٪ من الثروة المعدنية ، وهاهم يعاملون الوطنيين وقد بلغوا عشرة ملايين معاملة الحيوانات باتباع سياسة التفرقة العنصرية فى كل مجالات الحياة .

أما ماقدمه هؤلاء المستعمرون من خدمات لرفع مستوى الحياة بينهم فلم يكن يتعدى حد العدم فلم تعن أى حكومة بمحاولة تعليم الأهالى إلا بعد الحرب العالمية الأولى بعدة سنين ، ففى الشمال الأفريقى لم تقم الحكومة بفتح مدرسة واحدة للوطنيين لتعليمهم اللغة العربية أو الدين الإسلامى وفى السودان لم تقم حكومة السودان إلا بفتح أربعة مدارس حتى ١٩٣٦ وفى كل المستعمرات الأخرى لم تفتح كليه واحدة للتعليم العالى إلا بعد ١٩٦٠ ، وجعلت المدارس الأخرى من أجل تخريج طبقة معينة من الموظفين يصلحون لشغل وظائف معينة هى فى الغالب صغرى الوظائف الإدارية : وإلى حين خروج الإيطاليين من ارتريا أو الصومال أو إثيوبيا فى سنة ١٩٤١ لم تترك وراءها مدرسة وطنية

واحدة كما لم تحاول استخـــدام الوطنيين فى الإدارة حتى ولا فى أحط الوظائف :

وما بذل فى الناحية الصحية فى جميع المستعمرات الأفريقية يكاد يكون شبيها بما بذل فى الناحية التعليمية بينما اتجهت جهود البعثات التبشيرية أولا إلى صيانة صحة أفرادها وعائلاتهم بعد أن رأوا كثرة الوفيات بينهم بسبب ما انتشر بينهم من أمراض متوطنة وقصور وسائل الوقاية والعلاج ، أما الاهتمام بصحة الأفريقيين لم يكن حتى ولا مجرد فكرة تطوف بأذهان أحد حتى نهاية القرن التاسع عشر ، أما عن دور الحكومات فكان اهتمامها بالمحافظة على صحة جنودها بينما لم توجه أى جهد للمحافظة على صحة الأهالى وحتى مجرد تعليمهم الوقاية من الأمراض ، أما الاهتمام بصحة الأفريقيين لم يبدأ فى أى مستعمرة إلا بعد مرور قرابة ربع قرن من القرن العشرين . وفى جنوب أفريقيا لم تنشأ وزارة للصحة إلا فى سنة ١٩١٩ وظلت اسمية لا يتولاها وزير مختص إلا فى سنة ١٩٤٥ وانحصر عملها فى إدارة ٥٨١ مستشفى منها ٢٣٨ مستشفى للأوروبيين و١٣٨ مستشفى لغيرهم، بينما كان عدد المستشفيات المخصصة للوطنيين مائتين وعدد هؤلاء الوطنيين ١٢ مليونا . وفى المستعمرات الفرنسية اكتفت الحكومات بإنشاء وحدات علاجية متنقلة تمر على مجموعة من القرى كل سبعة أيام مرة ، لعلاج من يتقدم إليها : وإلى جانب هذه الوحدات لم يكن هناك طبيب واحد سواء كان فرنسيا أو أوروبيا أو وطنيا ولعل هذه الصورة السريعة تبين مقدار (الجهد) الذى بذله هؤلاء المتمدنون المتحضرون للعناية بمن اسرفوا فى استغلالهم هذا الاستغلال الهدام . ومن هنا ندرك مقدار تشدق المستعمرين بخدمة الإفريقيين وإدخالهم الحضارة الأوربية إلى بلادهم :

هذا فى الوقت الذى أساء فيه المستعمرون معاملة الوطنيين إلى حد أن أصبحت هذه المعاملة سبة فى جبين الحضارة الأوروبية عامة ، ففى مستعمرات غرب أفريقيا حيث الجو الحار غير الصحى اقتصر الإستعمار على وجود طبقة حاكمة قليلة تتولى أمر المناصب الحكومية الكبرى، أما فى المناطق الأخرى حيث اعتدل المناخ وسمح للأوروبيين بالإستيطان فقد ظهرت التفرقة الاجتماعية والسياسية بالشكل الذى يضع حدا فاصلا بين حقوق الأوروبيين وحقوق الوطنيين ليصبح الأولون ممتازين من حيث المعاملة الاجتماعية والإقتصادية[1] وكان عبث الدستور الفرنسى بالفاحد الفكاهة فقد نص على مساواة من سكن غرب المستعمرات الفرنسية أمام القانون بينما قسم القانون الأهالى الوطنيين إلى ثلاث فئات ، أولها النخبة وثانيها المواطنون وثالثها الرعايا وكانت الفئة الأولى ذات الشروط الخاصة هى الوحيدة التى تقف مع الفرنسيين على قدم المساواة فى الوقت الذى يدعى فيه أن هذه المعاملة عمل إيجابى لإدخال الحضارة الفرنسية الى البلاد ومحاولة لرفع الوطنيين الى مرتبة الفرنسيين :

وفى المستعمرات الإيطالية نص القانون على عقوبة الحبس خمس سنوات للايطالى الذى يصهر الى وطنى ، وعلى عدم الإعتراف بالزواج الذى يحدث بين ايطالى ووطنيه ، وكانت السخرة تجرى فى كل المستعمرات الأفريقية بشكل قانونى عدة أيام معينة كل شهر وكانت هذه السخرة تجرى تحت أقسى الظروف

وليس بغريب إذن أن تهتم حكومة الثورة فى مصر بأمر أفريقيا وتولى

(١) حين زرت نيروبى فى سنة ١٩٦٣ كان أول ما استلفت نظرى وجود دورة مياه الأوربيين وأخرى للوطنيين ثم مدخل للأوربيين وآخر لغيرهم فى الوقت الذى كانت هذه التفرقة قد ألغيت قانونا

وجهها شطر هؤلاء البؤساء من أجل مساعدتهم على الخروج الى نور الحياة اللائقة الكريمة ، لاسيما وأنها رأتهم قد بدأوا يستيقظون تحت ضغط ظروف داخلية وخارجية سنحاول هنا أن نبين بعضها .

كانت البعثات التبشيرية من أولى العوامل التى أدت إلى يقظة الروح القومية بين الأفريقيين حين بدأت فى دراسة بعض اللغات الأفريقية فأوهمتهم أن لديهم بعض ما يستحق العناية ، ولم تلبث أن بثت فيهم الروح القومية الأفريقية بعد أن احيت لهم لغتهم ووضعت فيها القواميس والكتب وأخرجت قواعدها وأجروميتها وبعض أدبها وتاريخها ، كما اتجهت إلى تعليمهم اللغات الأجنبية فكانت هذه اللغات بمثابة النوافذ التى فتحت لهم آفاق الدراسة الغربية العلمية وأوقفتهم على الحضارات الغربية والعلوم الغربية والعلوم الإنسانية فى ضوئها الغربى وأرسلت منهم النابهين إلى الجامعات الغربية سواء كانت أوروبية وأمريكية حيث حصلوا على الدرجات العلمية فعرفوا أولا أن لا فرق هناك بين الأفريقيين والاوروبيين من حيث قابليتهم للدراسة وأنه متى اتيح لهم هذا العلم فلا فرق بينهم وبين الاوروبيين إلا فى لون البشرة ، فكان هذا العلم الدينى هو الذى اعطى بعض طبقات الافريقيين الذين لم يكن من الممكن أن تتاح لهم فرص الزعامة الافريقية الطريق إلى الزعامة السياسية ، لاسيما فى المدن حيث تمحى القبائل فكان العلم الاوروبى هو الوسيلة التى قلب بها ميزان القوى فى المجتمع الأفريقى وقضى على الزعامة القبلية التقليدية لتخلى مكانها لزعامة من نوع جديد مبنية على المعرفة فكأن البعثات التبشيرية كانت هى الطريق إلى الديموقراطية كما فهمها العالم الغربى للقضاء على الارستقراطية القبلية القديمة القائمة على الوراثة . ثم كان ظهور التجارة والصناعة هو الذى أدى إلى ظهور المدن والتى كانت طريق القضاء على

القبلية القديمة ثم ظهور النقابات العمالية التى كانت البذرة الأولى للاحزاب السياسية التى لم تلبث أن اتقنت طريق المطالبة بمطالب لم يكن الأفريقيون يحلمون بالحصول عليها ثم المطالبة بإلغاء التفرقة العنصرية والمساواة التامة بالأوروبيين إلى المطالبة بالاستقلال المحلى ثم الاستقلال التام .

ولا ننسى أثر الحرب العالمية الثانية وما كان المتناعان يعلنانه من مبادىء لأجل جذب الشعوب المنكوبة الى صفها فأيقنت الشعوب الأفريقية أن سواء انتصر الحلفاء أو المحور فسوف يكون حظهم على ضوء ما تسفر عنه غير حظ الأمس وانضم الأفريقيون الى صفوف الحلفاء الذين استعانوا بهم فى جيوشهم ورأى الأفريقى أن هذا الاوروبى الذى كان يلعب دائما دور السيد يذبح اعداءه ويذبح بيد اعدائه ، كما كانت القبائل الافريقية تعمل قبل أن يقدم الاستعمار الى بلادهم ، فليست هناك اذن همجية ولا تمدن انما هى الحرب وسيلة التغلب على العدو . بل رأى الأفريقى نفسه موضع التكريم من الدولة المستعمرة من أجل خدماته الحربية بعد ان كان موضع الاحتقار . وإذا ما سافر الأفريقى الى الخارج رأى مظاهر الحضارة الغربية ـ التى لم تكن تتاح له ـ فى متناول يده إذا ما كان معه المال الذى يبيح له الحصول عليها ، ولا مانع يمنعه من الحصول عليها والتمتع بها اذا ما عاد إلى بلاده بعد الحرب فكان هذا بؤرة ثقافية تنشر هذه الأفكار الجديدة بين مواطنيه الذين لم يسافروا بل يعلم قومه من ابن تؤكل الكتف وكيف يمكن التغلب على هذا الأوروبى .

بل رأى الإفريقيون أيضاً كيف كانت خيرات بلادهم تنهب بأرخص الأسعار من أجل المجهود الحربى أولا ثم من أجل إسعاد الأوروبيين ومن أجل رفع المستوى الحضارى فى البلاد المستعمرة ثانيا بينما يحرم هو منها ولا يكون

حظه منها إلا حظ التقدم بها إلى الغربيين لقاء أجور غاية فى التفاهة . بل وجد الإفريقى نفسه موضع التكريم فى بلده حين جند الأوروبى فى صفوف المحاربين واكتسب الإفريقى مهارة الأوروبى فاستحق أجره . وما كان إلى جانب الأجر ، من امتيازات . كل هذه العوامل دفعت بالإفريقى إلى التفكير أن الحرب العالمية الثانية سوف تكون الباب إلى فجر جديـــد يشرق عليه عند انتهائها .

هذا فى الوقت الذى كانت فيه الدول الاستعمارية تظن أن الحرب العالمية الثانية ماهى إلا سحابة صيف سوف تنتهى ، وسوف تعود الأمور إلى ما كانت علية من السلطة على هذه الشعوب واستنزاف لثروتها ورفاهية له على حسابها ، بل أدركت بعض هذه الدول المستعمرة أن الثروات والمصانع التى خربت فى بلادها سوف تعوض بعض هذا التخريب من نتاج المستعمرات دون أن تقدم لهذه المستعمرات أو أبنائها إلا بعض الثمن لا الثمن كله . وبعض ماتجود به عليه لامايستحقه جزاء صبره الطويل وجزاء إشتراكه فى جيوشه ومابذله الإفريقى من جهد وعرق ودم فى سبيل نصرة الحلفاء وقضاياهم ، هذا فى الوقت الذى كان الزعماء الإفريقيون الجدد قد تعلموا المطالبه بالحقوق واستعدوا للمطالبة بحقهم فى الاشتراك فى الحكم مستندين على ماتعلموه فى جامعات الغرب وما اعتنقوه من آراء من حقوق للشعوب المغلوبة على أمرها ، فعقدوا المؤتمرات فى لندن وباريس وغيرها من العواصم وحددوا مطالبهم واستعدوا للجهر بها .

ولسنا فى حاجه إلى أن نشير إلى (مؤتمر شباب غرب أفريقيا) وإلى مؤتمرات الشباب الإفريقى . وكان بعض المعتدلين من الأوربيين والمفكرين الغربيين يأخذون جانبهم وبعض الأحزاب الاشتراكية تبين لهم بعض هذه الحقوق بل تغالى فى إظهارها لاسيما بعد أن انضم الاتحاد السوفيتى إلى جانب

الحلفاء وأصبحت الدعاية الاشتراكية بل الشيوعية مسموحا بها وقرأ الإفريقيون هذه الدعاية وتأثروا بها بل اعتنقوها . كما فعل سيكوتورى زعيم غينيا حين أصبح ماركسيا . وكما فعل نكروما حين أصبح اشتراكيا .

ولعل هذا يذكرنا نحن المصريين بالحملة الفرنسية على مصر فى سنة ١٧٩٨ حين علمت المصريين آراء وأفكاراً جديده استفاد منها الشعب المصرى أكبر الفائدة حين جلا الفرنسيون عن بلادهم فى سنة ١٨٠٣ بيناظن المماليك والأتراك أنهم سوف يعودون إلى سابق عهدهم وسلطانهم حتى إذا بدأوا ذلك وجدوا الأرض تميد تحت أقدامهم بفعل هذه الروح الجديدة . فى الوقت الذى تنبهت فيه البعثات التبشيريه لهذه الروح الجديدة وبدأت تستعد للوقوف إلى جانبها ، فقد انتدبت لحضور مؤتمر شباب جميع أفريقيا المسيحى (٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٣ — ٧ يناير ١٩٦٤) فى نيروبى على رأس وفد الكنيسة القبطية وصحبنى إلى هذا المؤتمر شابان وآنستان فوجدنا حقيقة هذا المؤتمر محاولة من شباب الجمعيات التبشيرية إلى تبرئه هذه الجمعيات من تهمة الوقوف إلى جانب المستعمرين خلال حكمهم لافريقيا ومن تهمة الموافقة على التفرقة العنصرية التى كانت سائدة خلال الحكم الإستعمارى السابق للحرب ، بل محاولة لتفهم الروح الإفريقية الجديده روح المساواة التامة المبنية على المبادىء المسيحية الحقيقية والاستعداد للوقوف إلى جانب الشعوب الإفريقية فى جهادها بل أن بعض هذه الجمعيات لم تتردد فى تأليف وإنشاء الكنائس الإفريقية التى يقودها شباب إفريقيا الجديد وإنسحاب الغربيين إلى الصفوف الخلفية فى هذه الكنائس الجديدة ، هذا بينما اتجهت محاولات كنيسة الاسكندرية وهى الجديدة فى هذا الميدان إلى إعطاء نفسها صفة الكنيسة الإفريقية الأصلية التى اتجهت طوال تاريخها إلى خدمة الإفريقيين وهى فى هذا لاتبغى استعمار ولا اشتراكا فى

استعمار ولا استنادا إلى أيدى المستعمرين . واشتركت معنا فى هذا القصد كنيسة إثيوبيا بشبابها المتطلع إلى خدمة إخوانهم الإفريقيين ولذا كان الوفد الاتيوبى مكونا من أكثر من عشرين شابا كلهم متعلم وكلهم عصرى التفكير ، واشتركت فى لجنة السلالات Commity of Roces فكانت من أنشط لجان المؤتمر هجوما على التفرقة العنصرية التى كانت سائدة ، والتى أخذت تتحول عن طريقها فى بعض المستعمرات الإفريقية ، ولكنها كانت لاتزال أنشط مايكون فى إتحاد جنوب إفريقيا الابيض . وكانت احدى العضوات نائبة عن كنيسة هولندا المتطورة Dutch Reformed Church من أنشط أعضاء اللجنة دفاعا عن التفرقة العنصرية التى بررتها بأنها وضعت من أجل خدمة الإفريقيين وأنها الوسيلة الوحيدة إلى تطوير الإفريقيين عن طريق طبيعى يختلف عن طريق العناصر البيضاء ويوافق طبيعتهم ودرجة حضارتهم ، وزرت إثيوبيا أثناء عودتى إلى مصر ومكثت بها قرابة أربعة أيام تمكنت فيها من مقابلة مدير جامعة الإمبراطور هيلاسلاسى الأول — عن طريق أحد أصدقائى الذى كان قد تربى فى مصر ، وكان يشغل آنذاك منصب مدير البنك المركزى — ولم نلبث أن تفاهمنا على وجوب تعاون البلدين للخير وصارحنى سيادته أن الناحية الإسلامية ضعيفة فى الجامعة الاتيوبيه وأنه يرحب بالتعاون مع جامعات جمهورية مصر من أجل سد هذا النقص ، وهو يرحب بالاساتذه المصريين الذى يدرسون الدراسات الإسلامية المختلفة ، لاسيما تاريخ الإسلام ومدى تأثر أثيوبيا به ، إلى جانب الدراسات الإسلامية الأخرى فما عدت إلى مصر حتى رفعت تقريرا بهذا الأمر إلى عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة آنذاك ولكن مما يؤسف له أن هذا التقرير لم يجد عناية من أحد .

واستطعت أيضاً أن أصل إلى اتفاق مع أحد رجال الكنيسة الاتيوبيه المسؤولين ، بتبادل الزيارة بين طلبة الكليتين الاكليريتين فى القاهرة وأديس أبابا فى خلال عطلة عيد الميلاد السنوية ، على أن يقوم خلالها طلبة الكلية بدراسة البلد الآخر ومدى تقدمه واسهاماته فى الناحية الدينية على أن تتكلف البلد المضيف بمصاريف من يقدم إليه من طلبة البلد الآخر ورفعت تقريرا فى هذا الشأن أيضاً إلى غبطة البطريرك (كيرلس السادس) ولكن مما يؤسف له أنه لم يلق هو الآخر شيئا من الاهتمام .

* * *

وكانت المجهودات التى بذلتها الدول الاستعمارية لملاقاة الروح الإفريقية الجديدة أقل من أن ترضى أحداً بل اتسم بعضها بالغباء وقصور النظر فقد اجتمع قادة فرنسا الحرة فى مؤتمر ابرفيل فى سنة ١٩٤٤ ايصلوا إلى قرار أن إحداث أى تغيير فى وضع المستعمرات الفرنسية سابق لأوانه ، وفى سنة ١٩٤٦ خرجت الحكومة الفرنسية الجديدة على العالم بدستور جديد لفرنسا حوى فى بابه الثامن مشروعا لاتحاد الشعوب الفرنسية ، وهو الذى يجمع بين فرنسا والمقاطعات المعتبرة أجزاء منها كالجزائر وجزيرة ريونيون وغيرها وكذلك المستعمرات الفرنسية فى أفريقيا كالسنغال وساحل العاج والسودان الفرنسى وغينيا ومدغشقر والدول التى نالت انتدابا عليها كالكرون وتوجو وكذلك الدول التى ارتبطت مع فرنسا بمعاهدات خاصة كتونس ومراكش فى نطاق اتحاد واحد يعمل كوحدة واحدة من أجل مصالح الجميع ثم إنشاء الجماعة الفرنسية فيما وراء البحار France'Outremer أو فى تعبير أخر أفريقيا المتكلمة بالفرنسية L'Afriqe d'expression Francaise كما أنشىء ما يسمى (بصندوق الاعتمادات المخصصة للتحرر الاجتماعى والاقتصادى فيما وراء البحار Fond d'investement pour le developement economique et Sociale des territoires d' Outremer

وهى هيئة أنشئت فى سنة ١٩٤٦ لتحل محل (صندوق التضامن مع المستعمرات) الذى يعود إنشاؤه إلى سنه ١٩١٤ لخدمة الاتحاد الفرنسى كوحدة متكاملة ولذا لم يمكن يهتم بمشكلات وإحتياجات كل قطر أفريقى على حدة إذ كانت فرنسا لاتزال تفكر فى الاحتفاظ بالاتحاد الفرنسى ككتلة اقتصادية متكاملة .

وفى سنة ١٩٥٦ صدر دستور الجمهورية الرابعة الذى يجعل من فرنسا والمستعمرات الفرنسية الأخرى بعد منحها الاستقلال المحلى الذى يبيح لها وضع دساتير خاصة تقيم حكومات خاصة تعتمد على مجالس تشريعية خاصة وحدة واحدة تتمثل فيه كل حكومة فيما وراء البحار بوزير إلى جانب وجود نواب فى الجمعية الوطنية الفرنسية (مجلس النواب) تنتخبهم النخبة من أهالى هذه المستعمرات ليمثلوا بلادهم فيه . وكذلك فى مجلس الجمهورية (مجلس الشيوخ) وطرح هذا الدستور للاستفتاء على أهالى المستعمرات فقبلته كلها فيما عدا غينيا التى منحت لتوها استقلالها الكامل.

أما انجلترا فكانت قد أنشأت فى سنة ١٩٤٠ ، أى غداة قيام الحرب العالمية الثانية ماسمى بمؤسسة تنمية المستعمرات Colonial Developement Welfare Programs برأس مال قدره ١١٠ مليون جنيه (ضوعف هذا المبلغ فى سنة ١٩٤٥) على أن تقوم السلطة الحاكمة فى كل مستعمرة بوضع خطة محدودة للتنمية كشرط أولى للحصول على نصيبها من المعونات اللازمة لتمويل الخطة . ولكن النتيجة أنه ما من مستعمرة فى القارة تمكنت من تنفيذ الخطة التى وضعتها وقد عزى ذلك إلى نقص الخبرات الفنية لديها وإلى حالة الإفلاس السياسى بين أهالى المستعمرات .

أما البرتغال فإرادت أن تسبق فتخدع نفسها كما تخدع الإفريقيين عن

آمالهم فى الحريه كما تخدع العالم . فعدلت الدستور البرتغالى فى سنة ١٩٥٦ وجعلت من المستعمرات البرتغالية أجزاء فى الوطن البرتغالى أى مقاطعات منه تقع فيما وراء البحار، وحملت الوزارة التى تتبعها هذه الأجزاء اسم (وزارة المقاطعات فيما وراء البحار) وأصبح المجلس الوطنى (مجلس النواب) ومجلس الوزراء ووزارة المقاطعات فيما وراء البحار هى الهيئات ذات السلطة على هذه الأجزاء ، ووظيفة المجلس الوطنى تنحصر فى التشريع وفقا للمقترحات التى تتقدم بها وزارة المقاطعات فيما وراء البحار ، وبمقتضى هذا الوضع الجديد أصبح للمستعمرات البرتغالية أو بمعنى أصبح للمقاطعات فيما وراء البحار ممثلون فى المجلس الوطنى ، ومن الطبيعى لا يكون أحد من هؤلاء الممثلين أو الذين يشتركون الانتخابات إلا الحائزون على الجنسية البرتغالية الذين لابد من توفر شروط خاصة فيهم أولها إتقان اللغة البرتغالية ثم الحصول على عمل ذى إيراد شهرى ذى مستوى خاص ثم الارتفاع بحياته الخاصة إلى مستوى خاص . وأخيراً موافقة الجهات المختصة على طلب يتقدم به من أجل الحصول على هذه الجنسية ، وموافقة السلطات عليه بعد إثبات صحة ما جاء بهذا الطلب . وإذا عرفنا أن البرتغال لم تقم بأى مجهود إيجابى لرفع الحياة الاقتصادية للسكان أدركنا أن نسبة من حصلوا على هذه الجنسية كانت ضئيلة إلى حد كبير حتى إلى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

أما البلجيك فلم توجه عناية ما إلى التقدم بالحياة السياسية فى الكونغو . اكتفاء منها بما أسمته (سياسة الأبوة) بعد سنة ١٩٢٠ وهى السياسة التى انحصرت فى إتاحة الفرصة الاقتصادية لجميع السكان من أجل رفع المستوى الإقتصادى والاجتماعى دون النظر إلى أية محاولة لمباشرة الحقوق السياسية سواء بواسطة

الأوروبيين أو الأفريقيين على أن يكون ذلك عن طريق استثمار الموارد الوطنية والمواد الخام من أجل الصناعة .

وفى سنة ١٩٥٦ تزعم الأستاذ فون بلزن الرأى الذى ينادى بوجوب الحرص على صداقة الشعوب الإفريقية بإشراكها فى وضع القوانين وفى الحكم ونادى بعقد مؤتمر أفريقى أوروبى من أجل مناقشة المشاكل المشتركة بل دعا إلى اشتراك الدول الأفريقية المستقلة فيه كمصر وإثيوبيا وتونس والسودان ، ولكن عارضه رجال الحكومة البلجيكية ومعهم رجال الشركات الذين أبوا أن يتنازلوا عن بعض سلطتهم الاستعمارية من نفوذ وأرباح وبذلك ظل وضع الكونغو دون ما تغيير مطلقاً .

وظلت إيطاليا مشغولة بحروبها فى الشمال الأفريقى فى سنة ١٩٤٠ ومال الميزان بها فى سنة ١٩٤١ حتى بدأت تفقد امبراطوريتها فى شرق أفريقيا وانتهى بها الحال إلى انسحابها من هناك نهائياً فى سنة ١٩٤١ .

فليس بغريب بعد ذلك أن تضع مصر كل إمكانياتها من أجل نصرة قضايا الاستقلال فى هذه القارة وتأخذ جانب الشعوب الأفريقية فى مطالبها من ضرورة التخلص من النفوذ الاستعمارى مهما كانت صورة هذا النفوذ فكانت هذه المساندة المستترة أحياناً والواضحة أحياناً أخرى هى محور السياسة المصرية بعد سنة ١٩٥٤ بعد أن حلت مسألة السودان مع بريطانيا وكذلك انتهت إلى وجوب جلاء الجيش البريطانى عن أراضى جمهورية مصر فى تلك السنة كما مر بنا .

اتصال مصر ببقية القارة غير موجود

وإذا غضضنا النظر مؤقتاً عما فعلته مصر أو حاولته مصر من أجل أفريقيا ، وحاولنا التفكير فى الوسائل المختلفة التى قد تتخذها مصر من أجل الاتصال بأفريقيا ، نجد أن وسائل هذا الاتصال كانت ولا تزال صعبة إن لم تكن مستحيلة ، فأفريقيا قبل أن يأتى الاستعمار إليها لم تكن بها أى وسيلة من وسائل الاتصال بين أجزائها المختلفة رغم اتساع مساحتها وعدم وجود بحار داخلية تقرب بين أجزائها على نحو ما تفعل هذه البحار الداخلية مع أوروبا. فمصر مثلا رغم تقدمها عن سائر أجزاء أفريقيا فى وسائل هذا الاتصال قد قصرت فى اتصالها بأقرب جيرانها سواء السودان أو ليبيا . فخطوطها الحديدية كانت إلى أواخر القرن الماضى تنتهى عند أسيوط . وإذا ما أراد البريطانيون — بعد أن احتلوا مصر — استعادة السودان لضمه إلى مصر جعلوا مقاسه غير مقاس الخط الحديدى المصرى ، حتى إذا امتد الخط الحديدى بعد ذلك إلى أسوان فالشلال وقف عند هذا الحد فأصبح الاتصال بين القطرين لا يتم إلا عن طريق باخرة تتسكع بين الشلال ووادى حلفا فى ثلاثة أيام ، وقد تمكن هذا الاتصال عن طريق البحر بعد إنشاء ميناء بورسودان فى سنة ١٩٠٤ والباخرة لن تأخذ أقل من عشرة أيام بين السويس وبورسودان ، وعلى المسافر أن يقطع المسافة بعد ذلك من بور سودان إلى العطبرة ومن هذه الأخيرة إلى الخرطوم . والطرق البرية الأخرى لا تسير إلا فى الصحراء . فى أرض جافة . مجدبة . قليلة السكان والخيرات وسنحاول جهد الطاقة أن تصور سياسات النقل الاستعمارية فى صورة مختصرة لنرى أن هذه الدول

الإستعمارية لم تضع فى سياستها مطلقا محاولة الإتصال بين مستعمرة وأخرى أو بين جزء من إفريقيا وآخر ، حتى وإن كان هذا الجزء الآخر خاضعاً لنفس سيادتها .

كان الهدف الأول من إنشاء وسائل المواصلات الحديثة فى القارة هو الوصول إلى مواطن الإستغلال الاقتصادى من أقصر طريق وبأقل تكاليف ممكنه أو الوصول إلى أمكنة التجمعات السكانية التى تزل بها رعاياهم من أجل خدمتهم ، أما خدمة الأفريقيين أو العمل على تسهيل اقتصادهم فلم يفكر فيه البتة . وإن فعلوا فلاجل تعويقه .

وسنحاول أن نعطى صورة لبعض أنواع النقل الذى أنشىء فى أفريقيا متوخين سبيل الاختصار ما أمكن كى لا نخرج عن موضوعنا الأصلى الذى هو العلاقة بين مصر وأفريقيا .

كانت من أولى الدول الاستغلالية فى أفريقيا هى الكونغو الذى كان يجرى استغلاله لمصلحة شخص معين هو ليوبلد عن طريق الشركات المختلفة التى أنشئت ، فالنقل النهرى كان أول الوسائل التى استعملت لا سيما وأن نهر الكونغو يشمل كل أجزاء هذه الدولة تقريباً ، كما أنه صالح للملاحة فى أغلب أجزائه . ويبلغ طول المسافة الصالحة للملاحة فى نهر الكونغو الادنى حوالى ستة آلاف ميل ، وإن كانت غير متعاقبة ، كما أن هناك مسافة ١٩٧٧ ميلا أخرى فى الكونغو الأوسط لا تتخللها المساقط المائية ، هذا إلى أن كمية المياه التى تجرى فى النهر تسمح طول السنة بالملاحة فظلت حكومة الكونغو الحرة تعتمد اعتماداً كلياً فى بادىء الامر على هذه الملاحة النهرية التى نظمتها (شركة ملاحة أعالى الكونغو) التى ألفت فى سنة ١٨٨١ وظلت تعمل حتى سنة ١٩٢٥ حين تحولت إلى (الإتحاد الوطنى لشركات النقل النهرى) .

ولكن حيث انعدم النقل النهرى أو اصبح متعذراً كان إنشاء الخطوط الحديدية سابقاً لمحاولة شق الطرق ، وفى مناطق اخرى اقتصر على مد السكك الحديدية الرئيسية واعتمد على النقل البرى بالسيارات لتموين هذا الخط الرئيسى ولم تحاول حكومة الكونغو وصل هذه السكك بالخارج إلا حين اريد إخراج النحاس من إقليم كاتنجا فمد الخط الى الشرق ليتصل بسكة حديد موزمبيق لتكون موانى هذه الاخيرة مخرجاً لمنتجات الكونغو الى الخارج ولم يتم هذا الا بعد الحرب العالمية الاولى لان البرتغال لم تبد اية عناية بمشكلة النقل حتى الداخلى منها الا فى هذا الوقت . وما مد من خطوط حديدية كانت اربعة قصيرة اولاها خطان من كليمانى الى مناطق الإستغلال الزراعى شمال نهر الزمبيزى وكانت قد زرعت بقصب السكر والقنب وجوز الهند أما الثالث فمن ميناء موزمبيق الى منطقة انترى دبو التى استعملت أيضا لزراعة قصب السكر والقنب والرابع من ميناء سوفالا إلى تيت . ثم مد إلى جنوب نياسالاند ومنها اتجه غربا إلى روديسيا الشمالية . فكان امتداد الخطوط الحديدية فيها خدمة لاقتصادها الزراعى أو لخدمة المستعمرات التى تقع خلفها سواء كانت بلجيكية كالكونغو البلجيكى أو بريطانية كروديسيا الشمالية ونياسالاند .

وكان الأمر يجرى على هذه الصورة فى أنجولا أيضاً فما أنشىء فيها من خطوط تم لوصل المهاجر البرتغالية التى أنشئت فى القرن العشرين فكان هذا الاستقرار فى الأماكن الداخلية هو الذى دفع بالحكومة إلى مد الخطوط الحديدية عبر الهضاب بعد أن بدأ نشاط المستوطنين فى استغلال الأرض واضحا سواء كان هذا الاستغلال زراعياً أو معدنيا فلم يوجد بها إلا ثلاث خطوط ، أولها من لواندا إلى مالنجى وطوله ٢٨٠ ميلا والثانى من موزا

ميدس إلى نيديرا التى أصبحت مركزاً لإنتاج القمح والقنب ، أما الثالث والأوسط فكان أهمها جميعاً لأنه امتد من أقصى حدود المستعمرة غربا إلى أقصاها شرقا ليتصل بسكة حديد كاتنجا لخدمة مناطق النحاس بها ولتصل أيضا بسكك حديد موزمبيق وقد استغرق مد هذا الخط مدة ٣٠ سنة من ١٩٠٣ إلى ١٩٣٣ .

ولما كانت رءوس الأموال البريطانية هى التى تعمل فى إقليم كاتنجا الكونغولى وفى روديسيا الشمالية لأجل النحاس أيضا فإن رءوس الأموال البريطانية هى التى ساهمت بأكبر نسبة فى إنشاء هذا الخط .

أما شمال خط الاستواء فقد اقتصر مد الخطوط الحديدية فى مستعمرات ساحل غانة سواء كانت بريطانية أو فرنسية على بضعة خطوط قصيرة لتصل بالمنتجات سواء من زيت النخيل فى نيجيريا أو الكاكاو فى ساحل العاج وغانة إلى موانى الساحل وأما شمال ذلك كمستعمرات تشاد والنيجر ومالى وفولتا العليا فكان ولا يزال خاليا تماماً من أية خطوط حديدية واقتصر الأمر على طرق برية وهدفهم فى ذلك كان حربيا بحتا لأن ما مد فى الشمال الأفريقى الفرنسى (تونس والجزائر ومراكش) اقتصر على وصـــل هذه المستعمرات ببعضها فى الاقليم الساحلى الشمالى حيث عاش المستوطنون الفرنسيون يعنون بالإنتاج الزراعى وإذا كان هناك إنتاج معدنى فى الداخل من الحديد فى الجزائر أو الفوسفات فى المغرب فقد جعلت له خطوط حديدية صغيرة من مواطن إنتاجه فى الجبال إلى الموانى الساحلية ولم تحظ الصحراء الجزائرية بأى نصيب من الاهتمام بسبب عدم وجود تجمعات سكانية فرنسية . بينما لم يعن الإيطاليون مطلقا بمد خطوط حديدية فى مستعمراتهم الشمالية أو الشرقية اللهم

إلا خط حديدى واحد من مصوع إلى اسمرة . بينما عنوا أثناء احتلالهم القصير لاثيوبيا بتمهيد عدة طرق برية أولها بين أسمرة وأديس أبابا لمنافسة الخط الذى يصل بين أديس أبابا وجيبوتى . وثانيها من أديس أبابا إلى جما لخدمة مناطق نمو البن بريا فى كافا ولدفع الايطاليين إلى الاستيطان هناك ، وثالثها إلى عصب لمنافسة جيبوتى أيضاً ولكن هذا الطريق الثالث ظل ميتا رغم ما صرف عليه من مال لاختراقه مناطق غير مأهولة .

ومع كل هذا الجهد فإن ما مد من خطوط حديدية فى قارة أفريقيا لم يخدم سوى ٣ ٪ من مساحة القارة . التى غدت أشبه بجثة متقطعة الأوصال لاسيما وأن أغلب الفنيين القائمين على خدمة هذه الأجزاء كلهم من الأجانب وإذا ما انسحب هؤلاء على أثر الاستقلال شعرت الدول الأفريقية بالخطر الذى يهددها من جراء تعرض الخدمات للتوقف .

أما إذا أريد الاتصال بعواصم هذه المستعمرات السابقة عن طريق الهواء فلا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق شركات الطيران الاستعمارية وباريس طريق الاتصال بالمستعمرات الفرنسية السابقة ولندن طريق الاتصال بالمستعمرات البريطانية وبروكسل طريق الاتصال إلى الكونغو وهكذا .

فيجب علينا أن نفكر فى هذه المصاعب كلها إذا أرادت مصر أن تتصل بهذه المستعمرات الأفريقية لأى غرض من الأغراض . فما بالك إذا كانت هذه الأغراض تتنافى مع مصالح الدول الاستعمارية المهيمنة على القارة الأفريقية ومع ذلك فإن مصر قد قامت بواجبها واتصلت بهذه المستعمرات المختلفة على الصورة التى سوف نراها . ولكن ما هى الحال التى وجدتها فى كل منها ؟

كيف وجدت مصر الثورة أفريقيا

حين أطلت مصر فى سنة ١٩٥٤ على أفريقيا — وقد انتهت من إيجاد حلول مناسبة لمشكلتى السودان وجلاء البريطانيين عن أراضيها كما مرينا وجدت فى أفريقيا شيئا يختلف عما كانت تظنه .

كان الشمال الأفريقى يغلى بالثورة ففى الجزائر قام الشعب يحتفل مع الفرنسيين بالنصر فى سنة ١٩٤٥ بعد أن هادن الحكومة الفرنسية خلال الحرب وانضم إلى صفوف المحاربين الفرنسيين وانتهز الوطنيون الفرصة وقاموا بمظاهرات رفعوا فيها العلم الوطنى (الأبيض والأخضر) للمرة الأولى فكان ذلك إيذانا برغبة الجزائريين فى إحياء الشخصية الجـــزائرية المستقلة عن فرنسا ، فهجم المستوطنون الفرنسيون عليهم بالسلاح وقتلوا منهم عدداً بلغ أربعين ألفا فى تقدير القنصل الأمريكى بينما لم يزد عدد قتلى الفرنسيين عن ١٠٣ شخصا وقبض على عباس فرحات زعيم المعتدلين وألغى حزب (أصدقاء الحرية) وبلغ عدد المقبوض عليهم ٤٦٥٠ شخصا قدموا للمحاكمة فحكم على ١٣٠٠ منهم بأحكام مختلفة بينهم ٩٩ بالاعدام ، وصدرت المنشورات تحمل توقيع (الرأى العام الفرنسى) تطالب بإعدام عباس فرحات .

وعزل الحاكم الفرنسى واستبدل به آخر من المستوطنين وسادت الجزائر موجة من الارهاب ومضت سبع سنوات امتلأت بالصراع بين الادارة الفرنسية والمستوطنين من ناحية والوطنيين الجزائريين من ناحية أخرى ، ارتكبت خلالها أنواع الفظائع ولكن لم تلبث أن انبعثت من بين المستوطنين

بعض أصوات تطالب بالتفاهم من أجل مصالح البلاد . فلم يجد الوطنيون بدا من إيجاد جبهة واحدة تضم مختلف الأحزاب وإن اختلفت أهدافها، والإدارة الفرنسية تمعن فى تجاهل المطالب الجزائرية حتى المعتدلة منها . وأخيرا استطاع الوطنيون أن ينظموا صفوفهم فى سرية تامة .وأخيرا أعلنوا الثورة الجزائرية المسلحة فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ .

. . .

وفى تونس كانت فرنسا أيضاً قد لجأت أيضاً إلى سياسة العنف بعد سنة ١٩٥٠ حين قام الحبيب بورقيبة يطالب بمزيد من الاشتراك فى الحكم فنفى إلى خارج البلاد ، وقدم إلى مصر حيث لقى مقاما سهلا ولكن قيام وزارة منديس فرانس فى باريس فى سنة ١٩٥٤ أدى — وقد عقدت انجلترا اتفاقية الجلاء مع مصر — الى السماح لبورقيبة بالعودة حيث نجح حزب الدستور فى حيازة الأغلبية فى المجلس القشريعى الذى كان قد أقيم فى سنة ١٩٤٦ مع بقاء أمور الدفاع والسياسة الخارجية فى يد فرنسا .

. . .

وفى مراكش كان عطف السلطان محمد الخامس على مطالب الوطنيين قد أغضب فرنسا فحرضوا عدداً من الباشوات البربر وعلى رأسهم جلاوى باشا على طلب عزل السلطان فعزل فى سنة ١٩٥٣ ونفى الى جزيرة ريونيون واستبدل به سلطان آخر هو بن عرفة .

. . .

وفى أفريقيا الاستوائية الفرنسية وأفريقيا الغربية الفرنسية فقد قام حزب التجمع الفرنسى L'Assemblé de l'Union Francaise برئاسة فليكس بوانيه

Felix Boigner الذى كان رئيساً للمجلس التشريعى المحلى فى ساحل العاج يبث دعايته وينشر فروع الحزب فى جميع الأقسام الإدارية لهذه المستعمرة(*) من أجل أن تكون جميعها مع فرنسا وحدة سياسية واحدة تعمل على التقدم الاقتصادى تحت الإرشاد الفرنسى . وهو الذى أوحى فيما بعد إلى الجنرال ديجول بهذه الفكرة ليضمنها دستور الجمهورية الرابعـــة الذى صدر فى سنة ١٩٥٨ .

وفى الكمرون كان العمال الافريقيون قد أعلنوا رغبتهم فى الانفصال عن الاتحاد العام للعمال الفرنسيين فاضطهدتهم الحكومة الفرنسية مما أدى إلى فرار زعيمهم فليكس مومى إلى الكمرون البريطانى ثم إلى مصر .

. . .

وفى المستعمرات البريطانية كان بوير جنوب أفريقيا يحاولون منذ سنة ١٩٢٤ جعل هذا الجزء من القارة موطنا للرجل الأبيض فقسموا البلاد إلى منطقتين إحداها لاتبلغ أكثر من $\frac{1}{7}$ مساحة الاتحاد ليعيش فيها ٧٥ ٪ من السكان وهم الوطنيون مكونين وحدات سياسية تحمل اسم (بانتوستان) تكون للدولة البيضاء (التى تعيش على $\frac{6}{7}$ المساحة وعدد سكانها لا يعدو ٢٥ ٪ من مجموع سكان الاتحاد) حق قيادتها وفق إمكانياتها الخاصة ، وقام

(*) كانت ساحل العاج وداهوى وغينيا ومالى والنيجر وموريتانا والسنغال اجزاء إدارية فى مستعمرة السودان الفرنسى يحكم كلا منها مدير مسؤول أمام الحاكم العام للمستعمرة الذى يقيم فى دكار وهكذا الأخير مسؤول بدوره أمام وزير المستعمرات فى باريس

الوطنيون يقاومون هذه السياسة المجحفة وكونوا لذلك (حزب المؤتمر) فصدر قرار بحل هذا الحزب بعد أن قرر القيام بحركة عصيان مدنى ، فاعتبرت الحكومة القيام بهذا العمل عملا شيوعيا مما يبيح للحكومة اعتقال من تشاء وحبسه مدة لا يحددها القانون .

. . .

وسعى المستوطنون البريطانيون فى كينيا سعى إخوانهم فى جنوب أفريقيا محاولين جعل هذا الجزء أيضاً موطناً للرجل الأبيض منذ أن قدموا إليه فيما الحربين وسكنوا الأجزاء المرتفعة فيها ومكنتهم الحكومة من استئجار الأراضى بمقتضى عقود طويلة الأجل وصلت مدتها إلى ٩٩٩ سنة بإيجار إسمى تافه . الأمر الذى مكنهم من الاستيلاء على قرابة خمسة مليون فدان هى التى سميت بالمرتفعات البيضاء ، وقام الوطنيون يقاومون هذه المحاولة الآثمة ومطالبهم تنحصر فى إعادة الأرض للوطنيين، وثاروا من أجل ذلك ثورتهم الكبرى فى سنة ١٩٢٣ مما أضطر الحكومة البريطانية إلى إصدار تصريح دى فونشاير الذى يعترف بأحقية الوطنيين فى أرضهم ويقصر عمل بريطانيا على العمل من أجل تقدمهم إلى يوم يتسلمون فيه إدارة البلاد وأكدت الحكومة البريطانية هذا التصريح عند قيام الحرب العالمية الثانية من أجل أن تضمن وقوف الوطنيين إلى جانبها فى الحرب ثم سعى المستوطنون البريطانيون بعد انتهاء الحرب إلى الحكومة البريطانية لتسحب هذا التصريح وسافر السير الفرد فنسنت Alfred Vincent فى سنة ١٩٥٠ إلى لندن ورسم مع حكومة المحافظين خطة ترمى إلى ضمان سيطرة المستوطنين على البلاد خلال عشرة أعوام ، فألف الوطنيون بزعامة جومو كينياتا (اتحاد كينيا للأفريقيين) وقام يطالب بالمساواة التامة بين الوطنين والمستوطنين فى الحقوق

والواجبات ثم تأسيس حكومة ديموقراطية قائمة على الانتخاب الفردى مما يعطى الوطنين حقهم فى المجلس التشريعى . ضمانا لتسلمهم الحكم فى بلادهم فى سنة ١٩٦٠ .

وكانت مقاومة المستوطنين المسعورة لجهود الوطنين قد دفعت بالأخيرين إلى تأليف الجمعيات السرية التى كانت نتيجتها حركة الاغتيالات ضد الأوروبيين وهى الحركة التى عرفت باسم (الماوماو) وبلغ عنف هذه الحركة حداً أرغم الحكومة البريطانية على منح كينيا أول دستور لها فى سنة ١٩٥٤ وهو المعروف بدستور ليتلتون الذى أعطى الوطنيين للمرة الأولى حق انتخاب نواب لهم فى المجلس التشريعى الذى كان قبل ذلك قاصراً على الأجانب من بريطانيين وهنود .

. .

وفى ساحل الذهب (غانة الحالية) كان الحاكم العام البريطانى يرأس مجلساً تنفيذيا مكونا من تسعة أعضاء ليس بينهم إلا اثنان من الإفريقيين . وهذا المجلس مسؤل أمام مجلس تشريعى قائم على نظام الانتخاب أغلبية أعضائه من الوطنيين وقام حزب الشباب يرأسه أنكوامى نكروما يطالب بمزيد من الاشتراك الوطنى فى الحكم ويهدد بمقاطعة البضائع البريطانية فى حالة امتناع الحكومة على الموافقة على هذا الطلب مما أدى إلى القبض على الزعيم ومحاكمته والحكم عليه بالحبس سنتين .

. .

وفى الكونغو البلجيكى لم يكن باتريس لومومبا أكثر زعماء هذا الجزء حماساً يفكر فى أكثر من الوصول إلى (حسن تفاهم بين البلجيكيين

والـكونغوليين مما يؤدى إلى تحقيق وحدة قومية مبنية على الحب المتبادل ويدعو إلى (عدم الثقة فى المتشككين الذين ينادون بتحرير الـكونغو) . ويذكر بكل فخر وارتياح ما أعلنه (الملك المفدى بودوان من أن بلجيكا والـكونغو لن يكونا سوى أمة واحدة) ويصف الأشخاص الذين يقومون بتصوير الاستعمار بصورة كريهة بأنهم (دخلاء سفاحون) ويشكر بلجيكا التى جاءت بدافع الانسانية لمساعدتهم فتمكنت من القضاء على مرض النوم وعلى (أميتنا) وعملت على (تثقيفنا) وقضت على العـادات اللاانسانية وأعادت كرامتنا الانسانية وخلقت (منا) رجالا أحرار سعداء أقوياء محترمين حتى أصبحت الدولة القديمة المظلمة (أى الـكونغو) من أجمل دول أفريقيا وكان أقصى ما يطمع فيه أن يأخذ بيد (العناصر الممتازة الممثلة للصفوة الـكونغولية) كى تتساوى مع البلجيكيين فى الحقوق وإعطائهم بعض الوظائف مثل المحصلين فى البريد أو مساعدى الأطباء أو سكرتارين إداريين أو مندوبين زراعيين أو مدرسين أو نظار مدارس وهى وظائف كانوا محرومين منها .

ومن ذلك ندرك أنه لم يكن هناك من شعب أفريقى يطالب باستقلال تام لبلاده عن الدولة التى تستعمره بل كانوا جميعاً يطالبون بمزيد من الاشتراك الوطنى فى الحكومة وقيادة رشيدة من الدولة المستعمرة تأخذ بيدهم نحو مزيد من التقدم المعقول . وإن كان الشمال الأفريقى يسعى إلى تخفيف الحماية الفرنسية .

وبدأت مصر العمل فـكان الشمال الأفريقى أول ما مدت يدها إليه لأنه يدخل فى دائرتين من دوائر العمل كما تصورها رجال الثورة دائرة العمل العربى ودائرة العمل الأفريقى . فـكان أن رحبت الحكومة (بمكتب المغرب

العربى) الذى اتخذ له مكاناً فى القاهرة وبدأ يصدر النشرات عن وجهة النظر الوطنية فى كل مشاكل الشمال الأفريقى ، واحتج هذا المكتب عن طريق جامعة الدول العربية على نفى السلطان محمد الخامس من مراكش ولم يعترف بالسلطان الجديد ، وأيدتها فى ذلك الصحافة والحكومة المصرية تأييداً منقطع النظير بل اتصلت بالحكومة الأسبانية (وهى شريكة فرنسا فى حكم مراكش) فكان من أثر هذا الاتصال أن أعلنت الحكومة الأسبانية عدم اعترافها بالسلطان الجديد (أبن عرفه) وأثارت جامعة الدول العربية المسألة المراكشية فى دوائر هيئة الأمم المتحدة . فى الوقت الذى رحبت فيه بزعماء تونس وأباحت لهم حرية العمل من أجل قضية بلادهم .

وإذا ما أعلنت الثورة الجزائرية المسلحة عن نفسها فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ أيدتها حكومة مصر تأييدا كاملا ورحبت بأبنائها فى الـكلية الحربية كطلبة نظاميين وأرسلت لها الأموال والأسلحة . وإذا ما تألفت حكومة الجزائر الوطنية برئاسة عباس فرحات (الذى أنضم إلى جانب الثوار رغم أعتدال وجهة نظره من قبل) رحبت بها مصر على أراضيها وأباحت لها رفع العلم الجزائرى الوطنى على مقرها وأيدتها بالأموال اللازمة لقيامها . فى الوقت الذى أثارت قضيتها فى المؤتمرات والمحافل الدولية داعية الدول الأخرى إلى تأييدها . فـكان من أثر هذا الموقف أن أعادت فرنسا السلطان المنفى إلى مراكش، كما أباحت لزعماء تونس العودة إليها ثم بدأت معهم المفاوضات من أجل الاعتراف باستقلالهما . إذا اعترفوا بمركز فرنسا الممتاز بها ، وأباحت للأسطول الفرنسى قاعدة بحرية فى بنزرت التونسية فتم ذلك فى سنة ١٩٥٦ . ورغم اختلاف مصر وتونس فى بعض وجهات النظر وقطع العلاقات السياسية بينهما فإنها سرعان ما انضمت إليها حين ضربت السلطات الفرنسية قوية

سيدى يوسف التونسية بالقنابل من أجل القضاء على ثائرى الجزائر الذين لجأوا إليها ، فاحتجت مصر على هذا العمل وأنضمت إلى تونس فى طلب إخلاء فرنسا لميناء بنزرت . وإذا ما تم هذا الإخلاء سافر رئيس حكومة مصر إلى تونس مهنئا باستكمال الاستقلال فى الوقت الذى ظلت فيها توالى مناصرتها لثورة الجزائر .

وإذا ما أعلنت حكومة مصر تأميم شركة قناة السويس أنضمت فرنسا إلى انجلترا وإسرائيل وأعتدوا معاً على مصر فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ من أجل الانتقام للمساعدة المصرية للجزائر . بعد أن وضح لفرنسا أن مصر لن تتوانى عن بذل المساعدة لها .

وانتهى هذا الاعتداء بجلاء الدول الثلاث عن أراضيها وعادت مصر إلى موالاة مساعدتها للثورة الجزائرية بمختلف وسائل المساعدة .

وكانت مصر قد بدأت نشاطها الدولى من أجل أفريقيا ومن أجل السلام العالمى بحضور مؤتمر باندونج الذى عقد فى بداية سنة ١٩٥٥ واشتركت فيه من الدول الأفريقية إثيوبيا وساحل الذهب وليبريا والسودان وليبيا فكان من بين قراراته استنكار التفرقة والتمييز العنصرى القائم فى مناطق شاسعة من أفريقيا وتأييد كفاح الشعوب ضد العنصرية وتأييد قضايا الحرية والاستقلال لجميع الشعوب المناضلة ضد الاستغلال الأجنبى ثم تأييد حقوق شعب الجزائر وتونس ومراكش فى تقرير المصير والاستقلال وقد أجمعت الصحافة والاذاعة فى مختلف البلاد الآسيوية والإفريقية على أن هذا المؤتمر يعد حدثا عظيما فى حياة الشعوب الآسيوية والأفريقية فقد انتقل تقرير مصير الشعوب فى قارتى آسيا وأفريقيا إلى أيدى أهلها بعد أن كانت تقرره الدول

الغربية دون أى اعتبار لمصالح أصحاب البلاد الأصلية .

وجاءت الخطوة التالية بدعوة مصر إلى انعقاد مؤتمر الشعوب الآسيوية الأفريقية فى القاهره فى السادس والعشرين من ديسمبر سنه ١٩٥٧ وفيه مثل المندوبون شعوبهم والرأى العام فى بلادهم أصدق تمثيل دون أن تعوق أو تحد من صدق تمثيلهم تلك الاعتبارات التى يلتزم بها المندوبون الحكوميون وحضره مندوبو الدول الأفريقية والآسيوية المستقلة ، ومندوبو الشعوب الخاضعة لوصاية الأمم المتحدة إلى جانب مندوبى الشعوب الواقعة تحت نير الاستعمار والتى مازالت تكافح لتحقيق استقلالها فحضره أكثر من ٢٥٠ مندوبا يمثلون ٤٨ شعباً من شعوب القارتين يعبرون عن إرادة ألف وخمسمائة مليون نسمة فكان تعبيراً قويا عنيفا عن شعور هؤلاء الملايين بحقهم فى الحياة الكريمة وفى تقرير مصائرهم بأنفسهم وقرر المؤتمر :

١ — حق المستعمرات والمحميات والبلاد الموضوعة تحت الوصاية فى الاستقلال العام .

٢ — تأييد نضال شعوب الكمرون وكينيا فى وحدتهما واستقلالها .

٣ — تأييد حق شعب أوغندا فى عرض قضيته على هيئة الأمم المتحدة .

٤ — تأييد حق تشاد ومدغشقر فى كفاحهما من أجل التخلص من السيطره الفرنسية .

٥ — ترقب الاستفتاء الشعبى المزمع إجراؤه فى توجولاند .

٦ — تأييد المغرب فى استرجاع جميع المناطق التى لا يزال الاستعمار يسيطر عليها .

٧ — تأييد شعب الصومال فى نضاله من أجل الاستقلال والاعتراف بحقه فى تقرير المصير .

٨ — استنكار التفرقة العنصرية فى جميع صورها .

٩ — استنكار الحرب الاستعمارية التى تشنها القوات الفرنسية فى الجزائر والمطالبة بالاعتراف باستقلال شعب الجزائر والافراج عن المعتقلين .

كما أوصى بتحقيق التعاون الثقافى بين الشعوب الأفريقية والآسيوية إلى أقصى مدى وعلى أوسع نطاق وكذلك بوضع كتاب فى تاريخ الشعوب الأفريقية والآسيوية يكون بمثابة دائره معارف تاريخية وجغرافية تصور حياه هذه الشعوب ودورها فى بناء الحضاره والكفاح الوطنى علاوه على التفكير فى تكوين منظمة دائمة للشعوب الآسيوية والأفريقية .

وفى المؤتمر الثانى لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية الذى عقد فى كوناكرى عاصمة غينيا فى شهر أبريل سنة ١٩٦٠ — بعد أن رفضت غينيا الانضمام إلى مجموعة الشعوب المتكلمة بالفرنسية وآثرت الاستقلال سبيلا إلى أهدافها — قرر المؤتمر توحيد وتنسيق نضال الشعوب الأفريقية الآسيوية ضد الامبريالية والاستعمار لضمان تحرر الشعوب ومضاعفة نموها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى . وتتابعت المؤتمرات بعد ذلك كمؤتمر الشعوب الافريقية الثانى الذى عقد فى تونس فى الخامس والعشرين من يناير سنة ١٩٦٠ الذى حضرته وفود تمثل النقابات والهيئات المختلفة فى البلاد الافريقية وأصدر قرارات خاصة باستنكار موقف فرنسا فى الجزائر والتفرقة العنصرية كما دعا إلى الوحدة الافريقية ، ثم المؤتمر الاقتصادي الافريقى الآسيوى الثانى فى القاهره فى مايو سنة ١٩٦٠ الذى أوصى بالاسراع فى تكوين منظمة آسيوية أفريقية

للتعاون الاقتصادى بين الدول الافريقية على مستوى حكومى ، ثم مؤتمر الشعوب الافريقية الثالث الذى عقد فى القاهرة فى الخامس والعشرين من مارس سنة ١٩٦١ وقد حضره ٣٠٠ عضو تقريبا يمثلون ٦٩ منظمة سياسية وأصدر قرارات بوجوب مساعده الدول الافريقية الخاضعة للسيطرة الاجنبية فى نضالها التحريرى وهو يعنى بذلك الجزائر ونياسالاند وروديسيا وجنوب أفريقيا وباسوتولاند وأنجولا ورواندا أورندى والكونغو ، واعتبر الاستعمار الجديد استمراراً للنظام الاستعمارى بالرغم من الاعتراف رسميا بالاستقلال السياسى فى البلاد الناشئة وخطراً يهدد البلاد الافريقية التى نالت استقلالها حديثا والتى توشك أن تحصل عليه وضرب أمثلة بالأوضاع فى الكونغو ودول المجموعة الفرنسية واتحاد روديسيا ونياسالاند .

وفى رأيى أن أخطر هذه المؤتمرات شأنا كان مؤتمر أكرا الذى عقد فى الخامس من ديسمبر سنة ١٩٥٨ عقب حصول ساحل الذهب (غانة) على استقلالها . وقد اقتصرت عضويته على الدول المستقله فى أفريقيا وساهمت فيه مصر وغانه وليبيا وتونس ومراكش وليبريا وإثيوبيا فرفع للمرة الاولى شعار (أيها الاستعماريون ارحلوا عن أفريقيا) وأعلن أن هدفه هو الاستقلال التام لدول أفريقيا كلها بعيده عن كل نفوذ أجنبى كما أوصى بوجوب مساعدة الحركات التحررية فى بقية القارة كما حضره مندوبون عن بعض الحركات التحررية كالكونغو وجنوب أفريقيا كمراقبين فكانت هذه القرارات بمثابة دفعة قوية لهؤلاء المندوبين ، فقد حول نظر لومومبا زعيم الكونغو مثلا من مجرد المطالبة بتحسين حال أهالى الكونغو الوطنيين ومساواتهم بالاوروبيين إلى طلب الاستقلال التام للكونغو بعيداً عن النفوذ البلجيكى كما أعطى الجرأه لمندوبى الوطنيين فى جنوب أفريقيا ليرتفع صوتهم للمطالبة بمزيد من الحريات فى وطنهم . وكذلك لمندوبى كينيا الذين تحولوا كذلك إلى

المطالبة بالاستقلال التام لبلادهم وإن كان هذا الاستقلال فى ظل نظام حكم قائم على التعاون بين الوطنيين والأوربيين والهنود .

فكانت هذه المؤتمرات المتوالية الأساس الأول لتكوين جبهة الدول الآسيوية الأفريقية فى هيئة الأمم المتحدة وقيامها بدور فعال فى مجابهة الدول الغربية والمطالبة بكثير من المطالب العادلة والوقوف فى وجه الدول الغربية التى كانت تتضامن من أجل استمرار خضوع الدول النامية لها كما كانت من قبل ، فكان من أثر هذا أن لم تأت سنة ١٩٦٠ حتى كان أكثر من ثلثى دول القارة الأفريقية قد نالت استقلالها التام مع ارتباطات مختلفة القوة مع الدول صاحبة السيادة السابقة عليها مثل اشتراك المستعمرات البريطانية السابقة مع بريطانيا فى رابطة الكومونولث . واشتراك المستعمرات الفرنسية - ما عدا غينيا - مع فرنسا فى بعض مظاهر التعاون - الحربى والاقتصادى .

وإذا ما حصلت على استقلالها فى سنة ١٩٦٠ سبع عشرة دولة أفريقية أقامت مصر فى نفس العام علاقات دبلوماسية مع سبع منها هى الكاميرون وتوجو والكونغو والصومال والسنغال ومالى ونيجيريا وتقرر افتتاح سفارات فى داهومى والنيجر وفولتا العليا وسيراليون عام ١٩٦١ .

هذا فى الوقت الذى اتجهت فيه مصر إلى التعاون مع الحركات التحررية والدول الأفريقية الجديدة فى شكل معاهدات ثنائية سوف نعطيها بعض التفصيل فيما يلى كصور مختلفة للعلاقات المصرية الأفريقية .

وأول حلقات هذا التعاون انشاء (الرابطة الأفريقية) فى القاهرة وهى كما يظهر من اسمها عقد يجمع زعماء القارة الأفريقية الذين اضطروا إلى ترك أوطانهم لمطاردة الدول الاستعمارية لهم وإتاحة الفرصة لهم لأن يعملوا وأن

يقوموا بالدور الذى يرونه ملائما لبلادهم مع مدهم بما يلزمهم من مال وأهم من ذلك إعطاؤهم الفرصة لنشر أفكارهم فى حرية تامة والاجتماع بأبناء وطنهم وبث أفكارهم فيهم ليكونوا لهم خير عون فى نضالهم ، ومن أجل ذلك أنشئت لهم مجلة شهرية تحمل اسم هذه الرابطة لتكون مجال نشاطهم الفكرى فى اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية ولا حرج أيضاً فى استعمال اللغات الأوروبية الأخرى إذا وجد الزعماء فى ذلك فائدة لقضاياهم وإن الزائر لهذه الرابطة ليجد فيها مكانا لزعماء نيجيريا وآخر لأوغندا وثالثا للصومال أو الباسوتو وكينيا وجعل شعار هذه المجلة أن تعبر عن وجهة النظر الأفريقية الوطنية فى جو من الحرية فأصبحت الرابطة ومعها المجلة ميدانا للتعارف بين الزعماء الأفريقيين من أجل تخطيط قيام جبهة متحدة تعمل لخير القارة ، هذا من الوجهة العامة أما من الوجهة الخاصة فقد وقفت مصر إلى جانب الجبهة الوطنية لجنوب غرب أفريقيا - رغم الخلافات بينهما فى وجهة النظر - فى مطالبتها بإنهاء وصاية جمهورية جنوب أفريقيا على هذا الجزء لأنها تريد أن تمد إليه مبادىء التفرقة العنصرية التى تطبقها فى جمهوريتها وفى هذا انتهاك صريح لمبادىء الأمم المتحدة التى منها أخذت الوصاية التى تباشرها بحكم ميثاقها . وفى خلال جلسات الهيئة طالبت أكثر من مرة بإنهاء هذه الوصاية وكذلك فعلت فى لجنة إنهاء الاستعمار حتى إذا تألفت لجنة جنوب غرب أفريقيا أصبحت مصر عضوا بها واستطاعت أن تحمل اللجنة على تقرير زيارة هذا الجزء الأفريقى لترى رؤية العين كيف تدار الأمور فيها رغم معارضة جمهورية جنوب أفريقيا لهذه الزيارة ورغم تهديدها باعتقال أعضاء اللجنة وترحيلهم على أول طائرة .

وعندما استمرت البرتغال فى تجاهلها لهيئة الأمم المتحدة وتحايلها الواضح على الواقع بتعديل شكلى لدستورها نادت مصر بضرورة إنزال العقوبات بالبرتغال والقيام فورا بالخطوة الأولى من هذه العقوبات بقطع العلاقات السياسية والاقتصادية معها ، ولم تنتظر مصر أحد ليشاركها فى هذا الموقف الواضح بل بادرت بقطع هذه الصلات ومنعت طائرات البرتغال من الدنو من أراضيها والنزول فى موانيها الجوية أو الطيران فوق أراضيها .

وحين نادى زعماء جمهورية وسط أفريقيا بحل اتحاد وسط أفريقيا وراح زعيمهم كاوندا يذرع القارة بحثاً عن مساندة لحركته بادرت مصر باستقباله مقتنعة بوجهة نظره فى مقاومة الاتحاد الذى يفرض على أهلها من الخارج . أما حين نادى زعماء شرق أفريقيا بوجوب الاتحاد من أجل مصلحتهم نادت مصر بضرورة تأييدهم ما دام هذا الاتحاد يقيمه أفريقيون لمصلحة أفريقيا .

ورأت مصر ما تعانيه الدول الأفريقية الجديدة من فقر فى الموارد المالية وضعف دخل الأفراد وإنعدام رءوس الأموال الكبيرة التى تعطى الفرصة لفرض الضرائب الأمر الذى أدى إلى البطء فى تنفيذ المشروعات الاقتصادية وبالتالى شعور السكان بهذا الضعف فى عصر الاستقلال مما يؤدى بهم إلى الفتور ثم إلى محاولة الإنقلاب على الحكومة لعله يغير من حالتهم بل قد يؤدى إلى الكفر بالاستقلال الذى نالوه . وجدت لزاما عليها أن تتقدم إلى هذه الدول الأفريقية بالمال الذى يمكنها من القيام بمشروعاتها الاقتصادية ، فما أن قطعت فرنسا عن غينيا كل مساعدة مالية جزاء رفضها الإنضمام إلى مجموعة الدول الفرنسية وإلى جمهورية مالى التى تكون الصحراء نصف أراضيها فقدمت إلى الأولى قرضاً مقداره ستة ملايين من الجنيهات فى سنة ١٩٦١ ثم قرضا بهذا المبلغ إلى مالى فى نفس السنة أى أنها تحملت اثنى عشر

مليونا من الجنيهات فى سنة واحدة ثم قرضا ثالثاً لسيراليون بإحد عشر مليونا فى سنة ١٩٦٢ وهذه القروض من أجل شراء الآلات التى تمكنها من زيادة محصولاتها وتنوعها ومن أجل تنفيذ مشروعات صناعية تستهلك بعض موادها الخام التى كانت تتهالك على بيعها بأبخس الأثمان .

ومعنى ذلك إقامة نهضة صناعية تستنفد بعض اليد العاملة وتقليل المعروض فى الأسواق العالمية من هذه المادة فترتفع أسعارها . ولا تحاول مصر استغلال فرصة هذا القرض للاستفادة بفائدتها السنوية فهى لم تزد عن ٢ ٪ فى الوقت الذى تقدم فيه الدول الاستعمارية مثل هذه القروض بفائدة لا تقل عن ٧ ٪ .

وسعت مصر إلى الدول الأفريقية أيضا تعقد الاتفاقات التجارية فهى تعلم أن الزراعة هى الحرفة الرئيسية لجميع سكان أفريقيا وان وسيلة هذا الإنتاج ما زالت تسير وفقا للطرق البدائية . هذا إلى تشابه الإنتاج الزراعى فى بعض مناطقها وإن معظم دول القارة ما زالت تعتمد فى اقتصادها على محصول رئيسى واحد أو محصولين فأوغندا تعتمد على القطن ومعها السودان ونيجيريا إلى جانب الصمغ فى السودان وزيت النخيل فى نيجيريا . بينما تعتمد غانا على الكاكاو وليبيريا على المطاط . هذا فى الوقت الذى تعتمد فيه دول شرق القارة على الشاى والقنب والدخان ، ومصر حريصة دائما على أن تقف فى وجه الاستغلال الاقتصادى وليس هناك من وسيلة إلى ذلك سوى أن يستبدل بالعميل الأول عميلا جديدا فرأت أن تدخل إلى السوق مشترية لبعض هذه المحاصيل التى تريدها فمنذ سنة ١٩٥٨ دأبت على عقد الاتفاقات التجارية مع الدول الأفريقية من أجل شراء بعض محصولاتها فتقدمت إلى غانا فى تلك السنة ولم يمض على استقلالها سنة وإلى الصومال فى سنة ١٩٦٠ ولم يمض على استقلالها

إلا بعض العام — وكانت إيطاليا قد تركت الأخيرة فى حالة تقربها من الفقر — وتتابعت الاتفاقات بعد ذلك فكان اتفاق الجزائر فى سنة ١٩٦٤ وكانت حدود هذا الاتفاق ستة ملايين ونصف مليون من الجنيهات وفى مدى هذه السنة عقدت اتفاقات ثنائية مع تونس وتنزانيا وأوغندا وكينيا .

وفى خلال سنة ١٩٦٥ جدد الاتفاق مع السودان كما جدد اتفاقا غانا وتونس وعقدت اتفاقات جديدة مع إثيوبيا وسيراليون ومالى ، وكان الاتفاق مع السودان ينص على تعهد مصر باستيراد ٢٦ ألف بقرة بينما نص اتفاق إثيوبيا على استيراد ٤ مليون كيلو من اللحم . ولعلنا نذكر أن السودان مازال محتاجا إلى المصنوعات المصرية .

ولا شك أن الدول الأفريقية المستقلة حديثاً تحتاج إلى جهود كثير من الخبراء فى نواحى العلم المختلفة ، فمن المعروف أن مشروعات التنمية سواء فى الناحية الزراعية أو الصناعية تحتاج إلى خبراء متخصصين وفقر الدول الأفريقية فى هؤلاء الخبراء ظاهر لا تحتاج إلى دليل بعد أن عملت الدول الاستعمارية خلال حكمها الطويل على قصر التعليم على فئة صغيرة من الشعب وعلى أن يكون ما يقام من نوع التعليم قاصر على تخريج الموظفين لصغرى الوظائف الحكومية ونوع التعليم الذى يؤدى إلى خبراء فى النواحى العلم المختلفة فأمر قاوموه أشد المقاومة، ولجوء الدول الأفريقية إلى خبراء الدول التى كانت صاحبة السيادة عليها أمر يدعو إلى الريبة فكأن الدول الأفريقية الناشئة قد تخلصت من النفوذ الاستعمارى السابق لتعيده إليها تحت اسم الاستعانة الفنية ، أما الخبراء المحايدون وكذلك خبراء هيئة الأمم المتحدة فمرتباتهم تعجز أغنى الدول فما بال الدول الأفريقية الفقيرة ، فلا غرابة إذا قامت مصر بواجبها نحو الدول الأفريقية حديثة الاستقلال بتقديم خبرائها الذين لا يقلون

عن الخبراء الغربيين مكانة فى العلم مع حصولهم على مرتبات دون مرتبات الأجانب بكثير ، بل تشارك الحكومة المصرية فى بعض الأحيان بجزء من مرتباتهم ، فمنذ الأيام الأولى لاستقلال الصومال قدمت مصر خبراءها فى الزراعة ليساعدوه على استكشاف الأراضى الصالحة لزراعة أنواع معينة من المحاصيل واستصلاح الأراضى التى لم يسبق زراعتها بل قدمت أيضا خبراء الرى ورغم أن أنهار الصومال تجرى على نحو يخالف ما يجرى عليه النيل بل قدمت أيضاً خبراء المراعى من أجل تحسين مراعيها وزيادة أعداد الماشية .

وكذلك فعلت مصر مع مالى بل قدمت أيضا خبراء فى فن البناء وإنشاء الطرق لمساعدتها على إقامة مجموعات من المدارس رخيصة التكاليف وشبكة من الطرق .

وقدمت مصر أيضا خبراء فى الزراعة إلى جمهورية غينيا بعد أن بخلت عليها فرنسا بأحد منهم نتيجة اختيارهم طريق الاستقلال بل ساعدتها مصر على بناء ميناء حديث يستطيع استقبال السفن المحيطة الكبيرة .

واحتاجت ليبيا إلى مجموعة من رجال القضاء المصريين ليضعوا لها القوانين الحديثة وليكونوا أعضاء المحكمة الدستورية العليا ، وأثبتت هذه المجموعة كفاءتها فى مختلف الظروف كما أثبتوا استقلال القضاء وبعده عن الأهواء السياسية فكانوا بذلك مثالا للقضاء العادل النزيه . وكان نجاح الخبراء الذين ذهبوا إلى مالى مشجعاً لجمهورية النيجر على طلب مثلهم فقدمت لها مصر ما طلب .

وأرادت جمهورية الجزائرية أن تنشىء لها قوة بحرية أن تبدأ بتخريج

رجال بحريين دربوا تدريباً عمليا حديثا فطلب من مصر معونة فنية لإنشاء هذه المدرسة فلم تبخل عليها مصر بهذه المساعدة .

فى مؤتمر السكك الحديدية الافريقى الذى عقده فى القاهرة أعجب رجال السكك الحديدية الافريقيون بالنظام الذى تجرى عليه السكك الحديدية المصرية فطلبوا أن يستعينوا بخبراء مصر فى مد السكك الحديدية الأفريقية لتساعد على تقدم التجارة والعمران بعد أن حرمتها الدول الاستعمارية هذا النوع من المواصلات إلا ما كان منها مفيدا للاقتصاد الاجنبى فكانت قرارات المؤتمر وتوصياته دليلا على استعداد مصر لبذل المعونة المطلوبة .

وعرفت مصر أهمية التعليم بالنسبة لأفريقيا فقد عانت كل دولها الناشئة من قصور المستعمرين فى خدمتها قصور بعيدا كما عرفت مصر أيضاً ضرورة تزويد هذه الدول بما يكفل لها الخروج عن حالة الجهل التى تعانيها كى تعوض مافاتها طيلة السنين التى مكثتها تحت نير الاستعمار ، وعرفت هذه الدول أيضا ما تعانيه من هذا النقص وفى نفس الوقت عرفت أن استمرار الاعتماد على الدول المستعمرة لن تكون نتيجته خيرا خالصا فلا بد من التوجه إلى دولة أبعد ما تكون عن الرغبة فى الاستعمار أو فرض نوع معين من الثقافة وحبذا لو كانت هذه الدول افريقية فكانت مصر هى التى يرشحها ماضيها لمثل هذه المكانة . ولذا ما كاد مؤتمر التعليم العالى الافريقى يجتمع فى مدينة فانانا ريف عاصمة مالاجاش فى سنة ١٩٦١ حتى تضمنت إحدى توصياته أن تقدم مصر إلى معاهد التعليم الافريقية ماتحتاجه من الأساتذة .

وتطلعت الجمهوريات الإسلامية إلى مصر أيضا باعتبارها مركزاشعاع إسلامى طوال العصور الوسطى والحديثة لأن توافيها بالعلماء المسلمين يفقهون

أبناءهم فى أمر دينهم بعد أن عملت الدول الاستعمارية على خنق النشاط الإسلامى . بل انطلقت الجمهوريات الإسلامية أو ذوات النسبة الإسلامية الكبيرة بين سكانها إلى مصر كى تأخذ بيدها فى مجال تعريب مناهجها وطرق التدريس فيها . فلا غرابة أن بادرت مصر بإرسال بعثة إسلامية إلى السنغال ومنحت أبناء الصومال ثلاثين منحة فى معاهدها الإسلامية وثمانية بعثات إسلامية لأبناء نيجريا ومثلها لابناء ليبيريا وغانة هذا فى الوقت الذى أنشأت المعاهد لاستقبال أبناء أفريقيا تنشئهم على الإسلام تنشئة صحيحة وأقامت مدينة البعوث الإسلامية يجد فيها الافريقيون القادمون كل راحة ليكونوا فى المستقبل خير رسل للثقافة الاسلامية بل بادرت أيضاً بارساء قواعد مراكز ثقافية إسلامية فى كل من الصومال وغانا وليبيا .

أما عن مستوى المدارس دون الجامعة فإن مصر لاتتردد مطلقا فى تزويد من يطلب من الدول الأفريقية بأى عدد من المدرسين مهما كبر هذا العدد ويكفى أن نذكر أن مصر أرسلت ألف مدرس إلى الجزائر وحدها يساعدون فى تعريب التعليم بعد أن كادت اللغة العربية تنسى تماما .

وتعتنى الحكومة المصرية بانتقاء هؤلاء المدرسين فلا تنتخبهم من بين حديثى التخرج بل من بين من قضوا مدة يمارسون عملهم بشرط أن تكون التقارير عنهم مرضية جدا بل قامت فى بعض الأحيان بتدريبهم تدريبا خاصا يؤهلهم لأن يقوموا بعبء التدريس فى بلدان فيها التعليم بإحدى اللغتين الانجليزية أو الفرنسية بل هى تدرب أعدادا كبيرة من بين مدرسيها حتى وأن لم يكونوا مطلوبين للعمل فى الخارج بل كى تكون مصر مستعدة دائما لأى طلب من أية دولة أفريقية كى لا يتعطل العمل فيها إلى أن يتم تدريب العدد المطلوب بل لاتتردد الهيئات غير الحكومية فى إفتتاح المدارس فى الدول الأفريقية

كما وجدت فى ذلك منفعة لابناء هذه الدول المصرية عشرون مدرسة فى السودان يكون السودانيون من بين طلبتها ٨٥ ٪

وبعض الدول الافريقية التى تتبع المناهج المصرية مثل السودان والصومال ترسل إليهم الامتحانات بالطائرة تحملها لجان خاصة لمباشرة الامتحان مهما كان موعد هذه الامتحانات وتحمل أوراق الاجابة إلى مصر لتصحيحها على نفس المستوى الذى تصحح عليه أوراق امتحان الطلبة المصريين وللناجحين منهم حق الدخول فى الجامعات المصرية ويتولى أمر تقديم أوراقهم إدارة الطلبة الوافدين التابعة لوزارة التعليم العالى وبعض هؤلاء الطلبة يتناولون مرتبات شهرية تصل إلى العشرين جنيها لكل منهم ويبلغ عدد الجنسيات الأفريقية التى يتعلم أبناؤها فى الجامعات المصرية الخمس ثلاثين جنسية وتستقبل الكليات الدينية غير الاسلامية أبناء الدول الافريقية غير المسلمة لتخرجهم على نفس المستوى الذى يتخرج عليه المصريون مع أعفائهم من بعض الدروس التى لا تتفق مع عملهم القادم .

بعد أن وصلنا إلى هذا الحد من الاتصال والعلاقات بين مصر وأفريقيا والذى أصبح يمتد حتى وقتنا الحاضر لابد من أن نعود قليلا إلى الوراء لنشير إلى ثلاث أو أربع مسائل ذات أهمية خاصة وهى (١) الدور الذى لعبته مصر استقلال الصومال . (٢) الدور الذى لعبته مصر فى أحداث الكونغو المستقبلة (٣) الدور الذى لعبته مصر فى قيام منظمة الدول الافريقية وأثر هذه المنظمة فى احداث مصر .

فالصومال خضع بعد هزيمة إيطاليا لنوع من الادارة البريطانية لفترة استمرت من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٥٠ حتى إذا ألقت هيئة الأمم المتحدة

وضع الصومال ضمن البلاد المتخلفة فجعل تحت وصايتها فارسلت إليه لجنة لدراسة الأوضاع فيه فقررت استمرار الوصاية وترك الادارة للايطاليين على أن تكون مهمتهم جميعا قيادة البلاد نحو الاستقلال خلال فترة تنتهى فى سنة ١٩٦٠ وأقيم للاشراف على الادارة هيئة تابعة للامم المتحده مكونة من مصر وكولومبيا والفلبيين تراقب عملية نقل الصومال خلال مرحلة الوصاية .

وأخذت الدول الاستعمارية تتصارع لأجل كسب النفوذ هناك ولما كان الصومال بلدا إسلاميا نظرت إلى مصر نظرة من يجب أن تأخذ بيدها لاسيما فى الميدان الثقافى والفنى وكانت مصر من ناحية أخرى راغبة فى أن تلعب دورها الافريقى الجديد فتلاقت الرغبتان فعنى مندوب مصر فى لجنة هيئة الأمم المتحدة وهو كمال الدين صلاح بمشكلات الصوماليين وتقديم النصيحة إليهم وسعى حتى استحضر لهم بعثة من الازهر لتثقيفهم ووضع لهم مخططا إقتصاديا للنهوض باقتصاديات البلاد وتقدم به للادارة لدراسته وتنفيذه مستعينا بخبراء الأمم المتحدة ويتلخص فى تدريب الأهالى على طرق الزراعة الحديثة والاهتمام بمد الطرق إلى مناطق الانتاج وتسهيل عملية اقراض الصوماليين وخلق صناعات على أساس الخامات المحلية وتعليم الصوماليين الصناعات المنزلية فكان هذا العمل موضع الرضا من أهالى الصومال والسخط من الحكومات الراغبة فى تخلف الصومال ولذا نظرت هذه الدول إلى مصر نظرة كلها شك واتهمتها بأنها تحاول بسط نفوذها على بلاد الصومال لاسيما بعد أن وافقت مصر على إرسال بعثة من علماء الأزهر وتسعه وعشرون مدرسا . بدأوا رسالتهم الثقافية ومنحت بعض الصوماليين منحا دراسية واستضافت أكثر من مائتى طالب وطالبه من أهل الصومال فى جامعات مصر المختلفة

وبعض مدارسها الثانوية والعلمية فكان أن اعتدى على ممثليها فى لجنة الصومال اعتداء أثيما فى ١٦/٤/١٩٥٦ فكان هذا العمل موضع السخط من الحكومة الصومالية الجديدة التى كانت قد تألفت فى بداية هذا العام .

فأرسلت الجثمان إلى القاهره صحبه وفد لتقديم العزاء إلى رئيس جمهورية مصر وأطلق اسمه على أحد شوارع العاصمة مقديشو وجمعت اكتتابا باسم الشهيد وبلغ دخله فى اليوم الأول ١٠ر٩٧٦ شلنا صوماليا .

وفى سنة ١٩٦١ دعيت زوجته لحضور حفل الذكرى الخامسة الذى رأسه رئيس الجمهورية فكان تعبيرا عما يحمله الصومال من تقدير لزوجها وعادت الزوجة إلى القاهرة تحمل قرار الجمهورية الصومالية بمنحها الجنسية الصومالية الشرفية .

وحين طالبت الصومال بضم كل الأجزاء الخارجة عن حدودها التى تسكنها قبائل صومالية وهى اقليمان أحدهما فى شرق أثيوبيا والآخر فى شمال كينيا وقفت منها موقف التأييد والنصرة . ولكن حين تألفت منظمة الدول الأفريقية وقررت طرح الخلافات التى تقوم بين الدول الأفريقية ولاسيما تلك التى تدور حول الحدود . لئلا يؤدى ذلك إلى فتح باب من الخلاف لايمكن صده تحولت مصر عن هذا التأييد خضوعا منها لقرار المنظمة . وأرسلت مصر إلى الجانبين تدعوهما إلى وقف ما دار بينهما من تشابك

أما عن دورها فى الكونغو فقد تألفت فيه الحكومة الوطنية أثر إعلان الاستقلال فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٦٠ فكانت مصر فى صف هذا الاستقلال

لاسيما وقد أعلنت حكومة الكونغو الجديدة أنها حكومة إتحادية تحكم الكونغو كله كوحدة سياسة واحدة .

ولكن لم تكد الحكومة الجديدة تحت رئاسة باتريس لومومبا تمضى فى عملها حتى قام من الزعماء من يناوئها ويطالب بالكونغو المقسمة إلى ست ولايات لها استقلالها الداخلى ،وأعلن تشومبى استقلال إقليم كاتنجا وأدعى أن بعض الدول الأوروبية تؤيده ،فأرسلت الحكومة الجديدة الجيش الوطنى لمحاربته وطلبت العون من هيئة الامم المتحدة . فقررت هذه إرسال جيش يمثلها للقضاء على الحركات الانفصالية ،فأرسلت مصر كتيبة من الجيش المصرى لينضم إلى جيش هيئة الامم المتحدة ،كما أرسلت إلى الحكومة تبدى استعدادها لمد يد المساعدة لها فى كل ما تعانيه من مشاكل الكونغو وعانت الكونغو فترة طويلة من عدم الاستقرار واتهمت الحكومة الوطنية هيئة الامم المتحدة بأنها تقف فى بعض الاوقات فى صف الدول الاستعمارية وبينها بلجيكا كى تزيد من متاعب الحكومة الوطنية ،فكان أن قررت مصر سحب كتيبتها وأمرتها بالعودة إلى مصر . ولكنها فى نفس الوقت داومت على نصرة حزب باتريس لومومبا الذى عزل عن الحكم تحت تأثير انضمام بعض الأحزاب الوطنية إلى بعضها فى معارضته ،وأخيراً تمكن المستر تشومبى زعيم كاتنجا من القبض على لومومبا وقتله فاحتجت مصر على هذا العمل الإجرامى ودعت زوجته وأولاده للمعيشة فى مصر (١) . ونصرت خليفته جيزنجا الذى ألف حكومة وطنية جديدة فى ستانلى فيل فى الشرق وزحف بجيش يبغى التغلب على حكومة الأحزاب المضاده .

وفى بداية سنة ١٩٦٥ حين عز النصر على حكومة ستانلى فيل هيأت مصر مقابلة هامة فى القاهره بين جيفارا الزعيم الثورى لأمريكا اللاتينية وجاستون

(١) ذكرت بعض الجرائد اخيرا أن هذا العمل كان بتدبير من إدارة المخابرات الأمريكية

سومياليو Gaston Somiolw أحد زعماء الثوره الكونجولية والذى كان قد أعلن فى سبتمبر سنة ١٩٦٤ قيام جمهورية الكونغو الشعبية التى اتخذت لها مقرا فى حى الزمالك بالقاهرة حيث كان المجلس الأعلى للثورة ينعقد ، ودعى جيفارا ليرأس الجيوش الكونغولية الثورية المقاتلة . وسافر جيفارا فعلا من القاهرة إلى برازافيل وشارك فى إنشاء قوة عسكرية تملك من الاستعداد ما يمكنها من الصمود وكانت القاهرة من وراء هذه الجهود تباركها وتمدها بالمال. واستمر جيفارا هناك حتى فبراير سنة ١٩٦٦ حين عاد إلى القاهرة ومنها إلى أمريكا الجنوبية حيث قتل . ويعزى فشل هذه الجهود هناك إلى المنازعات القبلية التى كانت تزيد من تعقد الوضع السياسى .

وأخيرا استقرت الأحوال هناك بمجهودات هيئة الأمم المتحدة فى ظل حكومة عسكرية يرأسها الجنرال موبوتو الذى استطاع التغلب على كل المتنافسين .

• • •

أما عن الدور الذى لعبته مصر فى إنشاء منظمة الدول الأفريقية . فإن فكرة إنشاء ولايات متحدة أفريقية احتضنها أنكوامى نكروما ودعا إليها على أثر استقلال غانة فى سنة ١٩٥٧ وأيدتها الدول الافريقية ولكنها اختلفت فى مدى الوحدة بين الدول الأفريقية وكانت وجهة نظر مصر أنها فكرة سابقة لأوانها يجب أن يسبقها اتحادات صغيرة توثق الروابط السياسية والاقتصادية فيما بينها تاركة للزمن مهمة الوصول بالوحدة الافريقية نحو الكمال .

وفى يوليو سنة ١٩٦٠ انعقد فى أديس أبابا المؤتمر الأول للدول الأفريقية كخطوة أولى . وقرر العمل على توطيد السلام والأمن الدوليين تمشياً مع

ميثاق الأمم المتحدة وقرارات مؤتمر أكرا ، كما أوصى الدول الأفريقية بالاستمرار فى تأمين قضية الجزائر من الناحية المادية والدبلوماسية مع أدانة حكومة جنوب أفريقيا فى سياستها العنصرية وحين استقلت الدول الأفريقية الأخرى فى سنة ١٩٦٠ ـ لاسيما تلك التى كانت خاضعة لفرنسا ـ القت فيما بينها اتحادات اقتصادية وسياسية فشل بعضها ونجح البعض الآخر .

وأرسلت مصر بمندوبيها إلى بعض هذه المؤتمرات وطالبت بانضمام ممثلى الدول التى لم يكتمل استقلالها ومنها الجزائر فرفضت الدول المتكاملة الفرنسية هذا الاقتراح فكان أن ألفت مصر والمغرب وغانة وغينيا ومالى ـ وحكومة الجزائر الموقتة فى مصر اتحادا منافسا لاتحاد دول المجموعة الفرنسية واجتمع أعضاء الاتحاد الجديد فى الدار البيضاء فى يناير سنة ١٩٦١ وأبدى رأيه فى بعض المشاكل الافريقية مثل حث الأمم المتحدة على صيانة وحدة الكونغو ونصرة الحركات التحررية وعزمهم على تحريرها من كل تدخل أجنبى . هذا إلى قرارات أخرى ثقافية واقتصادية .

وفى ١٥ يونيو سنة ١٩٦٢ انعقدت بالقاهرة الدورة الثانية للجنة السياسية لدول الدار البيضاء وقرر اغتباطه بالنصر الذى حازته الجزائر المكافحة وتأييد الحكومة المغربية فى مطالبتها بضم موريتانيا إليها باعتبارها جزءاً منه، إلى جانب تأييد وحدة الكونغو واستنكار موقف البرتغال من الحركة التحررية فى مستعمراتها الافريقية وكذلك سياسة حكومة جنوب أفريقيا فى فرض التفرقة العنصريه ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه حكومة غانا توالى جهودها لنشر فكرتها بين الدول الأفريقية المستقلة .

وفى ٢١ مايو سنة ١٩٦٣ اجتمع مؤتمر قمة للدول الأفريقية المستقلة حضره

ثلاثون رئيساً أفريقيا لبحث المشروعات المتعلقة بالوحدة الأفريقية ودعم التعاون بين دول القارة والعمل على تحرير بقية الأجزاء الأفريقية الواقعة تحت حكم الاستعمار، كما صدر الإعلان المشترك لميثاق منظمة الوحدة الأفريقية لتحقيق الوحده والتضامن بين دول القارة فكان تتويجا لجهود مضنية بذلت لالتقاء دول أفريقيا المستقلة ولا بأس من إعطاء ملخص لهذا الميثاق .

أعلنت المادة الأولى إنشاء منظمة الوحدة الأفريقية

African Unity Organization

تتكون من دول أفريقيا وجزيره مدغشقر والجزر المجاوره .

وشرحت المادة الثانية أغراض المنظمة وهى تشجيع وحدة وتضامن الدول الأفريقية وتنسيق التعاون بينها لتحقيق حياة أفضل لشعوبها والقضاء على الاستعمار فى قارة أفريقيا .

وذكرت المادة ٣ المبادىء التى يتمسك بها الأعضاء كاحترام سيادة كل دولها وذكرت المادتان ٥ ، ٦ حقوق وواجبات الدول الأعضاء .

وذكرت المادة السابعة المنظمات الأساسية لمنظمة الوحدة الأفريقية وهى :

١ — مجلس رؤساء الدول .

٢ — مجلس وزراء الخارجية لتحضير أعمال مجلس الرؤساء .

٣ — سكرتارية عامة .

٤ — لجنة الوساطة والتوفيق والحكم .

وفى المواد ٢٠ و ٢١ و ٢٢ جاء ذكر اللجان الفرعية وهى :

١ — لجنة اقتصادية واجتماعية .

٢ — لجنة شؤون التعليم .

٣ — لجنة شؤون الصحة والتغذية .

٤ — لجنة الدفاع .

٥ — لجنة الشؤون العلمية والفنية والأبحاث .

٦ — لجنة مساعدة الحركات التحريرية .

وعلى أثر ذلك قررت الحكومات أعضاء الاتحادات الإقليمية حل هذه الاتحادات ومنها اتحاد الدار البيضاء .

وأخذت منظمة الدول الافريقية منذ ذلك الوقت تعقد اجتماعات سنوية فى العواصم الافريقية المختلفة يسبقها اجتماع وزراء الخارجية لتحضير المواضع التى تدرسها المنظمة فى اجتماعها السنوى .

وقد نجحت هذه المنظمة فى :

١ — أن توصى بنبذ الخلافات الإقليمية لاسيما تلك التى تثار من أجل الحدود . ففض الخلاف بين الصومال وإثيوبيا .

٢ — فض الخلاف بين المغرب والجزائر حول منطقة تندوف .

٣ — اعتراف المغرب بجمهورية موريتانيا ونبذ ادعائها السابق بأنها جزء منها .

٤ — التوصية بنبذ الخلافات بين منظمات تحرير الأجزاء التى لم تستقل بعد والاعتراف بأحداها فقط كممثلة لهيئة التحرير وبذل المعونة المالية لها .

. . .

وكانت القاهره مسرحا لكثير من اللقـــاءات بين رئيس جمهوريتها ورؤساء الدول الأفريقية المستقلة لاسيما بعد سنة ١٩٦٠ وسنة ١٩٦٣ ثم صدور

البيانات المشتركة التى تؤكد تصميم حكومة مصر على الوقوف فى وجه الاستعمار وفى صف الجمهوريات الأفريقية فى حروبها ضد الاستعمار وحروبها الإيجابية فى سبيل دعم استقلال هـــذه الجمهوريات وتتخذ لها أمثلة . فى بيان نهاية زيارات :

١ — الرئيس سيكوتورى لمصر فى ١٧ مايو ١٧ سنة ١٩٦٠ ، ١٩٦٥/٨/٦

٢ — الحاج همانى ديورى رئيس النيجر فى ١٠ يوليو سنه ١٩٦٣ .

٣ — هوفويه بونيه رئيس ساحل العاج فى ٦٣/٧/١٦ .

٤ — الإمبراطور هيلاسلاسى الأول إمبراطور إثيوبيا فى ٦٣/١١/٦ .

٥ — رئيس جمهورية الكونغو فى ٦٢/١٠/١١ .

وآخر ما وصلت إليه العلاقات المصرية الأفريقية فى سنة ١٩٧٤ انتظار السيد الرئيس أنور السادات لزيارة رئيس جمهورية الكونغو يوم السبت ١٩٧٤/٢/١٦ تستغرق ثلاثة أيام مصحوبا بوفد كبير يضم عدد من الوزراء ورجال الدولة والصحفيين .

ثم إنهاء زيارة الرئيس النميرى رئيس جمهورية السودان بعد أن وقع مع الرئيس أنور السادات منهاج العمل السياسى والتكامل الاقتصادى بين الجمهوريتين ، وقد نص على عقد اجتماعات دورية كل سنة على الأقل بين الرئيسين للتشاور والمتابعة ، كما نص على تشكيل لجنتين على مستوى عال للتنسيق السياسى وتحقيق التكامل الاقتصادى بين البلدين . ثم تكوين لجنة فنية مشتركة تجتمع فى ظرف أسبوعين بالخرطوم تحت إشراف وزيرى الاقتصاد فى البلدين لتتولى التخطيط لتنفيذ مشروعات محددة فى مجالات الإنتاج الزراعى والثروة الحيوانية .

كما أعلن رئيس الصومال أن بلاده تعتبر قضية الشرق الأوسط (الجلاء عن الأراضى المحتلة من جمهورية مصر) قضية قومية ولذا فهى تعتبر نفسها فى حالة حرب مع إسرائيل حتى ينسحب آخر جندى إسرائيلى من الأراضى العربية المحتلة وذلك على أثر قبول مجلس الجامعة العربية انضمام الصومال لعضوية الجامعة .

وقال وزير خارجية الصومال . إن الدول العربية تستطيع أن تقدم المال والخبرة إلى الصومال كما تستطيع الدول الأفريقية أن توفر الخامات الرخيصة ولدى الصومال ثمانية ملايين هكتار من الأراضى الخصبة الصالحة للزراعة لم يستغل منها سوى خمسة ملايين نظرا لنقص الخبرة الفنية .

وفى أول سبتمبر سنة ١٩٦٨ قامت ثورة فى ليبيا اطاحت بالملكية وأعلنت الجمهورية العربية الليبيه برئاسة العقيد معمر القذافى الذى أعلن منذ اللحظة الأولى أن هذه الثورة الليبية ليست الا استمرارا لثورة سنة ١٩٥٢ فى مصر وكان طبيعيا أن تتقارب الجمهوريتان فى سياستهما وأن يتبادل الرئيسان الزيارة والرأى فى كثير من المواضيع التى تهم البلدين . لاسيما وقد أعلن رئيس الجمهورية الليبية وضع جميع موارد جمهوريته تحت تصرف الجمهورية العربية المتحدة من أجل القضية العربية وقد أدت هذه المحادثات إلى اقتراح إقامة اتحاد اندماجى بين ثلاث جمهوريات أفريقية هى مصر وليبيا والسودان .

وحين تولى السيد أنور السادات رئاسة جمهورية مصر لم تتوقف هذه المحادثات، بل تقدمت إلى حد إعلان قيام هذه الوحدة باعلان رسمى صدر فى بنى غازى فى ١٨ دسمبر سنة ١٩٧٢ على أن تتم هذه الوحدة فى سبتمبر من العام التالى بعد أن تبحث الجهات المختصة خطوات هذه الوحدة فى اجتماعات متأنية

كى لا تصاب الوحده بالفشل أو التعثر، بينما رأت السودان أن تتأخر قليلا عن الإندماج فى هذه الوحدة إلى أن تتم إقامة مؤسساتها الدستورية . ويبدو أن الفريق القذافى رأى بعض المعارضة لهذه الوحدة من جانب مصر والرغبة فى تأجيلها بعض الشىء . فاراد أن يدفعها دفعة قوية فاعلن راديو طرابلس فى ١٧ يوليو سنة ١٩٧٣ أن مسيرة ضخمة تضم الالاف من أبناء الشعب الليبى أطلق عليها اسم (مسيرة الزحف) قد بدأت التحرك بالسيارات نحو القاهرة للمطالبة بإتمام الوحدة الاندماجية فى موعدها المحدد (أول سبتمبر المقبل)، كما أعلن الرئيس الليبى للمرة الاولى نبأ استقالته من منصبه تنفيذا للوحدة وتهيئة المجال لها وازالة لعقباتها ولكنه لم يلبث أن عدل عنها تحت ضغط الرأى العام الليبى إلى أن تقوم دولة الوحدة . وفعلا وصلت المسيرة إلى مصر وسلمت هذه المسيرة إلى ممثلى الاتحاد الاشتراكى المصرى وثيقة مكتوبة بالدم تدعو إلى إعلان الوحدة الاندماجه رسميا فى أول سبتمبر ثم عادت إلى ليبيا .

وفى ٢٩ اغسطس سنة ١٩٧٣ اذيع بيان سياسى رسمى بقيام دولة الوحدة الجديدة التى (تتطلع إلى استئناف دورها فى ترشيد حركة الإنسان على اساس القيم والمبادىء التى تقوم عليها الحضارة العربية) بعد استفتاء الشعب المصرى والليبى فيها . وتتكون على أثره جمعية تأسيسية من اعضاء مجلس الشعب المصرى واللجان الشعبية فى ليبيا لتقوم بعمل دستور دولة الوحدة، وأن يتم كذلك إقامة لجان مختلفه تقوم بدورها بدراسة نواحى هذه الوحدة المختلفة . على أن تحال مشروعات القوانين التى تفرغ من دراستها هذه اللجان المختلفة إلى القيادة السياسية للوحدة لاتخاذ الاجراءات اللازمة لاستكمال دراستها واصدارها[1] .

(١) انتهت كل هذه الجهود بالفشل بل الى سوء العلاقات بين مصر وليبيا لأسباب كثيرة .

ومنذ الاعتداء الإسرائيلى فى يونيو سنة ١٩٦٧ لجأت مصر إلى المنظمات الدولية تطالب منها العون على ازالة أثار هذا الاعتداء طالبة أصدار قرارات فعالة من أجل ارغام اسرائيل على الجلاء عما احتلته بالقوه من اراضى مصر ، فكان طبيعيا أن تلجأ إلى منظمة الدول الافريقية لاجل هذا الغرض . فلم تنصرها فى هذا الحق سوى الدول الافريقيه العربية أو الإسلامة ، فلم يهن ذلك من قوتها وظلت تعرض الامر على هذه المنظمة فى اجتماعاتها السنوية أو خلال الانصالات التى تقوم بها مصر مع الدول الافريقيه المختلفة فى المناسبات المختلفة فأخذت الدول الأفريقية تستجيب لها شيئا فشيئا فكان أول من استجاب لها وقطع علاقته باسرائيل وطالب بجلائها عن الأراضى المصرية التى اغتصبتها هى أوغندا ولم يصدر قرار من المنظمة يدعو اسرائيل إلى الجلاء عن الأراضى المحتلة الا فى سنة ١٩٧١ فكان هذا أقوى قرار صدر من المنظمة مما أدى إلى تشكيل لجنة من عشر دول برئاسة المختار ولد داده رئيس موريتانيا للقيام بالاتصالات مع الاطراف المعنية ولكن الأمر وقف عند هذا الحد .

وقامت مصر خلال سنة ١٩٧٢ بزيارات متعددة ومحادثات مكثفة من وزير الخارجية المصرية إلى الدول الإفريقية المختلفة أدت فى اجتماع هذه المنظمة فى سنة ١٩٧٣ ثم إلى اجماع الدول الأفريقيه على تأييد الحق المصرى والمطالبة بوجوب جلاء اسرائيل عن الأراضى المحتلة التى احتلتها بالقوة من جمهورية مصر وهددت باستعمال مايشبه العقوبة لاسرائيلى وكانت الخطوة الثانية أن تتابعت الدول الأفريقية فى قطع علاقتها باسرائيل .

وإذا مابدأت مصر حربها فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ ضد اسرائيلى حتى دخل هذا التهديد دوره العملى وقطعت الدول الأفريقية فعلا هذه العلاقة

واعترفت جمهورية مصر بهذا الدين الذى طوق عنقها لهذه الدول الأفريقية فى صوره تفكير لتوثيق صلتها بهذه الدول ومحاولة تعويضها عن الإضرار التى لحقتها من جراء قطع علاقتها باسرائيلى .

وفى أواخر سنة ١٩٧٣ اجتمع فى القاهرة مؤتمر وزراء الصناعة فى أفريقيا ليناقش التنمية الصناعية فى أفريقيا وكيف تتم لصالح الشعوب الأفريقية ونصت قراراته أخيرا — بعد دراسة الوضع الراهن فى القارة — على :

١ — لابد من صياغة استراتيجية قومية للتصنيع وأن ترتبط الصناعة بالزراعة .

٢ — لابد من تشجيع التطور التكنولوجى والاهتمام بالتدريب والتعليم وأن تتعاون الدول الأفريقية فى تبادل الخبرات .

٣ — لابد من وضع سياسة أفريقية مشتركة وإقامة مراكز للمعلومات تنقل الخبرة وتقدم الجديد .

٤ — لابد من تشجيع صناعات التصدير معتمدة على ظروف إقتصادية مواتية وخامات محلية وخبرات أفريقية وتمويلى معقول وأسواق مفتوحة .

٥ — تكليف سكرتارية اللجنة الاقتصادية إعداد دراسة حول اتجاهات الأسعار فى مجال المواد الأولية المعدنية ومجال المواد المصنوعة مع إمداد الدول الأفريقية بنتائج الدراسات فور اتمامها .

٦ — السعى نحو إنشاء شركات أفريقية تقيمها خبرات محلية ، لتحل محل الشركات الأجنبية لتقوم باسرع ماتستطيع بافرقه مايمكن أفرقته منها .

وكذلك اجتمعت فى القاهرة فى ٢٢ يناير سنة ١٩٧٤ لجنة السبعة التابعة

لمنظمة الوحدة الأفريقية مع وزراء البترول العرب فى مقر جامعة الدول العربية ودار البحث حول .

١ — ضرورة تنفيذ قرار مؤتمر القمة العربى الخاص بحظر تصدير النفط إلى الأنظمة العنصرية فى أفريقيا (جنوب أفريقيا والبرتغال وروديسيا).

٢ — ضمان تزويد الدول الأفريقية بحاجتها من النفط واثار إرتفاع أسعار النفط على الدول الأفريقية .

ومنذ اللحظه الأولى للاجتماع أعلن وزراء البترول العرب بطريقة حاسمة استعدادهم للتعاون الأخوى مع الدول الأفريقية فى كافة المجـالات ولذا قرر المؤتمر .

١ — إنشاء صندوق خاص برأس مال قدره ٢٠٠ مليون دولار لمواجهة حاجات الدول الأفريقية العاجلة .

٢ — وضع رأس مال البنك العربى للتنمية الاقتصادية فى أفريقيا .

. . .

هذا وتقوم لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشعب المصرى حاليا بإجراء إتصالات ببرلمانات الدول الأفريقية لعقد مؤتمر (الباجواش) الأفريقى بالقاهرة بعد أن اجتمعت لجنته التحضيرية يوم ٧ يناير سنة ١٩٧٤ بالقاهرة وحضرها خمسة وعشرون عضوا من العلماء الإفريقيين وذلك للاعداد للندوة الخاصة بمشاكل التنمية بأفريقيا التى ستعقد بالقاهرة .

ويرجع اسم الباجواش إلى حركة الباجواش العالمية التى تألفت نتيجة لنداء الرئيس جواهر لال نهرو الذى وجهه إلى علماء العالم للاجتماع لبحث ومناقشة إمكانية استخدام الطاقة الذرية لخدمة السلام والمشاركة فى التنمية .

والهدف الاساسى للحركة أن تكون حلقة اتصال غير رسمية للبحث عن حلول للمشاكل الدولية الحادة أو الوصول من خلال المناقشات والابحاث إلى توصيات فعالة على أسس علمية وإنسانية ويقوم العلماء بحكم اتصالاتهم بنقل هذه الأفكار إلى المستويات المؤثرة فى حكوماتهم والهيئات الدولية والتنظيمات السياسية .

والهدف من تشكيل مجموعة باجواش أفريقية وإنعقاد موتمرها الأول فى يناير سنة ١٩٧٥ هو تدعيم التعاون العلمى بين الدول الأفريقية وتحديد أولويات الموضوعات والبحوث المشتركة التى تفيد هذه الدول وزيادة الرابطة بين علمائها .

ولقد أوصت اللجنة التحضيرية لمؤتمر البساجواش الافريقى الأول بدعوة عدد من العلماء من جميع الدول الأفريقية والعربية لبحث نواحى التنمية وإمكانياتها ومدى التعاون المشترك فى هذا المجال والدور الذى يجب أن يقوم به العلماء وأقرت اللجنة أن يكون موضوع أبحاث المؤتمروهو (السلام والتنمية) وتنقسم إلى ست مجالات أساسية هى :

١ — التقدم العلمى والتكنولوجى فى أفريقيا .

٢ — السكان والتنمية فى أفريقيا .

٣ — التنمية ووسائل القضاء على تلوث البيئة .

٤ — التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى أفريقيا .

٥ — التنمية ودور العالم الخارجى .

٦ — دور المستوطنين البيض فى التنمية الأفريقية .

ولاشك أن كل واحدة من هذه المجالات الأساسية تجب تحتها مواضيع فرعية لابد من بحثها .

ولاشك أن اتخاذ القاهرة مكانا لانعقاد المؤتمرات الإفريقية أوالمؤتمرات الإفريقية يدل على ما لمصر من مكانة ثم ماتوليه مصر للعلاقات الإفريقية من عناية جريا على سياستها التقليدية وشعورا من الدول الإفريقية بما لعلاقتها بمصر من الدوام والإستقرار .

كدنا نفرغ من طبع هذا الكتاب حين عقد فى القاهرة — بدعوة من كنيسة الاسكندرية — مؤتمر مجلس كنائس أفريقيا ، وقد لبى الدعوة ٢٤ كنيسة أفريقية . جميعها بروتستانتية بالإضافة إلى كنيسة مصر الأرثوذكسية التى أصبحت عضواً فى هذا المجلس منذ أنشىء فى كمبالا فى سنة ١٩٦٣ ، وهو يضم ١١٤ كنيسة من ٣١ دولة .

وقد عملت الحكومة المصرية إلى جانب الكنيسة على الترحيب بأعضاء المؤتمر الذى عقد فى ١٨ فبراير واستمر حتى ٢٦ فبراير سنة ١٩٧٦ .

وقد بدأ الاحتفال الذى أقيم بقاعة القديس مرقس فى القاهرة ، وافتتحه قداسة البابا شنوده الثالث بكلمة ألقاها باللغة الإنجليزية — بعد الصلاة — ذكر فيها أن هذا المجلس منذ إنشائه يشجع كل الحركات التحريرية فى أفريقيا ويدافع عن حقوق الإنسان ، ويحارب التفرقة العنصرية ، ويساند الكنائس الافريقية على أن تعتمد على نفسها ، وتقوى بعضها بعضاً وتنشر كلمة الله قوية فعالة ، وهكذا جاهد المجلس من أجل أفرقة كنائس أفريقيا ونادى بأن أفريقيا للافريقيين .

وأشار إلى دور كنيسة الاسكندرية فى إقامة نظام الرهبنة وإلى دورها أيضاً فى إقامة أول وأعظم مدرسة لاهوتية فى العالم ، علاوة على كونها كنيسة أفريقية لحماً ودماً ، وأشار السيد الرئيس أنور السادات فى خطابه الذى قرأه السيد ممدوح سالم رئيس مجلس الوزراء إلى أن الرسالة الأصلية لكنيسة الأسكندرية هى تأييد الحق والعدل الهادف إلى نشر السلام .

وأشار السيد الوزير البرت برسوم سلامة إلى أن كنيسة الأسكندرية

فى أقدم الكنائس المسيحية وأول كنيسة فى أفريقيا وإلى أن مصر تحوى إلى جانب ذلك جامعة الأزهر التى هى أعظم مركز أكاديمى للتعليم الإسلامى .

واشتركت فى الاحتفال جامعة الدول العربية وألقى كلمتها السيد الأمين المساعد الذى قال إن الهيئة تهنىء نفسها على عقد هذا المؤتمر .

وذكر السيد سكرتير مجلس الكنائس أن المؤتمر يعقد جلسته فى مصر هذه المرة ليستمد إلهاماً جديداً وقوة متجددة لمواجهة التحدى الذى تواجهه الكنائس وجميع الرجال والنساء المؤمنين فى أفريقيا المعاصرة ، ولأن مصر هى الأرض المقدسة فى أفريقيا وكنيستها أول كنيسة أرسلت مبشرين لنشر الإنجيل فى أنحاء أخرى من أفريقيا .

هذا إلى أن مصر كانت أول من قدم التدريب والتأييد للمحاربين من أجل الحرية فى جنوب أفريقيا .

ودام استمرار المؤتمر تسعة أيام شغلت كلها بمناقشات بناءة للجان المختلفة وانتهت إلى قرارات كان أهمها :

١ — تأكيد رابطة التضامن بين الشعوب الأفريقية والعربية .

٢ — إن إزالة التحزبات بين المسيحيين والمسلمين فى القارة سوف تقوى التضامن الأفريقى العربى .

٣ — أن تقوم برامج مشتركة فى الحوار والتفاعل مع المسلمين فى العالم الأفريقى العربى بهدف تقوية الاحترام المتبادل .

٤ – أن يقوم قادة الإسلام والمسيحية فى العالم الأفريقى العربى ببحث جاد لفلسفاتهم وممارساتهم الدينية بقصد مراجعة تلك الأمور فى الإسلام والمسيحية التى قد تعيق أو تعطل تحقيق الأخوة الصادقة والتضامن بين الأفريقيين والعرب دون التضحية بالعقائد الأساسية فى كلا الديانتين .

٥ – أن تعمل كل من منظمة الدول الأفريقية وجامعة الدول العربية على تقديم التشجيع الإيجابى والمعاونة الفعالة لتحقيق هذه التوصيات .

فهرست الاعلام

مراجع البحث

انطونى تادرس — جهود مصر الثقافية فى السودان . رسالة ماجستير فى الدراسات الأفريقية لم تنشر
أنــور زقلمة — نحن وأفريقيا — القاهرة ١٩٦٥
ايفا ميروفتش — فى بلاط ملك أفريقى (مترجم) — « ١٩٦٧
برستــد — تاريخ مصر من أقدم الأزمنة حتى الفتح الفارسى (مترجم) القاهرة ١٩٢٩
بوفــل — الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا (مترجم) — القاهرة ١٩٦٨
بوركارت — رحلات بوركارت فى بلاد النوبة والسودان — القاهرة ١٩٥٩
جاك درويش — جذور الثورة الأفريقية (مترجم) — القاهرة ١٩٦٥
جمعية مار مينــا — الرهبنة القبطية — الاسكندرية ١٩٤٨
زاهــر رياض — كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا — القاهرة ١٩٦٩
السودان المعاصر — « ١٩٦٦
تاريخ إثيوبيــا — « ١٩٦٦
الإسلام فى إثيوبيا — « ١٩٦٤
شمال أفريقيا فى العصر الحديث — « ١٩٦٧

زاهـــر رياض　استعمار أفريقية　القاهرة ١٩٦٥

استعمار القارة الأفريقية واستقلالها　» ١٩٦٦

الشاطر بوصيـــلى　تاريخ وحضارة السودان　» ١٩٧٢

شوقى عطا الله الجمل　التضامن الآسيوى الأفريقى　» ١٩٦٤

تاريخ سودان وادى النيل　» ١٩٦٩

محمد محمود السروجى　العلاقات بين مصر وإتيوبيا في القرن التاسع عشر　اسكندرية ١٩٦١

لومـــومبا　لومومبا يكتب　بيروت ١٩٥٧

محمد أبو الفتوح الخياط　الوحدة الأفريقية　عدد أقرأ رقم ٢٧٥ غير مؤرخ

يوسف جرجس　الرحلة البطريركية　القاهرة ١٩٢٩

يوسف منقريوس　تاريخ الأمة القبطية　القاهرة غير مؤرخ

يعقوب جرجس نجيب　موجز تاريخ البطاركة　» » »

مرآه العلوم الاجتماعية　مجلة ربع سنوية كان يصـــدرها تفتيش المواد الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم فى القاهرة ثم توقفت .

مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة)

رسالة أفريقيـــا　مجلة شهرية تصـــدرها الرابطة الأفريقيـــة بالقاهرة .

جريده الأهـــرام　اعداد مختلفة

مصلحة الاستعلامات المصرية　مجموعة خطب السيد الرئيس جمال عبد الناصر عن أفريقيا .

Aziz Sourial Attia, History of Easdrn Christianity, Lon. 1968

Hanz Lietmann, History of Early Church, English Translation, N.Y., 1953.

Eva Mirovitz, The Divine Kingship in Ghana and Egypt, Lon.

Hardy, Christian Egypt. Lon. 1963.

فهرس

الموضوع — الصفحة

الكتاب الاول

الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

الموضوع | الصفحة

الكتاب الرابع



مكتبة الأنجلو المصرية

رقم الايداع ٣٢٩٠/٧٦

٩٧٧ رقم دولى — ٢٦٦ — ٠٤٠ — ٧